بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

مقدمات في

التربية والإصلاح الشرعي

د. معاذ سعيد حوى

الوحدة الأولى

مقدمات في علم التربية والتزكية والإصلاح

تمهيد:

للإصلاح والتربية عند المسلمين مناهج عبر تاريخ المسلمين، تنطلق من الكتاب والسنة، وتلتزم بعلوم الشريعة من عقيدة وفقه وتفسير وحديث، وتسترشد بتجارب المربين الأكابر الذين كان لهم أثر في إصلاح الأمة وهداية البشرية.

وفي هذه الوحدة نبين المصطلحاتِ وأسماءَ هذا الجانب، وهذا العلم المختص بهذا الجانب التربوي التزكوي الأخلاقي القلبي.

ونبين ما هي النفس، التي هي محل التربية والإصلاح، وهي تشتمل على روح وعقل وقلب وجسد، ونبين تعريف تلك العوالم النفسية.

ثم نبين أهمية هذا العلم ومقاصد هذا الفَنّ وأهدافه، حيث هو جانب عملي لا يتوقف على العلم، بل مقصده عملٌ وسلوك وتحقُّق وتخلُّق ومعرفة وقربٌ من الله واستقامة على شريعته.

ونبين ضمن ذلك ما هي رسالة المسلم تجاه نفسه وتجاه البشرية والأمة الإسلامية.

كما نبين حكم تزكية النفس وما الذي يجب من ذلك على كل مسلم وعلى كل إنسان.

ثم نعطي تصوراً في جدول يستطيع الإنسان من خلاله أن يشخص حالته التزكوية، في أي مرحلة هو من التزكية.

ولما كان المنهج التربوي الإسلامي عبر التاريخ يسمى بالتصوف؛ فقد تحدثت عن التصوف وأنه طريق إصلاح المجتمع والحكام والشعوب، وبينت مكانة التزكية والتصوف بين العلوم الشرعية.

ثم ذكرت توضيحات مختصرة حول العلاقة بين التصوف والتربية في الإسلام، لتزيل الإشكال حول تعريف التصوف ونشأته ومصادره وعقيدة أهله.

المبحث الأول

تعريفات لغوية واصطلاحية

يستعمل العلماء للتربية والإصلاح مصطلحات كثيرة ذات مدلول متقارب، فمن ذلك:

التربية

لغة:

قال ابن فارس: «(رَبَيَ أَ) الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه يدلُّ على أصلٍ واحد، وهو الزِّيادة والنَّماء والعُلُوّ، تقول مِن ذلك: ربا الشّيءُ يربُو، إذا زاد ... ويقال ربَّيْتُهُ وتربَّيْتُه، إذا غَذَوْته ... لأنّه إذا رُبِّي نَما وزكا وزاد»[1].

قال ابن منظور: «رَبَوْتُ في بَني فلان أَرْبُو نَشَأْتُ فيهِم ورَبَّيْتُ فلاناً أُرَبِّيه تَرْبِيَةً وتَرَبَّيْتُه ورَبَبْتُه ورَبَّبْته بمعنى واحد، الجوهري: رَبَّيْته تَرْبِية وتَرَبَّيْته أَي غَذَوْتُه، قال: هَذا لكل ما يَنْمِي كالوَلَد والزَّرْع ونحوه»[2].

«رَبَتَ الصبيَّ ورَبَّتَه رَبَّاه، ورَبَّتَه يُرَبِّتُه تَرْبيتاً رَبَّاه تَرْبيةً»[3].

«ورَبَّ ولَدَه والصَّبِيَّ يَرُبُّهُ رَبّاً ورَبَّبَه تَرْبِيباً وتَرِبَّةً؛ عن اللحياني بمعنى رَبَّاه، وتَرَبَّبَه وارْتَبَّه ورَبَّاه تَرْبِيَةً وتَرَبَّاه؛ أَحسَنَ القِيامَ عليه وَوَلِيَه حتى يُفارِقَ الطُّفُولِيَّةَ، كان ابْنَه أَو لم يكن ... والصَّبِيُّ مَرْبُوبٌ ورَبِيبٌ وكذلك الفرس والمَرْبُوب المُرَبَّى ...

الرَّبُّ يُطْلَق في اللغة على المالكِ والسَّيِّدِ والمُدَبِّر والمُرَبِّي والقَيِّم والمُنْعِمِ، ولا يُطلَق غيرَ مُضافٍ إلاّ على اللهّ عزّ وجلّ، وإذا أُطْلِق على غيرِه أُضِيفَ فقيلَ: ربُّ كذا»[4].

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٤٨٣.

(٢) لسان العرب: ١٤/ ٣٠٤.

(٣) لسان العرب: ٢/ ٣٣.

(٤) لسان العرب: ١/ ٣٩٩.

اصطلاحاً:

يتوافق المعنى الاصطلاحي للتربية مع المعاني اللغوية، ومعاني التربية لغوياً تكمل بعضها لتؤدي مفهوم التربية الشامل اصطلاحاً، فهي تعني: التنمية والتنشئة والإصلاح.

لكنها في الاصطلاح تطلق على الجانب المعنوي والفكري، أكثر من الجانب الحسي والجسدي.

واصطلاحاً علم التربية يختص بالدرجة الأولى بالتربية الفكرية والعلمية والسلوكية، وقد تكون التربية الجسدية والغذائية والصحية تبعاً له.

وقد صارت في زماننا التربية؛ عَلَماً على عِلْم، يَعتَني بالتوجيه الثقافي والفكري والسلوكي في المجتمعات، ولا تكاد تخلو جامعةٌ من هذا التخصص.

كما صارت التربية مصطلحاً على جانب مهم من جوانب عمل الوزارات والحكومات، فلا تخلو حكومة من وزارة التربية والتعليم، وهي تَعْنِي تربية الثقافة والفكر والتعليم وتوجيه السلوك، وقَلَّما يكون لها دَورٌ عملي في التربية والسلوك وتربية القلوب والنفوس والآداب والأخلاق، سوى الجانب المعرفي، على قُصورٍ فيه غالباً.

وقد استعمل القرآن لفظ ﴿ الربانيين ﴾، ويرى بعض العلماء بأنه يعني المُربِّين الحكماء، قال ابن منظور ذاكراً من معاني الرباني: «وقيل هو من الرَّبِّ بمعنى التربيةِ، كانوا يُرَبُّونَ المُتَعَلِّمينَ بِصغار العُلوم قبلَ كبارِها، والرَّبَّانِيُّ العالم الرَّاسِخُ في العِلم والدين أَو الذي يَطْلُب بِعلْمِه وجهَ اللهِ»[1].

ومصطلح التربية كان قليل الاستعمال قديماً، لكنَّ مضمونَه مستعمل، قال د. أبو عَرّاد: «يمكن القول: إن مصطلح التربية الإسلامية يُعد مصطلحاً علمياً حديث النشأة في المجال التربوي، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن معروفاً من قبل إذ إن هناك مجموعةً من المصطلحات المرادفة التي ورد ذكرها مبثوثةً في كُتبِ وتراثِ سلفنا الصالح ، والتي استعملها بعضهم للدلالة على معنى التربية الإسلامية ، ومنها على سبيل المثال: مصطلح التنشئة، و يُقصد به تربية الإنسان

(١) لسان العرب: ١/ ٤٠٣.

ورعايته منذ الصغر، وهو مصطلح قد يدل – على العموم – على معنى التربية؛ إلا أنه لايفي تماماً بذلك، ويأتي من أبرز المستخدمين لهذا المصطلح العالم ابن خُلدون في مقدمته الشهيرة»[1].

ثم ذَكَرَ مصطلح التزكية وأنه استعمل في القرآن.

ومصطلح **التأديب** فيسمى المُعلِّم مُؤدِّباً، و**التعليم تأديباً**، والمعارف آداباً، واستعمله البخاري في كتابه (الأدب المفرد)، وأبو الحسن الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) وغيرهم.

ومصطلح الإصلاح، ومصطلح الإرشاد.

ومصطلح **التهذيب**، ويعني **تنقية الأخلاق والصفات والسلوكِ؛ من كل رَذِيلة، حتى تُصبح في أحسن حالٍ وأجمل صورة**، واستعمل هذا المصطلح ابن مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق).

ومصطلح **السياسة**، وهو مصطلح يُقصد به **حُسن تدبير الأمور في مختلف شئون الحياة**، وممن استخدمه في هذا الشأن العالم المسلم ابن الجزار القيرواني في كتابه (سياسة الصبيان وتدبيرهم)[2].

ـ ولما كانت كل أمة تربي على ثقافتها وعقائدها وسلوكياتها، فطبيعي أن نجد تعريف التربية اصطلاحاً عند كل أمة ينصبغ بمنطلقات تلك الأمة وثقافتها واهتماماتها وسائلها التي تعتني بها، كما ينصبغ التعريف باهتمام المُعرِّف، إن كان مهتماً بالفرد وإصلاحه، أو بالمجتمع وإصلاحه، أو بالأسرة وإصلاحها، أو غير ذلك.

فمن تعريفات التربية[3]: تعريف أفلاطون: «إعطاء الجسم والروح كلَّ ما يمكن من الجمال والكمال».

---

(١) سبعة مقالات في التربية الإسلامية، د. صالح بن علي أبو عرَّاد، ص ٨.

(٢) سبعة مقالات في التربية الإسلامية، د. صالح بن علي أبو عرَّاد، ص ٩.

(٣) أصول التربية: ص ١٧–١٨..

وتعريف ابن خلدون الذي يتلخص في «أن التربية: تنشئة اجتماعية للفرد لتعويده بعض العادات والقيم السائدة في المجتمع وإكسابه المعلومات والمعارف الموجودة في المجتمع.

والغزالي يرى أن « غاية التربية هي تزكية النفس وطهارتها، في حين يرى البيضاوي أنها تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً».

وقال المُناوي: « التربية: إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام»[1].

ومن التعريفات المعاصرة للتربية:

«تغذية الجسم وتربيته بما يحتاج إليه من مأكل ومشرب ليشّب قوياً معافى قادراً على مواجهة تكاليف الحياة ومشقاتها، فتغذية الإنسان والوصول به إلى حد الكمال هو معنى التربية، ويقصد بهذا المفهوم كلّ ما يُغذي في الإنسان جسماً وعقلاً وروحاً وإحساساً ووجداناً وعاطفة»[2].

ويعرفها بعضهم بأنه رعاية وعناية للجانب الجسمي والخُلقي، الذي يتمثل في إكساب الطفل أساسيات قواعد السلوك ومعايير الجماعة التي ينتمي إليها[3].

«التربية عموماً تعتبر عملية شاملة، تتناول الإنسان من جميع جوانبه النفسية والعقلية والعاطفية والشخصية والسلوكية وطريقة تفكيره وأسلوبه في الحياة، وتعامله مع الآخرين، كذلك تناوله في البيت والمدرسة وفي كل مكان يكون فيه ، وللتربية مفاهيم فردية واجتماعية، ومثالية»، فهي تكشف مواهب الطفل وتعمل على تنميتها، وتحافظ على التراث وتبحث عن أسباب تقدم المجتمع وتطوره، وتعتني بالمثل العليا للمجتمع، الأخلاقية والاقتصادية والإنسانية، النابعة من حضارته وثقافته وتاريخه[4].

ـ والتربية في زماننا أخذت مناحي مختلفة، فصارت التربية تخصصاتٍ كثيرةً في زماننا، فمنها: التربية الإيمانية، والتربية الروحية، والتربية الأخلاقية، والتربية العقلية، والتربية النفسية، والتربية الجسمية، والتربية الاجتماعية، والتربية الإعلامية، والتربية الرياضية، والتربية الفنية،

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف: ص ١٦٩.

(٢) أصول الفكر التربوي في الإسلام، عباس محجوب: ص ١٥.

(٣) الأهداف التربوية للعبادات في الإسلام، محمد حسين أحمد: ص ١٤.

(٤) أصول التربية: ص ١٩.

والتربية الوطنية، والتربية السياسية، والتربية العسكرية والتوجيه المعنوي، والتربية الاقتصادية، والتربية الخاصة، وتربية الأطفال.

ونذكر تعريفات لأهم هذه التخصصات:

تربية الأطفال:

«الإصلاح والتهذيب، حيث تُبذل جهودٌ كبيرة ومستمرة لرعاية الطفل، وإصلاح أحواله، وعدم إهماله، بدءاً من الأسرة، مروراً بالمدرسة، ودور العلم، ووعظ العلماء، وقراءة الكتب، وسماع البرامج الهادفة... وهذا وغيره يساعد في إصلاح الطفل، وإثراء نفسه بالعلم المفيد، والنهج السديد، إذ يرتبط طلب العلم بمناهج التربية، مما يعطي الأطفال مع مرور الوقت خبرات ومهارات وتوجيهات، تساعدهم على تحقيق أهدافهم في الحياة، فللتربية دورها الرائد، وأثرها العميق في توجيه ميول الطفل، وربطه بالأخلاق الحميدة، والعلاقات الإنسانية الراقية، وكبح جماح الشهوات، ورفع القوى نحو الخير والصواب»، والتربية ترتبط بمفهوم التدريج، فالتثقيف يخضع لمراحل عديدة، ومعلومات متباينة، بحسب قدرات الطفل واستيعابه[١].

التربية الأسرية:

«رفع درجة وعي الفرد من مختلف الأعمار، بشتى الظروف والملابسات والنواحي المختلفة المرتبطة بحياة الأسرة، من الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والنفسية، بغية تحقيق السعادة والاستقرار للأسرة والمجتمع[٢].

التربية الاجتماعية:

«التربية هي العملية المقصودة أو غير المقصوة التي يحددها المجتمع حسب ثقافته لتنشئة الأجيال الجديدة بما يجعلهم على علمٍ ووعي بوظائفهم في المجتمع».

---

(١) تربية الأطفال في ضوء الكتاب والسنة، بديوي: ١/ ١٤.

(٢) موقع ألوكة https: //www.alukah.net/social/٠/٩٤١٧٣/#ixzz٦ZDDWz٧٨h ، نقلاً عن د. سارة صالح عيادة الخمشي، دور التربية الأسرية في حماية الأبناء.

«التربية عملية تطبيع مع الجماعة وتعايش مع الثقافة وبذلك تكون حياة كاملة وتحت ظروف معية وفي ظل حكم معين وتمشي مع نظام محدد وخضوعاً لعقيدة ثابتة فهي عملية تشكيل وصقل للإنسان»[1].

التربية الإسلامية:

«إعداد الفرد المسلم إعداداً كاملاً من جميع النواحي في جميع مراحل نموه، للحياة الدنيا والآخرة، في ضوء المبادئ والقيم، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي جاء بها الإسلام» [2] .

التزكية

لغة:

قال ابن فارس: «زكي: الزاء والكاف والحرف المعتلّ أصلٌ يدل على نَمَاءٍ وزيادة»[3].

وبين ابن منظور وغيره أن أصل التزكية والزكاء والزكاة يدور حول عدة معاني، هي: الطهارة، والنَّماء والزيادة والبَركةُ، والمَدْح، والصلاح، وكله قد استعمل في القرآن والحديث.

زَكا يَزْكو زَكاءً وزُكُوّاً: **النَّماء والزيادة والرَّيْعُ**، في قوله تعالى: وقولِه سبحانه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: **١٣**] معناه: وفعلنا ذلك رحمةً لأَبويه **تَزْكِيةً** له؛ والزَّكاةُ: **الصلاحُ**، ورجل تقيٌّ زَكِيٌّ: أَي زاكٍ من قوم أَتْقياء أَزْكِياء، أي صالحين، قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: **٢١**]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: **٨١**] أي: خيراً منه عملاً **صالحاً**.

والزَّكاةُ: زَكاةُ المال، معروفة، وهو تطهيره، والفعل منه زَكَّى يُزَكِّي تَزْكِيةً، منه: قال تعالى: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة: **١٠٣**]: **تُطَهِّرُهم** بها، وقال تعالى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ [الكهف: **٧٤**] أي: نفساً **طاهرة** بريئة من الذنوب.

---

(١) أصول التربية: ص ١٨.

(٢) أهداف التربية الإسلامية وغاياتها، مقداد يالجن: ص ٢٠.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ٣/ ١٧.

وقد زكا زَكاءاً وزُكُوًّا وزَكِيَ وتَزَكَّى وزَكَّاه الله وزَكَّى نفسه تَزْكِيَةً: **مدَحها**، منه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: **٣٢**] أي: فلا **تمدحوها**[١].

قال الراغب الأصفهاني: «وتزكية الإنسان نفسَهُ ضربانِ: أحدُهما بالفعل، وهو محمود وإليه قُصِدَ بقوله ﴿قد أفلح من زكاها﴾ وقوله ﴿قد أفلح من تزكى﴾، والثاني: بالقول كتزكية العدل غيره، وذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ ونهيه عن ذلك تأديب لقُبْحِ مدْحِ الإنسانِ نفسَه عقلاً وشرعاً، ولهذا قيل لحكيم: ما الذي لا يحسُنُ وإن كان حقّاً؟ فقال: مدْحُ الرجل نفسَه»[٢].

اصطلاحاً:

لا يخرج معنى التزكية اصطلاحاً عن معناه اللغوي، فجميع المعاني اللغوية داخلة في المعنى الاصطلاحي للتزكية المطلوبة شرعاً، وهي تتضمن جانبين: جانب التطهير، وجانب النماء والزيادة والترقي، وكلاهما عامل في صلاح الإنسان.

قال المناوي في التعاريف ص١٧٤: «التزكية: إكساب الزكاة، وهي نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم، قاله الحَرالِّيُّ، وأصل التزكية: نفي ما يستقبح قولاً أو فعلاً، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان»[٣].

وقال أبي الشيخُ سعيد حوى رحمه الله: «فزكاة النفس: تطهيرها من أمراض وآفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها بأسماء وصفات، فالتزكية في النهاية: تطهّر وتحقق وتخلق، ولذلك وسائله المشروعة، وماهيته، وثمراته الشرعية، ويظهر آثار ذلك على السلوك؛ في التعامل مع الله عز وجل، ومع الخلق، وفي ضبط الجوارح على أمر الله»[٤].

ويمكن تعريف التزكية اصطلاحاً بأنها:

صلاح الإنسان بطهارتِه من السوء والباطل، وارْتقائِه في الخير والحق.

وهذا التعريف هو وصف لحقيقة التزكية من حيث هي، وتطلق التزكية ويراد بها عملية

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب: ١٤/ ٣٥٨-٣٥٩، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص٢١٤.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ص١٧٤.

(٤) المستخلص في تزكية الأنفس: ص٣. وقال في موضع آخر: «تزكية النفس تعني باختصار: تطهيرها من الشرك وما يتفرع عنه، وتحقيقها بالتوحيد وما يتفرع عنه، وتخلقها بأسماء الله الحسنى، مع العبودية الكاملة لله بالتحرر من دعوى الربوبية، وكل ذلك من خلال الاقتداء برسول الله ﷺ»، المستخلص ص١٥٣.

التزكية وفعل التزكية، فتكون التزكية عندئذ بمعنى: إصلاح الإنسان بتطهيره من السوء والشر، وتنمية الخير عنده، وتَرَقِّيه فيه[1].

وحيثما ذكرت التزكية في القرآن الكريم فهي شاملة لهذين المعنيين: التطهير والترقية، كما بيّنه كثير من المفسرين[2].

وعَرَّف بعض المعاصرين التزكية بأنها: «تطهير النفس البشرية بمختلف جوانبها (الجسمية ، والعقلية ، والروحية)، من كل المساوئ الظاهرة والباطنة»[3].

الصلاح والإصلاح

لغة:

مِن صَلَح، قال ابن فارس: «الصاد واللام والحاء أصل واحد، يدل على خلاف الفساد، يقال: صَلُح الشيء يَصْلُح صَلاحاً، ويقال: صلَح بفتح اللام»[4].

ويقال: أصْلَح في عمله أو أمره: أتى بما هو صالح نافع.

وأصلح الشيء: أزال فساده.

وأصلح بينهما، أو ذات بينهما: أزال ما بينهما من عداوة وشقاق، قال تعالى: ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ [الحُجُرات: ٩]، وقال تعالى: ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ [الأنفال: ١].

---

(١) قُلْتُ في كتابي: التزكية على منهاج النبوة: وطهارة الإنسان من السوء تشمل طهارة عمله وطهارة قوله، تشمل ظاهره وباطنه، تشمل طهارة عقله وقلبه وجسده، تشمل طهارة اعتقاداتِه وأفكاره ونياته ورغباته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وأحواله، وتشمل طهارته من التأثُّر بما حوله من بيئة فاسدة ووسوسة شيطانية.

وترقية الإنسان في الخير تشمل ذلك كله، فتشمل ترقية العمل والقول والظاهر والباطن ...

ومعرفة الخير والسوء ترجع إلى الله ورسوله ﷺ، فكل ما كان حسناً خيراً في شرع الله فهو خير وحَسَن، وكل ما كان سوءاً وشراً في شرع الله فهو سوء وشر، والعقول مهما عَقَلَت واهتدت إلى معرفة الخير والسوء؛ فإن عِلم الله فوق كل عِلم، بل هو سبحانه الذي أعطى خلقه بعض العلم، قال سبحانه: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(٢) انظر مثلاً: تفسير الطبري: ١/ ٥٥٨، وتفسير ابن كثير: ١/ ١٨٥، قال الطبري في تفسيره ٣٠/ ٢١١: «قوله: قد أفلح من زكاها؛ يقول: قد أفلح من زكى الله نفسه، فَكَثَّرَ تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل».

(٣) سبعة مقالات في التربية الإسلامية، د. صالح بن علي أبو عرَّاد، ص ٩.

(٤) معجم مقاييس اللغة: ٣/ ٣٠٣.

وأصلح الله لفلان في ذريته أو ماله: جعلها صالحة، قال تعالى: ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ويقال: صالحه مصالحة وصَلاحاً: سالمه وصافاه، واصطلح القوم: زال ما بينهم من خلاف، وتصالحوا: اصطلحوا.

والصالح: المستقيم المؤدي لواجباته، والصَّلاحُ: الاستقامة والسلامة من العيب[1].

اصطلاحاً:

لا يختلف عن المعنى اللغوي الدائر على إزالة الفساد، فالصلاح إزالة الفساد، والإصلاح: محاولة جعل الغير صالحاً، وإزالة فساده، قال تعالى ذاكراً قول نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

ويشمل الصلاحُ والإصلاحُ الإنسانَ في فكره وقلبه وسلوكه وعمله، ويشمل إزالة فساد الأفراد والمجتمعات والحكومات، والحالة الفكرية والثقافية والتعليمية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية والأمنية وغيرها.

واستُعمِل الإصلاح كمصطلح للإصلاح الأسري بين الزوجين، والإصلاح بين الناس، وهو من معانيه اللغوية، وقد صار اليوم مصطلحاً على فن وتخصص بذاته.

قال الراغب الأصفهاني: «الصَّلاحُ: ضدّ الفساد ... وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسّيّئة، قال تعالى: ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ [التوبة: ١٠٢] ، ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ﴾ [الأعراف: ٥٦] ...

والصُّلْحُ يختصّ بإزالة النّفار بين الناس، يقال منه: اصْطَلَحُوا وتَصَالَحُوا، قال [تعالى]: ﴿ أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء: ١٢٨] ... ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإِصْلاحُ اللهِ تعالى الإنسانَ يكون تارة بخلقه إيّاه صَالِحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصَّلاحِ. قال تعالى: ﴿ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢]، ﴿ يُصْلِحْ

---

(١) المعجم الوسيط: ١/ ٥٢٠.

لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧١]، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١]، أي : المفسد يضادّ الله في فعله، فإنّه يفسد، والله تعالى يتحرّى في جميع أفعاله الصَّلاحَ ، فهو إذاً لا يُصْلِحُ عملَه»[١].

وقد عَرَّف بعض المعاصرين الإصلاح بأنه: «تعديل الشيء ، وتحسينه ، وتقويمه»، ثم بين أنه مصطلحٌ لا يؤدي المعنى الكامل للتربية ؛ وإنما يؤدي جزءًا منه[٢].

الرشاد والإرشاد

لغة:

قال ابن منظور:

الرُّشْد والرَّشَد والرَّشاد: نقيض الغَيّ.

رَشَد الإِنسان بالفتح يَرْشُد رُشْداً بالضم، ورَشِد بالكسر يَرْشَد رَشَداً ورَشاداً فهو راشِد ورَشيد، وهو نقيض الضلال، إِذا أَصاب وجه الأَمر والطريق.

وأَرشَدَه الله وأَرشَدَه إِلى الأَمر ورشَّده هداه.

وفي الحديث: وإِرشاد الضالّ؛ أَي هدايته الطريقَ وتعريفُه.

والإِرشاد: الهداية والدلالة.

وقوله تعالى: ﴿ يا قوم اتبعون أَهدكم سبيل الرشاد ﴾ [غافر: ٣٨] أَي أَهدكم سبيلَ القصدِ سبيلَ الله وأُخْرِجْكم عن سبيل فرعون[٣].

وفي المعجم الوسيط:

الراشد: المستقيم على طريق الحق مع تصلب فيه ومنه الخلفاء الراشدون.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٤٨٩-٤٩٠، ومعنى العبارة الأخيرة: أن الله لا يحكم بالصلاح على فعل المفْسِد، والله تعالى أمر الإنسان بالإصلاح، فإذا أفسد لم يقبل منه ذلك وتركه إلى فساده ليعاقبه على ما اختارَه وكَسَبَه خلاف الصلاح.

(٢) سبعة مقالات في التربية الإسلامية، د. صالح بن علي أبو عرَّاد، ص ٩.

(٣) لسان العرب: ٣/ ١٧٥ . وقد اخترت من كلامه ما يمس موضوعنا، وإلا فللرشاد معاني أخرى. وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٩٨: رشد: الراء والشين والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على استقامةِ الطريق.

الرشد (عند الفقهاء): أن يبلغ الصبي حد التكليف صالحاً في دينه مصلحاً لماله، و(في القانون) السن التي إذا بلغها المرء استقل بتصرفاته.

المراشد: المقاصد ومقاصد الطرق.

المرشد: الواعظ[1].

ويطلق لفظ المرشد على الدليل، وهو الذي يلزم من العلمِ به العلمُ بشيء آخر[2].

اصطلاحاً:

كثر عند علماء التزكية والتصوف استعمال لفظ المرشد للشيخ المربي، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً **مرشداً** ﴾ [الكهف: ١٧]، والقرآن مُرْشِد: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى **الرُّشْدِ** ﴾ [الجنّ: ١-٢]. والمؤمن راشد، قال تعالى: ﴿ وَلكِنَّ اللهَّ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ **الرَّاشِدُونَ** ﴾ [الحجرات: ٧].

قال الجرجاني: «المرشد: هو الذي يدل على الطريق المستقيم قبل الضلالة»[3].

الإرشاد «بذل النصح للآخرين، ودلالتهم على الخير»، وقد استخدم هذا المصطلح الحارث المحاسبي في (رسالة المسترشدين)[4].

وقد استخرج عدد العلماء معنى المرشد من كلام الغزالي رحمه الله، فقال الخادمي:

«(مُرْشِد كَامِل) فِيه صِفَةِ الْإِرْشَادِ بِأَنْ يَكُونَ مُعْرِضًا عَنْ حُبِّ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْجَاهِ، وَقَدْ كَانَ تَابِعٌ لِشَخْصٍ بَصِيرٍ، تَتَسَلْسَلُ مُتَابَعَتُهُ إلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَكَانَ مُحْسِنًا لِرِيَاضَةِ نَفْسِهِ؛ مِنْ قِلَّةِ الْأَكْلِ وَالنَّوْمِ وَكَثْرَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّوْمِ، وَكَانَ بِمُتَابَعَةِ الشَّيْخِ الْبَصِيرِ جَاعِلًا مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ لَهُ سِيرَةً، كَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْيَقِينِ والسّخاوَةِ وَالْقَنَاعَةِ وَطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ وَالْحِلْمِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْعِلْمِ وَالصِّدْقِ وَالْحَيَاءِ وَالْوَفَاءِ وَالْوَقَارِ وَالتَّأَنِّي وَأَمْثَالِهَا، فَهُوَ إذَنْ نُورٌ مِنْ أَنْوَارِ النَّبِيِّ

(١) المعجم الوسيط: ١/ ٣٤٦.

(٢) التعريفات، للجرجاني: ص١٤٠.

(٣) التعريفات: ص ٢٦٨.

(٤) سبعة مقالات في التربية الإسلامية، د. صالح بن علي أبو عرَّاد، ص ١٠.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَصْلُحُ لِلاقْتِدَاءِ، لَكِنْ وُجُودُ مِثْلِهِ نَادِرٌ أَعَزُّ مِنْ الْكِبْرِيتِ الْأَحْمَرِ ... وَلَا تَخْلُو الْبِلَادُ عَنْهُ»[١].

الإحسان

لغة:

قال ابن فارس: «حسن: الحاء والسين والنون أصلٌ واحد، فالحُسن ضِدُّ القبح»[٢].

قال ابن منظور: «الحُسْنُ ضدُّ القُبْح ونقيضه.

الحُسْن نَعْت لما حَسُن، حَسُنَ وحَسَنَ يَحْسُن حُسْناً فيهما فهو حاسِنٌ وحَسَن.

وأَحاسِنُ القوم حِسانهم، وفي الحديث أَحاسِنُكم أَخْلاقاً المُوَطَّؤُون أَكنافاً.

وحسَّنْتُ الشيءَ تحْسيناً زَيَّنْتُه.

وقوله تعالى: ﴿ والذين اتَّبَعوهم بإحسان ﴾ أَي باستقامة وسُلوك الطريق الذي درَج السابقون عليه.

والحَسَنةُ ضدُّ السيِّئة، وفي التنزيل العزيز: ﴿ مَنْ جاء بالحَسَنة فله عَشْرُ أَمثالها ﴾.

والمَحاسِنُ في الأَعمال ضدُّ المَساوي.

وقوله تعالى: ﴿ إنا نراكَ من المُحسِنين ﴾ الذين يُحْسِنون التأْويلَ، ويقال: إنه كان يَنْصر الضعيف ويُعين المظلوم ويَعُود المريض؛ فذلك إحْسانه.

قوله عز وجل: ﴿ ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً على الذي أَحْسَنَ ﴾ المعنى تماماً من الله على المُحْسِنين.

وقوله عز وجل: ﴿ ومن يُسْلِمْ وجهَه إلى الله وَهْو مُحْسِن ﴾ فسره ثعلب فقال: هو الذي يَتَّبع الرسول ﷺ.

والإحْسانُ ضدُّ الإساءة، ورجل مُحْسِن ومِحْسان»[٣].

---

(١) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية: ٣/ ٦٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٥٧.

(٣) لسان العرب: ١٣/ ١١٤.

وقال الراغب الأصفهاني: «الحُسْنُ : عبارة عن كلّ مبهج مرغوب فيه ، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحسّ»[١].

وفي المعجم الوسيط:

أحسن: فعل ما هو حسن، وفي التنزيل العزيز: ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾.

وأحسن الشيء: أجاد صنعه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾، وأتقنه.

الأحسن: الأفضل، وفي التنزيل العزيز: ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾.

الاستحسان (في الاصطلاح): ترك القياس والأخذ بما هو أرفق للناس.

الحسن (في مصطلح الحديث): ما عُرِف مَخْرَجُه واشتَهر رجاله.

الحُسْن: الجمال، وكل مبهج مرغوب فيه، والجمع: محاسن[٢].

اصطلاحاً:

ذكر ابن منظور المعنى الاصطلاحي للإحسان في آيات وأحاديث فقال: « وفَسَّرَ النبيُّ ﷺ الإحسانَ حين سأَله جبريلٍ صلوات الله عليهما وسلامه فقال: هو (أَن تَعْبُدَ الله كأَنك تراه، فإن لم تكن تراه فإِنه يَراك) وهو تأْويلُ قوله تعالى: ﴿ إن الله يأْمُر بالعدل والإحسان ﴾ **وأَراد بالإحسان الإخْلاص**، وهو شرطٌ في صحة الإيمان والإسلام معاً، وذلك أَن من تلفَّظ بالكلمة وجاء بالعمل من غير إخْلاص لم يكن مُحْسِناً؛ وإن كان إيمانُه صحيحاً، وقيل: **أَراد بالإحسان الإشارةَ إلى المُراقبة وحُسْنِ الطاعة، فإن مَنْ راقَبَ اللهَ أَحسَن عمَله**، وقد أَشار إليه في الحديث بقوله: (فإِن لم تكن تراه؛ فإِنه يراك)، وقوله عز وجل: ﴿ هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان ﴾ أَي ما جزاءُ مَنْ أَحْسَن في الدُّنيا إلا أَن يُحْسَنَ إليه في الآخرة»[٣].

وقال الراغب: وأكثر ما جاء في القرآن من الحسن فللمستحسن من جهة البصيرة ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: ١٨]، أي : الأبعد عن الشبهة.

(١) مفردات القرآن: ص ٢٣٥.

(٢) المعجم الوسيط: ١/ ١٧٤.

(٣) لسان العرب: ص ١١٧.

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ [البقرة: ٨٣] أي : كلمة حسنة ، وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِّ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] ، إن قيل : حكمه حسن لمن يوقن ولمن لا يوقن فلم خصّ؟ قيل : القصد إلى ظهورِ حُسْنِهِ والاطلاعِ عليه ، وذلك يظهر لمن تزكّى واطلع على حكمة اللهّ تعالى دون الجهلة.

والإحسان يقال على وجهين : أحدهما : الإنعام على الغير ، يقال : أحسن إلى فلان.

والثاني : إحسان في فعله، وذلك إذا عَلِم عِلْماً حَسَناً ، أو عَمِل عَمَلاً حَسَناً.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ ﴾ [النحل: ٩٠] ، **فالإحسان فوق العدل ، وذاك أنّ العدل هو أن يعطي ما عليه ، ويأخذ أقلّ مما له ، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ، ويأخذ أقلّ ممّا له، فالإحسان زائد على العدل ، فتحرّي العدل واجب ، وتحرّي الإحسان ندب وتطوّع** ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِّ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨] ، ولذلك عظّم اللهّ تعالى ثواب المحسنين ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللهَّ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١] ، ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ ﴾ [النحل: ٣٠][١].

وقال الجرجاني: «الإحسان: هو التحقق بالعبودية، على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة، أي رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته، فهو يراه يقيناً ولا يراه حقيقةً، ولهذا قال ﷺ: (كأنك تراه)»[٢].

وقال المناوي: «الإحسان: إسلام ظاهر، يقيمه إيمان باطن، يكمله إحسان شهودي. قاله الحَرَالِّيّ»[٣].

---

(١) مفردات القرآن: ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) التعريفات: ص ٢٧.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف: ص ٤٠.

التوفيق والوِفاق الأسري

لغة:

قال ابن فارس:

«وفق، الواو والفاء والقاف: كلمةٌ تدلُّ على ملاءمة الشيئين.

منه الوَفْق: الموافَقة.

واتَّفَق الشيئانِ: تقارَبَا وتَلاءَما.

ووافَقْتُ فلاناً: صادقْتُه، كأنهما اجتمعا متوافِقَين»(1).

وقال الراغب الأصفهاني: «الوِفْقُ : المطابقة بين الشّيئين، قال تعالى: ﴿ جَزاءً وِفاقاً ﴾ [النبأ: ٢٦].

والاتِّفَاقُ: مطابقة فعلِ الإنسانِ القدرَ، ويقالُ ذلك في الخير والشّرّ، يقال: اتَّفَقَ لفلان خير، واتَّفَقَ له شرٌّ. والتَّوْفِيقُ نحوه لكنه يختصّ في التّعارف بالخير دون الشّرّ. قال تعالى : ﴿ وَما تَوْفِيقِي إِلا بِاللهِ ﴾ [هود: ٨٨]»(2).

قال في المعجم الوسيط: «التوفيق من الله للعبد: سد طريق الشر، وتسهيل طريق الخير»(3).

اصطلاحاً:

هذا المسمى (الوِفاق) و (التوفيق)، لم يكن اصطلاحاً مِن قبل، وصار اصطلاحاً في زماننا.

وفي المعنى الاصطلاحي يرجع إلى معناه اللغوي، بمعنى الموافقة والتقارب والملاءمة والمطابقة.

والتوفيق: محاولة إيجاد الموافقة والملاءمة، ومحاولة إزالة النُّفْرَة والتخالف والمعارضة.

والوفاق: الحالة التي يكون التّطابقُ والألفةُ والموافقةُ والملاءمةُ حاصلةً فيها.

واستُعمل (الوفاق) و (التوفيق) مصطلحاً سياسياً ودُوَليّاً:

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٦/ ١٢٨.

(٢) مفردات القرآن: ص ٨٧٧-٨٧٨.

(٣) المعجم الوسيط: ٢/ ١٠٤٧.

قال في المعجم الوسيط: «(التوفيق) (في القانون الدولي): محاولة إحدى الدول الإصلاح بين دولتين متنازعتين.

(الوفاق) (في القانون الدولي): اصطلاح يطلق على مختلف الاتفاقات الدولية، في أي صورة كانت، ولو بتبادل الخطابات مثلاً»(١).

واستعمال لفظ (الوِفاق) يشمل صور حصول الوفاق وأسباب إيجاد الوفاق من غير تخالف سابق ولا نزاع، ويشمل محاولات التوفيق التي تُنْتِجُ وِفاقاً، فمصطلح الوفاق يشمل التوفيق وزيادة(٢).

وقبل سنوات صار لفظ (التَّوْفِيق) مصطلحاً مضافاً إلى الأسرة، في دوائر القضاء في الأردن.

فصَدَر نظام رقم ١٧ لسنة ٢٠١٣م، نِظامُ مكاتب الإصلاح والتوفيق الأسري، وأُقِرَّ، ونشر في الجريدة الرسمية ٣/ ٢/ ٢٠١٣م، حيث جُعِلَ لهذه المكاتب مديرية مختصة بذلك، في دائرة قاضي القضاة، في المملكة الأردنية الهاشمية، وقد جرى العمل به، فيتم إحالة النزاعات إلى مكاتب الإصلاح والتوفيق الأسري، مِن قِبَلِ المحاكم الشرعية، أو مباشرة من طرفي النزاع، أو إحداهما، ومما جاء في هذا النظام:

«المادة ٤ أ - يُنْشأُ في كل محكمة شرعية حسب الحاجة مكتب يسمى (مكتب الإصلاح والتوفيق الأسري) بقرار من قاضي القضاة، يهدف إلى إنهاء النزاعات الأسرية بالطرق الودية وبالتوعية والتثقيف بالحقوق والواجبات الزوجية وتقديم الإرشاد الأسري.

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/ ١٠٤٧.

(٢) في بداية الفصل الأول من السنة الدراسية ٢٠٢٠ -٢٠٢١ افتتحت كلية الفقه الحنفي في جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، تخصصاً باسم: الإصلاح والوفاق الأسري الشرعي، والوفاق هنا مصطلح يشمل معاني التوفيق والإصلاح، ويشمل حالة الوفاق ابتداءً كيف نربي المجتمع ليكون في وفاق، ولا يحتاج إلى توفيق بعد قطيعة وتنافر وتخالف.

وهذا التخصص في كلية الفقه الحنفي هو أول برنامج متخصص في مستوى البكالوريوس على مستوى العالم الإسلامي، يعتني بإيجاد المصلحين الأسريين، بما يجمع بين الجانب التربوي التزكوي من جهة، وبين المعارف المعاصرة في علوم النفس والاجتماع والأسرة من جهة ثانية، وبين الفقه الحنفي الذي يتسم بالمرونة، ويهدف هذا البرنامج إلى إيجاد متخصصين مؤهلين في الإصلاح الأسري والتوفيق بين الأزواج، لديهم مهارات ومعارف فقهية ونفسية واجتماعية واقتصادية وتدريبية، ويهدف هذا البرنامج تقديم متخصصين لدائرة قاضي القضاة، حيث إن الذين يمارسون الإصلاح الأسري ممن يتبعون لدائرة القضاء اليوم في الغالب؛ ليسوا متخصصين ولا دارسين في هذا المجال، وإنما يُختارون بمؤهلات عامة فقط.

المادة ٦ ب - يُراعى في اختيار العضو أن يكون من ذوي الخبرة والكفاءة والقدرة على الإصلاح، وأن يكون حاصلاً على شهادة جامعية في الشريعة أو الشريعة والقانون أو علم الاجتماع أو علم النفس أو التربية».

وهذه المكاتب في هذه المديرية من **أعمالها وأهدافها**:

١. إنهاء النزاعات الأسرية بالطرق الودية الرضائية.

٢. توعية الأسر بالإدارة الناجحة للمشكلات الأسرية.

٣. التدريب والإرشاد للمقبلين على الزواج.

٤. تقديم الدراسات والأبحاث الأسرية.

٥. حماية الأطفال من الآثار السلبية للنزاعات الأسرية[١].

ويستعمل مصطلح (التوافق الأسري) بمعنى: تحقيق أسباب التوافق والائتلاف والتعاون والانسجام والمحبة ودوام الزوجية بين الزوجين، ومن أهم تلك الأسباب تحقق شروط الكفاءة، ولا سيما في الجانب الديني والاجتماعي والاقتصادي.

كما يستعمل الناس مصطلح (الوِفاق أو الوِفْق بين الزوجين) بمعنى حالة التَّقَبُّل النفسي التي بينهما، بغض النظر عن وجود أسباب ومبررات لهذا التقبل أو عدمه، فرسول الله ﷺ يقول: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٢]، وأحياناً يحصل الكره بين الزوجين والتنافر بلا سبب ظاهر، كما في حديث «**ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس** ﷺ **أتت النبي** ﷺ **فقالت: يا رسول الله؛ ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُق ولا دِين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله** ﷺ **: أتردين عليه حديقته**[٣]**، فقالت: نعم، فقال**

---

(١) انظر: الموقع الرسمي لدائرة قاضي القضاة ـ المملكة الأردنية الهاشمية

https: //sjd.gov.jo /Pages /viewpage.aspx?pageID=٢٠٠

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣١٥٨، عن عائشة رضي الله عنها، ومسلم رقم ٢٦٣٨، عن أبي هريرة ﷺ، وقوله: (الأرواح): بمعنى النفوس، (جنود مجندة): أي على أنحاء مختلفة، فبعضها مجتمع وبعضها متفرق، (تعارف): توافقت صفاتها وتناسبت في أخلاقها، (ائتلف): حصلت بينهم الألفة وهي المحبة والمودة، (تناكر): تنافرت في طبائعها وقلوبها، (اختلف): تنافر وتباعد.

(٣) أي المهر الذي دفعه إليك.

الرسول: اقْبَلِ الحديقة، وطلقها تطليقة»[1]، فهذه المرأة طلبت الطلاق من زوجها، على الرغم من أنها مدحته بأنه ليس فيه ما يُكرَه، لكنها لا تُطِيقُه ولا تأتلف معه.

وتستعمل عبارة (التوافق الأسري)، كشرط من شروط الكفاءة، بمعنى تكافؤ الأسرتين اللتين منهما الزوج والزوجة، بحيث لا يؤدي اختلاف الحال الاجتماعي والمستوى العائلي إلى مشكلات بعد الزواج، وفي زماننا يوجد عند بعض الناس مبالغات في هذا الشأن، فيمنعون كثيراً من الزواج بحجة عدم التوافق الأسري.

والتوفيق الأسري لا يقتصر على حل المشكلات بين الزوجين، وإنما يعتني بالأسرة كلها، فيصلح بين الآباء والأبناء، ويسعى لإشاعة التربية النموذجية التي تكون الأسرة فيها في انسجام وحب وتعاون.

ويترادف مصطلح (الإصلاح) و (التوفيق) الأسري، من حيث أنهما يدلان على وجود مشكلة قائمة ونزاع، فيسعى المصلح لإزالة المشكلة والنزاع، فإن لم يستطع، حاول أن يُوجِد الانسجام والتأقلم والتقبل والتحمل، من الطرفين أو أحدهما، مع بقاء المشكلة، فيتجاوزها الطرفان، ويعيشان في تعاون وسعادة، على الرغم من وجود شيء لا يعجب أحدهما، كما قال النبي ﷺ: «لا يَفْرَكُ مؤمنٌ مؤمنةً، إنْ كَرِهَ منها خلقاً رضي منها آخر»[2]، فلا ينبغي أن نطلب الحياةَ الكاملةَ والصفاتِ الكاملةَ في أحد الزوجين، فلن نجد ذلك، فنتقبل الغالب الصالح، ولا نجعل خطأً يغطي الجمال الكثير والخير الكبير.

وإذا رفض أحد الزوجين التنازل والتسامح؛ فعندئذ يعطي القضاءُ كُلَّ ذي حَقٍّ حقَّه، ويطالب كل واحد بواجبات، أما في الإصلاح والتوفيق، فقد نسترضي أحد الطرفين أو كلاهما، ونطالبه بالتنازل عن بعض حقه.

ومصطلح (الإصلاح)، يستعمل بمعنى أعم، فلا يقتصر على الأسرة، فهناك إصلاح اقتصادي، وهناك إصلاح سياسي، وهناك إصلاح اجتماعي، وهكذا.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٩٧١. (ولكني أكره الكفر في الإسلام): أي لا يُقبَل في الإسلام أن يُجبَر الإنسان على ما لا يرتاح إليه، فذلك من شأن الجاهلية.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٦٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقوله: (لا يَفْرَكُ): أي لا يبغضها، وهذا البغض يؤدي عادة إلى مفارقتها أو طلاقها.

مصطلحات أخرى

في معنى التربية والتزكية

وقد اصطلح العلماء على تسمية التربية وعلم التزكية بمصطلحات وتسميات أخرى، فيسمونه: علم الأخلاق والآداب أو فقه الباطن أو علم السلوك أو علم الطريق أو علم التصوف أو علم الحقيقة أو علم الطريقة.

الأخلاق والآداب

الأخلاق والآداب الظاهرة والباطنة هي جانب من جوانب التربية والتزكية، فمِن التزكية: التطهُّر من الأخلاق الرذيلة، والحرصُ على الأخلاق الحسنة الرفيعة، ولكن التزكية تشمل غير ذلك مما له علاقة بالإيمان وبالعبادات وغير ذلك.

فقه الباطن

فقه الباطن يشمل النيات وإصلاحها، ويشمل تطهير الفكر والقلب من الأمراض الباطنة كالرياء والحقد والغرور والحسد وغيرها، وهو جانب من أهم جوانب التربية والتزكية، لكنه ليس هو كلَّ التزكية.

وفقه الباطن وصلاحُه أساسٌ عظيم مهم في التربية والتزكية لقول النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

ويُمكِن أن تُعتبَرَ موضوعاتُ التزكية جميعاً من فقه الباطن، من جهة أن ما يظهر على الإنسان لا قيمة له ولا صلاح فيه ولا تزكية به؛ إلا إذا رافقه حال قلبي صحيح، فالحالة الباطنة هي التي عليها مدار التربية والتزكية.

ولكن هذا لا يعني أنه يجوز أن يكتفى بإصلاح الباطن، بل لا بد أن يعمل الإنسان في ظاهره ما يتوافق مع الباطن السليم، ما دام قادراً على العمل به، وعندئذ تكتمل التزكية والتربية.

علم السلوك

علم السلوك: هو المعرفةُ بوسائلِ تزكيةِ النفس وتربيتِها، والمسالكِ الشرعية المتَّبعة للوصول

---

(١) أخرجه البخاري رقم **٥٢** ومسلم رقم **١٥٩٩**.

إلى التزكية.

لكنه لا يشمل ثمراتها ومعارفها والمقامات التي يتوصل إليها كأثر عنه، فعلم السلوك يشكل الجانب العملي في تحصيل التزكية، لكنه لا يستوعب كل جوانب التزكية.

علم الطريق

علم الطريق: وهو تعبير عن الطريق والمَسْلَكِ الذي يسلكه الإنسان في تربية نفسه، أو يُدَرِّج فيه المُرَبِّي المُرَبَّى في تربيته، فهو بمعنى علم السلوك، ولا يشمل كل جوانب التزكية.

وجازت تسمية التربية والتزكية بالطريق؛ لأن الله تعالى سمى دينه طريقاً بقوله: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ **طَرِيقٖ** مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ **طَرِيقًا** * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، فالجنة لها طريقها، والنار لها طريقها.

علم التصوف

علم التصوف يشمل جميع معاني التربية والتزكية والإصلاح والإحسان.

وقد صار مصطلحاً جرى عليه كثير من الناس منذ القرن الثاني، يطلقونه على التزكية، إلا أنه - كسائر العلوم - اختلط فيه الحق والباطل، فما كان منه حقاً موافقاً للكتاب والسنة ومستنبَطاً منهما فهو تزكية، وما كان خارجاً عنهما أو مخالفاً لهما فليس هو من التزكية.

والتسميات والمصطلحات المستحدثة ليست مشكلة، ما دامت لا تُلْغِي معنى صحيحاً، ولا تُضِيف معنى باطلاً، والعبرة بالمضمون، لذلك قالوا: (لا مُشاحَّةَ في الاصطلاح)، أي لا ينبغي أن يُختَلَف عليه.

وإطلاقُ لفظ (التصوف) على علم التزكية هو أمر مستحدث بعد النبي ﷺ، فالنبي ﷺ لم يُسَمِّ التزكية تصوفاً، كما أن إطلاق لفظ (العقيدة) على الإيمان أمر مستحدث، فالنبي ﷺ لم يُسَمِّ الإيمان عقيدة، وإنما هي مصطلحات جرى عليها الناس، فالمعاني الصحيحة والمضمون الذي يوافق الحق نأخذه، والمضمون الباطل نرفضه.

وكما وجد في العقيدة عقائد باطلة لا تجعلنا نترك العقيدة الصحيحة بسبب وجود الباطلة، كذلك لا ينبغي أن نترك الحق من التزكية الذي يوافق الكتاب والسنة إذا سُمِّيَ تَصَوُّفاً؛ بسبب وجود تصوُّفٍ باطلٍ ومنحرف.

وقد تجد مصطلح التصوف محموداً في بعض البلاد وعند بعض الناس، ومذموماً عند

آخرين، وناسٌ يَرَوْنه مُخْتَصّاً بإصلاح القلوب، وناسٌ يرونه مرتبطاً بالعزلة والزهد في الدنيا والإكثار من ذكر الله، وناسٌ يرونه علامةً على البعد عن السياسة، وهذه المفاهيم حول التصوف إما نشأت بسبب صوفية منحرفين، أو بسبب إعلام كاذب حرص على تشويه التصوف، ليصرف الأمة عن إصلاحِ القلوبِ والأخلاقِ، والاعتناءِ بالقِيَمِ والتربية، وعلى كل حال؛ فإنما يهمنا من هذا العلمِ وكُتُبِه ما ينفعُ مما يَرْجِعُ إلى الكتاب والسنة الصحيحة.

علم الطريقة

علم الطريقة يستعمل أحياناً بمعنى الطريق الذي سبق ذكره، ويستعمل بمعنى آخر، وهو الإشارة إلى طرق الصالحين والمربين في تزكية النفوس.

فقد اشتَهر أئمةٌ صالحون في علم التزكية وفي تربية الناس، كما اشتهر علماءُ مجتهدون أئمةٌ في علم الفقه أو علم العقيدة أو علم الحديث، أو غيرها من العلوم.

فنسبت التزكية إليهم فقيل مثلاً: طريقة الجنيد، وطريقة الرفاعي، وطريقة الجيلاني، وطريقة الغزالي، وطريقة الشاذلي، وطريقة النقشبندي، وغيرهم كثير.

ومع أن هذه الطُّرُق التربوية راجعةٌ إلى الكتاب والسنة في اجتهاداتها في التربيةِ وتزكيةِ النفوس، لكنها لا تخلو من اختلاف كاختلاف الفقهاء في اجتهاداتهم وأصولهم، وهي كما قال البوصيري: (وكُلُّهم مِن رسولِ الله مُلْتَمِس).

وكما أن المجتهد الفقيه يجتهد فيصيب وقد يخطئ؛ كذلك المجتهدون في التربية قد يقع منهم الخطأ في العلم أو الوسيلة أو العمل، لكنهم معذورون كالفقهاء، وقولُ الإمامِ المجتهدِ في أمر اجتهادي لا يعتبر قولاً ساقطاً، إنما يعتبر قولاً مرجوحاً في حق مجتهد آخر، أما العامة فليس لهم الحكم على إمام مجتهد، إنما لهم نقل كلام المجتهد مع الأدب.

ومدارس الأئمة المجتهدين في التربية مقبولة في الأمة، ومعمول بها، والناس سائرون عليها.

وعامَّةُ ما ترى من انحراف عند الطرق الصوفية فهو من الأتباع لا من المشايخ الذين نُسِبت إليهم الطرق[1].

وإنما تَبِع الناسُ أصحابَ الطُّرُقِ الصوفية لِما عُرِف عنهم من منهج في التربية، وقدرة على

[1] فأنت تجد ـ مثلاً ـ الإمام الرفاعي في كتابه: «البرهان المؤيد»، ينكر الشَّطحات والقولَ بالوحدة المطلقة إنكاراً شديداً، ويعتبرها ثلمة في الدين، وتجده ينكر البدع ويحذِّر منها، وينكر دعاوى الشيوخ وترفعهم على تلامذتهم، ويحث على التواضع والعبودية والاتباع والأخذ بالسنة، بينما تجد كثيراً من المنتسبين إلى طريقته قد وقعوا فيما أنكره وحذر منه.

تزكية المريدين السالكين، ولِمَا غلب على الظن من صلاحهم، مع ظهور قبولهم عند كثير من الخَلْق.

وقد يكون بعض المشايخ الذين انتسبوا إلى الطرق منحرفين، لكن ظنَّهم الناس على خير، وإنما يحكم الناس بحسب ظنهم، والحكم لله أولاً وآخراً، وواجبنا إذا وجدنا شيئاً فيه خَلَلٌ أن نَرُدَّ ذلك إلى الكتاب والسنة، فما كان منهما أو لم يخالفهما قبلناه، وانتفعنا منه، وما ظهر لنا خطؤه ومخالفته رددناه، فالطريقة التي تعبَّدَنا الله بها هي طريقةُ رسول الله ﷺ، وهو ﷺ المرجع الذي يتشرف بالانتساب إليه أصحابُ الطرق وغيرُهم.

وقد طرأ على كثير من الطرق بِدَعٌ وانحرافات ونقص وزيادات؛ فواجبنا أن نصلحها ونردها إلى صوابها.

وإنما تعددت الطرق مع أن الدينَ واحدٌ وسنةُ النبيّ ﷺ واحدة؛ لاختلاف السُّبُل والطرائق في تربية النفوس، وخاصة في بداية السير إلى الله، وإلا فنتائج السير واحدة في الاستقامة وحُسنِ الأحوال.

فمِن أصحاب الطرق من يهتم ـ في بداية السير ـ بالمعارف والعقائد ويرسخها في النفوس لتنشِئَ سيراً صحيحاً ورغبة قلبية سليمة، **ومنهم** من يهتم بالآداب الظاهرة والباطنة، **ومنهم** من يهتم بمجاهدات النفس ومخالفة أهوائها، **ومنهم** من يهتم بالذكر، **ومنهم** من يهتم بترك المعاصي والتحذير منها، **ومنهم** من يُذكِّر بالآخرة ويحبب الجنة ويخوف من النار، **ومنهم** من يهتم بالعلم الشرعي بتعليم العقيدة والفقه في أول السير، **ومنهم** من يعطي القلب اهتماماً، **ومنهم** من يعطي الظاهر اهتماماً في البداية، وهكذا.

كما تختلف الطرق بحسب ترتيب الأوراد، فيما وراء الفرائض والرواتب، فما نَدب إليه الشرع الشريف من غير أن يربطه بوقت معين؛ فقد جعل بعضُ أصحابِ الطرق لتلاميذهم حداً معيناً أو عدداً معيناً يلازمونه ويتخذونه وِرْداً لا يتركونه، ليكون مع الفرائض والسنن الرواتب سبيلاً للتقرب إلى الله.

علم الحقيقة

علم الحقيقة هو من ثمرات التربية والتزكية، وهو بعض علم التزكية.

ومضمون علم الحقيقة أن يلتفت الإنسان إلى الحقِّ سبحانه في كل أمر؛ يلتفت إلى أن الله هو المتصرف في هذا الكون والخَلْق، وأنه ينبغي أن تكون حياتُك كلُّها عبوديةً لله، وِفْقَ أحكام الله، وأنه لا يجري شيءٌ إلا بعلم الله ومشيئته وقدرته ومدده، فكلما نظر إلى شيء ذكَّره بالله، لأنه لا يرى

شيئاً وإلا وهو من فعل الله، فمضمون هذا العلم التعرف على صفات الله وأفعاله في الكون والخلق.

وتسمية هذا العلم بعلم الحقيقة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، ومن قوله ﷺ: «أَصْدَقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لَبِيْد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1].

وليس معنى الحديث أنه يعتبر الكون باطلاً وما فيه من خلق وناس وأنبياء باطلاً، وإنما معناه: لو أن أي شيء لم يستمد من الله لما كان له وجود، ولما كان له أثر، ولما اهتدى إلى الحق، فلا يكون شيء حقاً إلا بمدد الله، كما لا تكون الأعمال التي نعملها حقاً إلا إذا وافقت مراد الله وأمره، وهذا المقصود بعلم الحقيقة.

وقد دخل بعض الناس باسم علم الحقيقة إلى الانحراف والزندقة، فنَسَبُوا إلى الإيمان ما ظاهِرُه الكفرُ، وقالوا كلماتٍ ظاهرُها الكفرُ، يَدَّعُون أن معناها صحيح، وتكلموا على طريقة فِرَقِ الباطنية[2]، وكان لهذا أثره السيء على التربية وعلم التزكية وعلى الصوفية، مع أن أئمة التصوف رفضوا ذلك.

علم المعرفة

علم المعرفة، مصطلح يختص عند علمائنا وأهل التربية بمعرفة الله، فهو شبيه بمعنى علم الحقيقة، وهو بعض علم التزكية.

وقد أُخِذت تسميته من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] ومن قول النبي ﷺ: «**تعرَّفْ** إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة»[3]، ويستدلون له بحديث آخرَ ضعيفِ الإسناد:

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٦٢٨ ومسلم رقم ٢٢٥٦ عن أبي هريرة ﷺ، و(لبيد): هو ابن ربيعة، كان من شعراء الجاهلية، ثم أسلم ﷺ حين وَفَد قومه بنو جعفر إلى رسول الله ﷺ.

(٢) هي فِرَقٌ انتسبت إلى الإسلام، وقد خرجت منه، يجعلون ظواهر النصوص على غير معناها، ويدَّعون أن للنصوص الشرعية باطناً غيرَ ظاهرِها، وأن هذا الباطن هو المقصود، يُحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، ويُلْغُون معاني النصوصِ الظاهرةَ الواضحةَ.

(٣) جزء من حديث، أخرجه أحمد في المسند رقم ٢٨٠٤ والحاكم في المستدرك رقم ٦٣٠٣ .

«عَرفْتَ فالْزَمْ»[1].

ويُسمى صاحب هذا العلم عارفاً، ويسمى عالماً، فتوحيد الله ومعرفته علم: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وذكر اللهُ في كتابه الخبيرَ، وهو أبلغ في المعرفة والعلم من العارف والعالم، قال سبحانه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا[2] ﴾ [الفرقان: ٥٩]، والخبرة تتضمن المعرفة والعلم وزيادة، فالعالم بالشيء قد لا يكون خبيراً به، وإنما يُسمى خبيراً إذا تعامل معه مرات حتى عرف كل تفصيلاته وشؤونه.

والعارف يكون خبيراً بالله حينما يكون مُلتفِتاً إلى أسمائه وأفعاله في خَلقِه كثيراً، حتى لا يكاد ينظر في شيء من الكون إلا ويجد في فكره ونظره ما يذكِّره بالله وبصفات الله.

مصطلحات وعلوم معاصرة

ذات علاقة بعلم التزكية والتربية

علم النفس

يُعرَّف علم النفس بأنه دراسة الظاهرات النفسية أياً كانت، ويلاحظ علم النفس السلوكيات الإنسانية، داخلية وخارجية، كما يبحث في الدوافع الداخلية أو الخارجية لهذه السلوكيات.

ولكن علم النفس الذي يُدَرَّس في عصرنا أكثره من نتاج أفكار الكافرين وثقافاتهم

(١) أخرجه البزار والطبراني، انظر مجمع الزوائد ج١ ، ص٥٧ ، وفيه ضعف، وأخرجه ابن المبارك في الزهد رقم ٣١٤، والطبراني في المعجم الكبير ٣٣٦٧، والبيهقي في كتاب الزهد الكبير رقم ٩٧٣ وفي شعب الإيمان رقم ١٠٥٩٠، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٣٠٤٢٣ ورقم ٣٠٤٢٥، وأخرجه معمر بن راشد في الجامع ج١١ ص١٢٩، وعبد بن حميد في مسنده رقم ٤٤٥، وأخرجه العقيلي في الضعفاء ج٤ ص٤٥٥ رقم ٢٠٨٥ ، قال ابن رجب عن هذا الحديث في جامع العلوم والحكم ص٣٦: «وقد روي من وجوه مرسلة وروي متصلاً والمرسل أصح». والحديث بتمامه: أن النبي ﷺ قال: «كيف أصبحت ياحارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول؟ فإن لكل حق حقيقة»، قال: عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا، فأظمأتُ نهاري، وأسهرتُ ليلي، أصبحت كأني أنظرُ إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار في النار كيف يتعاوون فيها، فقال: «عبدٌ نَوَّرَ الله قلبَه، عَرفتَ فَالْزَمْ». ولم أقف له على إسناد صحيح.

(٢) وهذا على قول من قال إن تفسير الآية: الرحمن فاسأل عنه خبيراً به، أو على قول من قال إن تفسير الآية: الرحمن فاسْأَلْه وأنت به خبير عالم بصفاته وأسمائه، وللآية تفاسير أخرى، منها: اِسأَلِ اللهَ الرحمنَ فهو خبير بخلقه وبما تسأله عنه. انظر: تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٦٣، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٤ ، وبين أن الخبير بالله الذي يُسأل عنه هو النبي ﷺ، فلا أَخْبَرَ منه بالله، واقتصر الطبري على التأويل الأخير، انظر تفسير الطبري ١٩/ ٢٨.

وأبحاثهم، وهو يتعامل مع النفس الإنسانية في الغالب وكأنها آلة، دون النظر إلى سنن الله في الإنسان التي عَرَّفَنا عليها الوحي، ودون النظر إلى علاقة هذه النفس بخالقها وما يُقدِّره عليها من إحسان، أو عقوبة، أو ابتلاء، أو تَغَيُّرٍ نفسيٍّ نتيجة طاعتها أو مخالفتها.

وما من خير وصل إليه البشر في هذا العلم إلا وهو موجود في ديننا، وعندنا زيادة عنه.

والله تعالى قد حدد للإنسان طبيعة علاقته مع الموجودات كلها، فعلاقة الإنسان بالخالق علاقة عبادة لا علاقة تجاهل وكفران، وعلاقة الإنسان بالإنسان علاقة تعاون وأخلاق وعدل لا علاقة ظلم واستغلال وقهر، وعلاقة الإنسان بالكون علاقة تسخير لا علاقة عداء وصراع[1].

والنفس إذا لم تدرك تلك العلاقات، وإذا لم تنطلق بناءً عليها؛ فإنها تسير في اتجاه معاكس لِفِطْرَتِها ولِما ينفعها في دنياها وآخرتها، وعلم النفس الذي يبنى بعيداً عن هذه الأسس فإنه سيكون ناقصاً وفاشلاً.

ولا يمنع هذا من أن نطَّلِعَ على ما توصل إليه علم النفس عند الآخرين، كما لا يمنع أن نستفيد من بعض ملاحظاتهم عن النفس وسلوكياتها؛ ما لم تكن مخالفة لما قرره دين الله وشرعه.

علم الطاقة والبرمجة اللغوية العصبية

يعرَّف علم الطاقة: بأنه العلم الذي يلاحظ الذبذبات المتواجدة في كل ذرات الكون، وكيفية الاستفادة منها بأخذ القوة منها[2].

أما البرمجة اللغوية العصبية (Neuro Linguistic Programming) (nlp) فتعريفها: بأنها العلم الذي يجيب على سؤالين: ماذا تريد، وكيف تصل إلى ما تريد، وعرفت بأنها: الهندسة النفسية أو هندسة الأعصاب لغوياً، وعرفت بأنها: دراسة تنظيمية للسلوك البشري والتعامل معه والتأثير فيه[3].

وهذه من العلوم المعاصرة الحديثِةِ جداً، والمتعلقة بعلم النفس؛ **علم الطاقة والبرمجة اللغوية العصبية**، وهي علوم تلتقي مع علم التزكية، من جهة أن علم الطاقة والبرمجة يهتم بما يُعطي الإنسان همة ونشاطاً وتأثُّراً وتأثيراً، وهذا الأمر هو محل اهتمام كبير في علم التزكية، وعلم التزكية

---

(١) انظر كتاب: **فلسفة التربية الإسلامية**، دراسة مقارنة بالفلسفات التربوية المعاصرة، تأليف الأستاذ الدكتور: ماجد عرسان الكيلاني، دار الفتح، عمان، ط ١، ٢٠٠٩م، انظر ص٩٩ فما بعدها.

(٢) انظر: موقع منتديات البرمجة اللغوية العصبية
https://www.nlpnote.com/forum/index.php?s=٩dae٩٧٨٥be٢٤٦٩aa٤٩d١٧f٨٤٩b٤٨٩٦٥e

(٣) المرجع السابق.

أوسع من علم الطاقة من حيث أنه يَبْحث عن الطاقة الدنيوية والأخروية، والكونية والبشرية والملائكية والربانية، ويَستدل من خلال الوحي على الأمور التي تحتوي على الطاقة والتأثير الحقيقي، فمصدر العلم الصحيح في هذا العلم هو أن تؤخذ من عالِمِ الأشياء وخالِقِها، وواضع التأثير فيها، لا سيما وأنه أمور غيبية في الغالب.

ويتوافق علم البرمجة اللغوية العصبية مع علم التزكية من حيث اشتراكهما بعدد من العناوين، وإن اختلفت المضمونات والمسائل وطريقة الطرح العلمي لها؛ كترتيب أمور النفس البشرية، وتنظيم تفكيرها، ورغباتها، وشهواتها، وقراراتها، وأعمالها وأقوالها.

وكثير من النتائج العلمية الصحيحة التي توصل إليها العلماء في علم الطاقة والبرمجة اللغوية العصبية؛ هي مُقرَّرة أصلاً في ديننا وأدلتِه ونصوصِه، بل هي موجودة في شريعتنا على وجه أَدَقَّ وأعمقَ مما توصل إليه أهل هذا العلم، ونجد كثيراً من تلك النتائج مثبتةً في كتب التزكية لعلمائنا السابقين.

وقد حاول بعض المسلمين المعاصرين الذين درَسوا هذا العلم وأتقنوه أن يُدخِلوا المضمونات الدينية على هذا العلم، وقد نجحوا في كثير من الجوانب، وتحتاج إلى استكمال وتنبيهٍ على بعض الحقائق الشرعية المهمة المتعلقة بهذا العلم، كالتنبيه إلى أن الطاقة لا ترجع إلى النفس وأعمالها وأقوالها، وإن صدرت عنها في الظاهر، وإنما هي راجعة إلى خالق النفس ومالكها، وقد تصح نسبة الطاقة إلى النفس في بعض الحالات من باب نسبة الشيء إلى سببه الظاهر، لكن لا بد أن يكون معها علمٌ ويقينٌ أن الأسباب لا تؤثر بِذَواتِها، وإنما هي قائمةٌ وموجودة ومؤثرة بقدرة الله ومَدَدِه، ومُتوَقِّفةٌ على مشيئته.

المبحث الثاني

النفس وعوالمها

تمهيد في: موضوع علم التربية والتزكية والتصوف

موضوع علم الطب جسد الإنسان من حيث الصحة والمرض، وموضوع علم اللغة الكلمات والعبارات من حيث تكوينُ جملة مفيدة منها ومن حيث إعرابُها، فالموضوع هو المحل الذي يبحث فيه العلم والحيثية التي يتناولها.

وموضوع علم التربية والتزكية والتصوف: هو الإنسان بما فيه من روح وجسد ونفْس وقلب وعقل، من حيث تطهيره وإصلاح فكره وسلوكه وأحواله، حتى يعرف الله حق المعرفة ويقوم بحقه[1].

ولما كان هذا العلم يتناول الإنسان ونفسه وما فيها من روح وعقل وقلب وجسد[2]، فلا بد من تعريفها، والتعرف عليها، قبل الدخول في تفاصيل هذا العلم.

المطلب الأول: معنى النفس والروح والعقل والقلب

قال الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين:

« بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامي:

اعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل في هذه الأبواب [3]، ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها، وأكثر الأغاليط منشؤها الجهل بمعنى

---

(١) انظر: كتاب: حقائق عن التصوف: الشيخ عبد القادر عيسى. قال مبيناً موضوع علم التصوف ومباحثه التي تُدْرَسُ فيه هي: «معرفة أحوال القلب والنفس والروح، وأفعالها الظاهرة والباطنة، من حيث تزكية النفس وتطهير القلب وتصفية الروح، والوصول إلى الله ومعرفته حق المعرفة».

(٢) انظر مزيداً من التفصيل حول: تعريف النَّفْس التي تزكَّى وصفاتها، وتعريف الروح والعقل والقلب والجسد، وتسميتها بالنفس في القرآن، ودرجات النفس بين التدسية والتزكية، من أمارة بالسوء إلى لوامة إلى ملهمة إلى مطمئنة، ولماذا تحتاج النفس إلى التربية والإصلاح والتزكية؛ في كتاب "التزكية تصوف أهل السنة" في الفصل الأول من الباب الأول.

(٣) في التربية

هذه الأسامي، واشتراكها بين مسميات مختلفة، ونحن نشرح في معنى هذه الأسامي ما يتعلق بغرضنا:

اللفظ الأول: لفظ **القلب**، وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود، هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته، إذ يتعلق به غرض الأطباء، ولا يتعلق به الأغراض الدينية، وهذا القلب موجود للبهائم، بل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية، لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرِك العالِم العارف من الإنسان، وهو المخاطَب والمعاقَب والمعاتَب والمطالَب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمِل للآلة بالآلة، أو تعلق المتمكن بالمكان، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين: أحدهما: أنه متعلق بعلوم المكاشفة، وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة، والثاني: أن تحقيقه يستدعي إفشاء سر الروح، وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله ﷺ، فليس لغيره أن يتكلم فيه، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها، لا ذكر حقيقتها في ذاتها، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها، ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها.

اللفظ الثاني: الروح، وهو أيضاً يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين:

أحدهما: جسم لطيف، منبعه تجويف القلب الجسماني، فيَنشُر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجَرَيانُه في البدن وفيضانُ أنوارِ الحياة والحسِّ والبصر والسمع والشم منها على أعضائها؛ يُضاهي فيضانَ النور من السراج الذي يُدار في زوايا البيت، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا ويستنير به، والحياةُ مِثالها النورُ الحاصل في الحيطان، والروح مثالها السراج، وسَرَيان الروح وحركته في الباطن مِثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك مُحَرِّكِه، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه من غرضنا، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان، فأما غرض أطباء الدِّين المعالِجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين؛ فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً.

المعنى الثاني: هو اللطيفة العالِمة المدرِكةُ من الإنسان، وهو الذي شرحناه في أحد معاني القلب، وهو الذي أراده الله تعالى بقوله: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾، وهو أمر عجيب رباني تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته.

اللفظ الثالث: النفس، وهو أيضاً مُشتَرَكٌ بين معان، ويتعلق بغرضنا منه معنيان:

أحدهما: أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف، لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)[1].

المعنى الثاني: هي اللطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان وذاته، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها:

فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات **سميت النفس المطمئنة**، قال الله تعالى في مثلها: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾.

والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى، فإنها مُبعَدَةٌ عن الله، وهي من حزب الشيطان.

وإذا لم يتم سُكونها ولكنها صارت مُدافِعةً للنفس الشهوانية ومُعترِضَة عليها **سميت النفس اللوامة**، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، قال الله تعالى: ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾.

وإن تَرَكَتِ الاعتراضَ وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان **سميت النفس الأمارة بالسوء**، قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز: ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾، وقد يجوز أن يقال: المراد بالأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول.

فإذن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة، لأنها نفس الإنسان، أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

اللفظ الرابع: **العقل**: وهو أيضاً مشترَك لمعان مختلفة، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان:

أحدهما: أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني: أنه قد يطلق ويراد به المدرِك للعلوم، فيكون هو القلب، أعني تلك اللطيفة، ونحن نعلم أن كلَّ عالمٍ فله في نفسِه وجودٌ هو أصلٌ قائمٌ بنفسه، والعلم صفة حالَّةٌ فيه، والصفة غير الموصوف، والعقلُ قد يُطلَق ويُراد به صفة العالِم، وقد يطلق ويراد به محل الإدراك، أعني المدرِك ...

---

(١) أخرجه البيهقي في كتاب الزهد عن ابن عباس، وهو حديث ضعيف، وله شاهد.

فإذن قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة، وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم، فهذه أربعة معانٍ يطلق عليها الألفاظ الأربعة، ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالِمة المدرِكة من الإنسان.

والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها، فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين.

وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلافُ هذه الألفاظ وتوارُدُها، فتراهم يتكلمون في الخواطر، ويقولون هذا خاطر العقل، وهذا خاطر الروح، وهذا خاطر القلب، وهذا خاطر النفس، وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء.

وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب؛ فالمراد به المعنى الذي يَفْقَهُ من الإنسان، ويَعرِفُ حقيقةَ الأشياء، وقد يُكَنَّى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعمِلَة له؛ ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأول بالقلب، وكأنه محلها ومملكتها وعالَمُها ومَطِيَّتُها »[1].

المطلب الثاني: حال الإنسان حينما يطلب تزكية نفسه ونماذج مما نزكي أنفسنا به

مهما كان حال المسلم حسناً ومستقيماً؛ فإنه لا يخلو من أن يكون محتاجاً إلى مزيد من التزكية ليزداد استقامة وحسناً، وطهارة وسمواً، فكلنا نحتاج أن نكون من الطالبين للتزكية، كل بحسب حاله ومنْزلته.

فليست التزكية خاصة بالأولياء والصديقين، بل كل مسلم يكون له حظه ونصيبه منها.

وفي أي موقع إيماني كنت فيه أو وصلت إليه يمكنك أن تبدأ تزكية نفسك أو أن تواصل تزكيتها وتطهيرها وتنميتها.

ومهما كنت سيئاً أو مذنباً أو منحرفاً في اعتقادك أو عملك أو قولك أو خلقك؛ فأنت تحتاج إلى تزكية بتطهير نفسك مما أصابك من سوء أو انحراف أو ذنب، ثم تحتاج إلى ترقية نفسك وتقريبها من الله مولاها سبحانه.

ومهما كنت صالحاً مستقيماً طاهراً؛ فأمامك مسافات لا نهاية لها تقطعها في تقربك إلى الله، كما تستطيع أن تجد جوانب تستطيع أن تصلحها في نفسك وتطهر نفسك منها أكثر، وجوانب تحذَر منها، فلا أحد معصوم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام إلا من عصم الله[2]، ولا أحد

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ت ٥٠٥هـ، ج ٣، ص ٣-٥، مع حذفٍ يسير جداً.

(٢) أخرج البخاري رقم ٦٢٣٧ عن النبي ﷺ قال: «والمعصوم من عصم الله».

منا يضمن لنفسه الحفظ من المعصية والذنب، فيحتاج كل منا أن يبقى في حالة تزكية وتطهير مستمرة، خشية أن يعود إلى الذنب أو الضعف أو الانحراف.

ومهما بلغ أحدنا من مقام وعلم؛ لا يبلغ مقام رسول الله ﷺ ، ومشابهةُ رسول الله ﷺ ومتابعتُه التامَّة هي الصورة المثلى للتزكية التي نطلبها، فلا بد أن نبقى دائماً على طلب مستمر لمزيد من العلم والفهم والتقرب إلى الله.

إنه لا يمكن أن يحرص الإنسان على شيء ما لم يكن يتصور ذلك الشيء، فإذا تصوره وفهمه فعرف أنه حسن؛ فذلك يدفعه إلى الحرص عليه والاستفادة منه، لذلك علينا أن نعرف التزكية وقيمتها وجمال من يتحلى بها.

وفيما يأتي **نماذج من أحوال الناس وصفاتهم وأعمالهم** حينما يطلبون التزكية، مما يستدعيهم إلى طلب المزيد من التزكية، تطهيراً وترقية:

١ . إنسان ـ رجلاً أو امرأة ـ عنده اعتقاد باطل، أو انحراف عن العقيدة الحقة، كمن يشبه الله بخلقه، أو ينفي عن الله صفة أثبتها لنفسه.

٢ . رجل يجهل بعض صفات الله، أو يشك في قدرته وصفاته، كمن يشك في أنه المعطي والمانع والرزاق.

٣ . رجل يعلم الحق لكنه يُظهر خلافه لهوى في نفسه أو لتكبر.

٤ . رجل عنده ضعف ثقة بالله، وضعف في التوكل عليه، فيثق بالناس والمال والأسباب ويظنها هي المؤثرة الفاعلة في الكون، ولا يعتمد على الله ولا يثق بقدرته وفعله.

٥ . صاحب كبيرة استهان فيها، أو يريد التخلص منها لكنه يضعف عن ذلك، كمن يعق والديه، أو كمن يرابي أو يضع ماله في البنوك الربوية، أو كمن لا يتورع عن رشوة، أو كمن ابتلي بكبيرة الزنا أو اللواط، أو عدم غض البصر عن المحرمات.

٦ . رجل عنده تعلق ببدعة، كمن يشتغل بمكروه أو مباح ويدعي أنه سنة أو واجب.

٧ . رجل يخوض في فتنة يثيرها على الناس، كمن يثير الشبهات في دين الله، أو يريد حمل الناس على رأي واحد في الخلافيات.

٨ . صاحب استقامة في الجملة لكن عنده ذنب أو شهوة لم يستطع التخلص منهما، كالنظرة المحرمة، أو تعلقه بالدخان، أو الغناء الماجن، أو القات، أو كحجاب المرأة مع إصرارها على لباس فيه فتنة ولفت نظر أو هو ضيق، أو حرصه على قراءة القصص التي لا نفع فيها.

تجد امرأة تصلي وهي تاركةٌ للحجاب مع علمها بأنه فرض، وهي عاصية لله، مُفسِدة بتركها للحجاب، تعرِّض الشباب للشهوة والفتنة، وتجاهر بمعصيتها إذ يراها الناس من غير حجاب، هذه امرأة اختلت عندها التزكية، زكت نفسها في جانب الصلاة، ثم فعلت التدسية والانحراف والفساد والباطل بتركها لحجابها، فالتزكية عندها ضعيفة تحتاج إلى استكمال لتكون طائعة لله في كل أمر.

٩. رجل يقيم فرائضه، لكنه متعلق بالدنيا منشغل بها عن كثير من النوافل والخيرات، منشغل بِهَمِّ الدنيا عن حضوره مع طاعته، يطلب من الدنيا مزيداً عن حاجته، ولا ينفقها في خدمة دينه ولا في ما يقربه إلى الله.

١٠. صاحب استقامة على الطاعات، لكن عنده رعونة أو سوء في أخلاقه، كمن يقع في الغِيبة أو النميمة، أو يتكلم بألفاظ نابية، أو يشتم عندما يغضب، أو يغضب بسرعة، أو يحتقر الآخرين، أو يقع في الكذب، أو يكون بخيلاً، أو يحمل الحقد في قلبه، أو يحسد الناس على ما آتاهم الله، أو يسيء الأدب والخلق مع زوجته وأهله، أو كالمرأة التي تقصِّر في التجمُّل لزوجها، فلا تُعِفُّه ولا تغنيه عن الحرام ولا تحصنه من الفتنة.

يحرص أحدنا على الكلمة الطيبة مع الناس، ولا يحرص عليها مع والديه وزوجته، فالتزكية تنبهه إلى الأَوْلَى في ذلك، وهو أن يعطي اهتماماً أكبر للكلمة الطيبة مع والديه وزوجته وأبنائه.

أحدنا يحب أن يعامله الناسُ بالإكرام والإحسان، وهو لا يعامل الناس بمثل ذلك، لا بد له من التزكية لتصير أخلاقه ومعاملاته مع الناس على أحسن حال، فيتحمل من الناس إساءاتهم، ويحاول إصلاحهم ودعوتهم إلى الحق، ويَرغَبُ بالخير للناس كما يرغب بالخير لنفسه.

١١. صاحب استقامة لكن عنده ضعف عن بعض النوافل من الطاعات، كضعفه عن قيام الليل، أو تقصيره في قراءة القرآن أو عجزه عن الإكثار من الصيام، أو البخل عن الصدقة مع القدرة عليها، أو غفلته عن ذكر الله، أو تقصيره في الدوام على الذكر، أو تكاسله عن طلب العلم النافع وتعلم أحكام الله.

١٢. تجد رجلاً ملتزماً بدينه، لكن حذره من الشيطان قليل، فيوسوس له الشيطان فيوقعه في بعض المعاصي، يحتاج أن يزكي نفسه ليصل إلى حالة لا يكون للشيطان عليه تأثير، ليكون ممن قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[الحجر: ٤٢]، بل ينبغي أن يصل من خلال التزكية إلى أن يكون بحيث لو وسوس له الشيطان لزاده تذكراً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فيترك الشيطانُ

الوسوسةَ إليه حتى لا يزيده تَذكرةً وتبصرة.

١٣. صاحب استقامة وقرب من الله، لكنه لم ينبته إلى التوجه إلى مزيد من القرب والتطلع إلى مقامات أعلى، أو يحس بوقوف سيره وتقربه، أو فقد حلاوة طاعته ، أو أعجبته طاعته، أو دخل عليه الكِبْر والعُجْب ورؤية النفس بسبب كثرة طاعاته وصلاح حاله، فعلى هؤلاء أن يلتفتوا إلى المزيد وإلى إصلاح النقص الذي يدخل عليهم.

أحدنا يتذكر ربه أحياناً، لكنه يغفل عن ربه كثيراً وينسى رقابة الله، يحتاج إلى تزكية ليصل إلى حالة تدوم معها معاني المراقبة والحضور مع الله، ثم الخشوع والخضوع لله، ثم الحب والأنس بالله.

يعتقد المسلم أن الله موجود وسميع وبصير، فيجتهد في تطهير فكره وفي تذكر هذه الحقيقة من خلال الإكثار من الذكر والتفكر، حتى يجعل من هذا الاعتقاد يقيناً يعايشه، فالذي يتصور التصور الصحيح لوجود الله وبصره؛ كيف يعصي الله؟ أحدنا يكون معه رجل أو شاب فيخجل أن يعصي أمامه، فكيف لو تيقن الإنسان من معرفة سمع الله وبصره، كيف سيعصي الله عندئذ، هذا نموذج مما نطمح أن نعالجه من خلال التزكية.

١٤. رجل أقام أحكام الشريعة في ظاهره، لكنه ينقصه كمالها في قلبه وباطنه، كمن يصلي صلاة صحيحة الظاهر، لكنه فاقد للخشوع، وكمن يتصدق، لكنه يحب أن يراه الناس وأن يمدحوه عليها، وكمن كلامه طيب مليء بالحكمة والحق، ولكنه يأمر بالبر ولا يأتيه، ويتكلم في مقامات الأولياء والصديقين العالية، وليس يبذل جهده إليها، فيتوهم الناس بلوغه إياها، وكمن هو متواضع أمام الناس في ظاهره وكلامِه، لكنه في سره وقلبه يرى نفسه فوق الناس، وكمن له أعمال صالحة أمام الناس، لكنه لا يراقب الله تعالى في خلوته، فتجد صلاته أسرع عند انفراده، وقراءته للقرآن أقل تجويداً عند عدم سماع أحد من الخلق له.

أحدنا يصلي صلاته ويقيم أركانها وسننها، فينوي ويكبر ويقف ويقرأ ويركع ويسجد، لكن صلاته لا خشوع فيها ولا حضور فيها مع الله، نجدها فاقدة لروحها ومعانيها ولذتها، من خلال التزكية نطمح أن نصل إلى الحضور والخشوع.

١٥. رجل صالح عالم مربٍّ، لكنه يدعو الناس ويعلمهم ما هو أقل نفعاً وتأثيراً، يحتاج إلى تزكية حتى يحرص على أن يكون أنفع للخلق وأكثر همّاً في حمل الدعوة.

أحدنا قد يكون رحيماً بنفسه يحب لنفسه الخير والرفق، لكنه يحتاج إلى أن يتحقق بالرحمة الكاملة ليسع الناس جميعاً برحمته، فيكون رحيماً بالمسلمين والمؤمنين، ويكون من رحمته وشفقته أنه حريص على إنقاذ الكافر من الكفر والنار، فهو مستعد لأن يضحي بماله وروحه ليوصل

الهداية والحق إلى الناس فينقذهم.

وغير ذلك مما لا يعدُّ من الصور.

وكل واحد من أصحاب هذه الصور وغيرها من الصور المحتملة؛ تختلف بدايته عن الآخر:

فمن كان كافراً كانت تربيته بتنبيه عقله إلى الإيمان بالله، وإقناعه بصدق المعجزة الدالة على صدق رسالة نبينا محمد ﷺ ، أو تكون تزكيته بتحذيره من الكبر على الله، ومن غلبة الهوى على الحق عنده.

ومن كان عنده انحراف في عقيدته يكون الاهتمام بتطهيره من الشرك والكفر والنفاق وسوء الاعتقاد بإزالة الشبهات بالحجج الشرعية والعقلية.

والعامة من المسلمين تبدأ تربيتهم وتزكيتهم بالاستغفار وترك الذنوب من الكبائر والصغائر.

وبعض الناس ممن استقام والتزم بدينه يبدأ التزكية بترك الشبهات والورع وكثرة الذكر، وهكذا.

المبحث الثالث

حُكْمُ التربيةِ والتزكيةِ والتصوف

وحكم طلب علم التربية والتزكية

ومكانة هذا العلم بين العلوم

المطلب الأول: حُكْمُ التربية والتزكية وطلبِ علمِ التربية

أولاً: حُكْم التربية والتزكية:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩-١٠]، في هذه الآية وغيرها رَتَّب الله الفلاحَ ودخولَ الجنة على وجود التزكية في نفس الإنسان، ورتب الخيبة ودخول النار على عدم التزكية، فدل ذلك على أن التزكية أمر واجب ـ في الجملة ـ لا ينجو الإنسان إلا به.

ومن التزكية وأعمالها ـ الفكرية والقلبية والعملية ـ ما أوجبه الله تعالى، ومنها ما هو مندوب، فيكون أصل الفلاح مترتباً على واجباتها، ويكون كمال الفلاح وزيادته مترتباً على مندوباتها، وعلى ضَوء هذا نقول:

إذا كانت التزكية تتعلق بالعقائد، كتطهيرِ الإنسانِ فكرَه من الشكوك في صفات الله وكتابه واليوم الآخر، فالتزكية التي يحتاجها هذا الإنسان هي من أعلى الفرائض، لأنها قضية إيمان واعتقاد[1].

ولأجل ذلك فعلى كل إنسان أن يستعمل فكره، ويبحث عن حقائق الإيمان، ويطلب فهمها ويتعرف على أدلتها، حتى يصل إلى الاقتناع بها، فيكون إيمانه واعتقاده صحيحاً.

ـ وقد يكون الفعل الذي نزكي به أنفسنا مندوباً، لكنه وسيلة إلى تحقيق فرض من الفرائض؛ فيصير المندوب واجباً لأجل ذلك، لأن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[2]، وبناءاً على هذا نقول:

لما كانت تربية النفس وتزكيتها هي السبيلُ لتحقيق أوامر الله وترك معاصيه؛ فإن التربية والتزكية تصير واجبة وفرضاً حيثما كانت وسيلةً لإقامة فروض العين، من إتيان فريضة أو ترك

---

(١) هناك فرائض إيمانية اعتقادية إذا تركها الإنسان كفر، وهناك فرائض فقهية عملية إذا تركها الإنسان صار فاسقاً.

(٢) وهي قاعدة أصولية مقرَّرة عند العلماء، لها أدلتها في الشرع، لكن لا بد أن يكون ما يتحقق به الواجب أمراً مشروعاً أيضاً، لأن الغاية لا تبرر كل وسيلة في ديننا، فلا بد أن نبحث عن وسائل مشروعة، فإذا لم نجد؛ وكانت هناك ضرورات حقيقية فالشرع يسمح ببعض الوسائل الأخرى.

معصية، وتكون التزكية مندوبة حيثما كانت وسيلة لإقامة المندوب.

فإذا كنت لا أستطيع أن أصلي ولا أصوم وأتهاون في هذا؛ فيجب علي أن أسير في طريق التزكية حتى أصل إلى حالة أستطيع معها إقامة الفرائض وترك المحرّمات والمعاصي، وما دام هناك معصية واحدة وجب علينا أن نزكي أنفسنا منها، ونسير في طريق التزكية حتى نتخلص من هذه المعصية، سواء كانت معصية ظاهرة أو قلبية[1].

وإذا كان الأمر دون ذلك كأن يكون الإنسان قائماً بفرائضه تاركاً للمحرمات لكنه لا يجتهد في النوافل، فعندئذ تكون التزكية مندوبة، ليكون الإنسان أكثر قرباً من الله.

والعاقل الذي يحرص على مصالحه لا يكتفي بالأدنى: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]، بل ينافِس في الخير ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

وكل وسيلة مشروعةٍ تتوصل بها إلى التربية والتزكية من علم أو مجاهدة للنفس أو صحبة للصالحين أو ذكر أو غير ذلك؛ تأخذ حكم ما تؤدي إليه من تثبيت الإيمان أو إقامة الفرائض أو التحقق بالفضائل[2].

فمثلاً من كان في أعماله رياءٌ أو كان في نفسه غرورٌ؛ وجب عليه أن يبحث عن طريق تربية نفسه، وأن يسلُكَ ذلك ليتخلص من أمراض القلوب هذه، وتزكية النفس وتربيتها التي هي وسيلةٌ إلى الشفاء من هذه الأمراض تكون عندئذ فريضةً.

ومن كان يتكاسل عن صلاته المفروضة، أو يتأخر عن أداء زكاته، أو كان على حال بحيث يمكن أن يفر من الزحف؛ يجب عليه أن يسلك طريق التزكية ويمضيَ في أسبابها ووسائلها وأعمالها، ليكون على حالة يقيم فيها فريضة الصلاة والزكاة والجهاد.

---

(١) وليس المقصود هنا التوبة وحدها، فهي مطلوبة وهي مما يزكي النفس، ولكن العاصي قد لا يجد القدرة على التوبة النصوح، فلا يزال يرجع إلى الذنب؛ فيحتاج أن يستعمل أموراً أخرى كصحبة الصالحين والإكثار من العبادات حتى يقوى على التوبة النصوح الخالصة التي لا رجوع بعدها إلى الذنب.

(٢) بيّن أبي الشيخ سعيد حوى رحمه الله أن فروض العين تتلخص بالعلم والعمل والحال القلبي والنفسي، فقال في الكلام عن الحال القلبي والنفسي: «ثالثاً: الحال القلبي والنفسي: ويدخل في ذلك أن يكون قلبه سليماً وفطرته مستقيمة ونفسه مزكاة، وهاهنا نلفت النظر إلى أن ما يوصل إلى مثل هذه المعاني المفروضة فهو فريضة، ومن هاهنا نقول: قد تكون بعض الأمور في الأصل مندوبة، فإذا تعينت كطريق للوصول إلى هذه الأحوال الشريفة فإنها تصبح فريضة، ومما يدخل في مثل هذه الفريضة:

أ. التحقق بالإيمان والإخلاص والتوكل والزهد في الدنيا ومحبة الله ورسوله.

ب. الخلاص من الكفر والنفاق والفسوق والعصيان والإثم والأمراض القلبية، من مثل الحسد والرياء والغل والحقد وأمثال هذه الأمراض». من كتاب كي لا نمضي بعيداً عن احتياجات العصر، الرسالة الثانية: فلنتذكر في عصرنا ثلاثاً: فروض العين، فروض الكفاية، لمن تدفع صدقتك: ص٥٤، ثم ذكر أقوال بعض العلماء التي تؤكد قاعدة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

ومن كان يقع في معصية أو كبيرة، نتيجةَ صحبتِه لأهل السوء؛ وجب عليه أن يترك صحبتهم، ويكون تركُه ذلك تزكيةً لنفسه يحقق بها فريضة ترك المعصية.

ومن لم يصل إلى حال يستطيع معها غض البصر إذا رأى محرماً، وجب عليه أن يسلك طريق التزكية ليرتقي إلى ترك هذا المحرَّم.

وكذا من كان لا يستطيع ترك شرب الخمر أو ترك التعامل بالربا؛ فإن من الواجب عليه أن يطلب ذلك القدر من التزكية الذي به يمتنع عن هذه الكبائر وينحجز عنها.

ولا يزال المؤمن العاقل يطلب المزيد من التزكية، يطلب **حدها الأعلى** والأكمل وهو أن يشابه رسول الله ﷺ ويتشبه به قدر استطاعته، ويتابعه في كل شيء، ظاهراً وباطناً، وعلماً وعملاً، ومعاملةً وهيئةً، وخُلُقاً وعبادة، وحالاً وصفاءاً، ودعوة وتعليماً، وجهاداً وحكماً [1].

ثانياً: حكمُ طلبِ علم التربية والتزكية:

تبين لنا أن هناك حداً واجباً من التربية والتزكية، وهو القدر الذي يحقق به الإنسان الإيمان ويقيم به الفرائض ويستطيع ترك المحرمات؛ إن ما يتعلق بهذا القدر من التربية مِن عِلمٍ يجب على الإنسان أن يتعلمه، لأن تعلُّمه أحدَ السبل اللازمة لتحقيق التربية والتزكية الواجبة.

وما زاد على هذا القدر من علم التربية فهو مندوب إليه، والعاقل الباحث عن خيره ونفعه يحرص على مزيد العلم كما علم الله رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وإذا كان لا بد من هذا العلم في حده الواجب، وإذا كان هذا المندوب من هذا العلم له فضله الكبير وخيره الكثير؛ فلا بد أن يعرف الطالب من أين يأخذه؟ وعمن يأخذه؟ وما هو المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه؟ حتى يضمن سلامة السير وحسن النتائج.

ثالثاً: التربيةُ وعلمُ التربية:

التربية والتزكية حالة يعيشها الإنسان، إذ هي الصلاح والتطهير والترقية، فهي حالة يعيشها الإنسان، وهذا الصلاح والتطهير والنماء والرقي والسمو إنما يُدرك كغيره من الموجودات والأفعال من خلال العلم والمعرفة.

فالتربية لا يكفي أن تأخذها علماً، بل تعرفها بالعلم لتعمل بها، والعلم الذي يُتَوصَّل به إلى التربية هو الذي يسمى علم التربية أو التزكية.

وبعض العلم يشكل جانباً من التزكية بما يعطي من طهارة للفكر والعقل، وسمو فيه، وبما

---

[1] وحينما عبَّر بعض فقهائنا عن ندب الإحسان؛ لم يَعْنِ به التزكية كلها، وإنما عنى هذا النوع من التزكية، الذي يصير به المسلم محسناً، والذي هو فوق حَدِّ الواجب.

يدل على أعمال التزكية.

وليتضح الفرق بين التربية وعِلْم التربية نضرب هذا المثال:

لو أن العبد جاهد نفسه فامتنع عن شهوة أو معصية، فاستطاع أن يترك المعصية، فإنه قد ربى نفسه في هذا الأمر، لكنه إذا عَلِم أن مجاهدة نفسه والصبر يكونان سبباً في القدرة على ترك المعصية والشهوة؛ فإن ذلك جزء من علم التربية، فلم يكن علمُه بمفرده تربيةً، وإن كان وسيلة إلى تربية نفسه إذا عمل به.

ولأجل هذا نؤكد أن التربية لا ينبغي أن تقف عند طلب العلم وجمع المعلومات، وإنما تحتاج إلى اتخاذ وسائلها والعمل بها حتى يتحقق الإنسان بها.

وعلم التربية يشمل جانبين:

الأول: جانب يُعَرِّفُ بالتربية من حيث صفاتُها، التي إن وجدت عند الإنسان وصفناه بأنه من أهل التربية، كأن نقول إن المربَّى يكون صادقاً متواضعاً مخلصاً لله، قائماً بفرائضه مجتهداً في النوافل، ذاكراً أديباً حليماً، لا يشرك بالله ولا يعصيه، لا يؤذي الآخرين وينفعهم ما استطاع ...

الثاني: جانب يُعَرِّف بكيفية تحصيل التزكية ونتائج التربية، والوسائل التي توصل إلى الاتصاف بصفات الصلاح، كأن تقول: إن الصدق باللسان سبب في صلاح حال الإنسان كله، فإذا أصلح الإنسان لسانه سيجد أن كثيراً من أحواله ستتغير.

وكأن تقول: إن الصوم سبب في ضعف الشهوة وغض البصر، وإن صحبة الصالحين سبب في التخلق بالأخلاق المحمودة، وإن ترك السهر والنوم مبكراً سبب معين على قيام الليل وصلاة الفجر في جماعة.

وموضوعات هذا العلم تتناول بيان أهم ما في هذين الجانبين اللذين يشملهما علم التربية.

المطلب الثاني: علم التربية ومكانته بين العلوم

أولاً: مكانة علم التربية بين العلوم:

العلوم الشرعية التي يحتاجها كل إنسان وينبغي أن يعرفها كل مسلم ثلاثة علوم: علم الإيمان وعلم الفقه وعلم التربية أو التزكية.

أما باقي العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والسيرة والأصول واللغة؛ فهي علوم يحتاجها العلماء والمجتهدون ليستنبطوا من خلالها تلك العلوم الثلاثة، فهذه العلوم وسيلة لمعرفة الاعتقاد السليم والفقه الصحيح والتربية الربانية.

وعلم التربية يسميه علماء الشريعة علم التزكية أو علم التصوف، وقد بينوا أهمية هذا العلم:

قال الشيخ **أحمد زروق** رحمه الله (٨٤٦-٨٩٩ هـ): مبيناً فائدة التصوف والتكامل بينه وبين العقيدة والفقه:

« **التصوف** علم قُصِد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عما سواه.

والفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام.

والأصول [علم التوحيد] لتحقيق المقدمات بالبرهان، وتحلية الإيمان بالإيقان »[1].

والله تعالى بعث لنا النبي ﷺ ليعلمنا العلوم الثلاثة، قال سبحانه: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، **فمهمات الرسول** ﷺ:

١. تلاوةُ القرآن وتبليغ آياته، وبه تحصل معرفة الله والإيمان به: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا ﴾ [الأنفال: ٢]، فالوظيفة الأولى للأنبياء تؤدي إلى معرفة **الآمرِ**، الله الذي أمر خلقه.
٢. التزكية للمؤمنين، وهي في حقيقتها تطهرٌ من أمراض الإنسان الظاهرة والباطنة، وتحققٌ بمقامات العبودية لله من طاعة وصبر ورضا وشكر وتوكل على الله وزهدٍ في الدنيا، وتخلقٌ بأخلاق المصطفى ﷺ، فالوظيفة الثانية للأنبياء تؤدي إلى معرفة **المأمور**، الإنسانِ الذي توجهت أوامر الله إليه لتطهيره وترقيته.
٣. والمهمة الثالثة للأنبياء: تعليم الكتاب والحكمة، لِتَعرِف من خلال ذلك ما يريد الله أن يعلمك إياه، ولتَعرِفَ بذلك أحكام الله، فالوظيفة الثالثة للأنبياء تؤدي إلى معرفة **الأوامر**، التي هي الأحكامُ التي وجهها الله لخلقه ليصلحهم بها.

فعلم التربية يشكل جانب معرفة النفس التي يجب أن تَعرِف اللهَ وأحكامَه وتعملَ بأوامره، فالتزكية والتربية ليست هي كل شيء في الدين، وإنما هي جزء منه، تتكامل مع الإيمان والعقيدة الصحيحة، ومع الفقه بأحكام الدين والعمل بها.

وإذا عرف الإنسان ربه، وعرف أحكام ربه، وكانت نفسه غير مزكاة؛ فإنه لا ينتفع من معرفته بالله وبالأحكام، فكان مدار النجاةِ والفائدةِ على وجود التربية.

---

(١) قواعد التصوف، قاعدة ١٣، ص ٣٠.

فإذا كان الإنسان صاحب اعتقاد صحيح لكنه لم يعمل بما يقتضيه اعتقاده فإنه لا ينتفع من اعتقاده الانتفاعَ المطلوب، فمثلاً من يعتقد بأن الله هو الرزاق لكنه يعتمد على الأسباب ولا يلجأ إلى رب الأسباب، ويخاف من الفقر لنسيانه أن الله متكفل به رازق له، فيأخذ من المال الحرام خشية الفقر والحاجة، فهذا لم يُقِم وزناً لاعتقاده وإيمانه، ولم ينتفع عملياً من اعتقاده؛ والعلم الذي يدله على طريقة الانتفاع من اعتقاده هذا هو علم التزكية، فإذا تزكت نفس الإنسان توكل على الله واعتمد عليه، وزال هم الرزق عنه، واكتفى بالحلال من الرزق الذي أذن الله به.

ثانياً: هل يقدم العلم على التزكية أم تقدم التزكية على العلم أم يتكاملان:

وما دامت التزكية غير العلم في الجملة؛ فأيهما أهمّ: العلم أم التزكية، وهل يستغني أحدهما عن الآخر، وأيهما يُقدَّم على الآخر، أو يُطلَب قبل الآخر؟

لقد عطف الله تعالى العلم على التزكية، وعطف التزكية على العلم، في كتابه، وهذا يفيد أنهما مطلوبان معاً، ويفيد أن العلم غير التزكية، لأن العطف يفيد المغايرة، أي يدل على أن المعطوفَ غيرُ المعطوفِ عليه، كما يقول أهل اللغة.

قال الله تعالى ذاكراً دعاء إبراهيم ﷺ لذريته: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ **وَيُعَلِّمُهُمُ** ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ **وَيُزَكِّيهِمۡۚ** إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: **١٢٩**]، قدم الله تعالى في هذه الآية العلم على التزكية.

وقال سبحانه: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا **وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ** ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: **١٥١**].

وقال عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ **وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ** ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة: **٢**].

قدم في هذه الآيات وغيرها التزكية على العلم، وفي الوقت نفسه قدم تلاوة الآيات على التزكية وتلاوة الآيات تعطي علماً.

فليس يُغني علم عن تزكية، ولا تُغني تزكية عن علم، ألا ترى أن علم العالم لا يدخله الجنة وحده، فقد يكون الإنسان عالماً ومع ذلك يستحق النار، قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد ... **ورجل تعلم العلم وعلمه** ، وقرأ القرآن ، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به **فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله

...»[1].

فانظر كيف أن العلم وحده على أهميته ولزومه لم يكن كافياً لنجاة صاحبه، وذلك إذا لم يعمل به أو لم يخلص فيه لله، والإخلاص من التزكية، والعمل بالعلم من التزكية، فالتزكية هي التي تضع العلم في محله الصحيح وتعطي النفع من العلم، وتحمل صاحبها على العمل به، فاستحقت التقديم من هذا الوجه.

والعلم ما لم يتقدمه رغبة النفس بالخير والحق فإنه لا يجد المحل الصحيح عند الإنسان، ولا يقع موقعاً ينتفع منه طالب العلم، وهذه الرغبة من تزكية النفس، وهذا ما نبَّه إليه النبي ﷺ فيما حدَّث به: «أن **الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم عَلِمُوا** من الكتاب ثم علموا من السنة»[2]، فكان في القلوب شيء بُنِيَ عليه العلم: «ثم علموا» .

كثير من الناس يَعْلَمون عقائدهم ويعتقدون صحتها ويؤمنون بها عقلاً، لكنهم لا يتصرفون بمقتضاها، فتجد أحدَهم يعلم أن الله يراه، ويعتقد أن الله يراقبه، ولكنه يعصي الله تعالى، ويعمل ذنباً لا يمكن أن يعمله أمام رجل أو طفل، لكنه يعمله بين يدي الله.

وتجد كثيراً من الناس يعلمون حرمة فعل أو قول، ومع ذلك يأتونها، وهذا لنقص في التزكية، فالعلم مع كونه ضرورياً ومطلوباً؛ فإنه وحده لا يكفي، لأنه لا يحجز بمفرده عن المعصية.

أما تقديم العلم على التزكية فوجْهُه أن التزكية ـ كما بيّنا ـ تطهير مما نهانا الله تعالى عنه، وترقية فيما أمرنا الله تعالى به، وما نهى الله عنه وما أمر به إنما يُعرفُ بالعلم، فلا تكون تزكية قبل أن يتعلم ما به يتزكى.

كما لا تكون تزكية صحيحة مع اعتقاد باطل، ولا تكون تزكية إلا على وفق العقيدة الحق، وفيما سيأتي من حديث عن العقل ومعلوماته وأنها أساس لغيرها من التزكية ما يبين أهمية العقيدة في تزكية النفس، وأن التزكية لا تكون بلا اعتقاد صحيح، والاعتقاد الصحيح متوقف على علم صحيح.

ومالم يكن الإيمان موجوداً فلا قيمة لهذا العلم، ولا أساس له ينبني عليه، وما لم يكن إيمانٌ فلا رغبة في العمل، وما لم يكن إيمانٌ فلا تزكية، لأن أهم التزكية أن تطهر اعتقادك من الباطل، وكيف تزكو نفس تُنكِر أعظم حقيقة في الوجود؛ حقيقةَ وجود الله وألوهيته وربوبيته وصفاته.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٩٠٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٧٠٨٦ .

ولا تكون تزكية الجوارح إلا أن تكون أعمالُها على وفق أحكام الله، وهو علم الفقه، فلزم لكل من يريد أن يزكي نفسه أن يتعلم عقيدته وفقهه.

والآيات السابقة ذكرت تلاوة الكتاب والتزكية والعلم، ولم تذكر العمل، وليس ذلك إغفالاً للعمل وأهميته، ولكن العمل هو ثمرة طبيعية ونتيجة أكيدة لهذه الثلاثة، فمتى وُجِدَتْ وُجِدَ العملُ.

ثالثاً: الفرق بين وظيفة المربي المزكِّي ووظيفة عالم العقيدة والفقيه:

عمل مدرس العقيدة أن يقنعك بمسائل العقيدة.

وعمل مدرس الفقه أن يعرفك بأحكام الأعمال.

وعمل مدرس التربية والتزكية أن يجعلك تعتقد وتؤمن بمسائل العقيدة وتذعن لها، وعمله أن يحملك على العمل بأحكام الفقه، وأن يعالج الأسباب التي تحول دون اعتقادك بالحق وعملك بالحكم.

فمثلاً عالم العقيدة يُثْبِت للطالب أن الله موجود، والمُرَبِّي والمزكِّي يحرص أن يعالج أسباب إنكار وجود الله عند الإنسان، من كِبْر أو اتباع هوى أو حسد لمن جاء بالحق.

وعالم العقيدة يُثْبِت للطالب بأن الله إله يعبد، وعالم التزكية يحرص على أن يُثَبِّتَ هذا الاعتقاد عند الطالب، وأن يذكره به في أوقاته وأعماله وعباداته، فيستشعر معنى العبودية في كل حال.

عالم الفقه يعرِّف الطالب بأن قيام الليل سنة، وشيخ التزكية يحرص على أن يُرَغِّبَ الطالب بقيام الليل، ويذكره بفضيلة ذلك وأثره في صلاح نفسه وعلو مرتبته عند ربه، ويحذره مما يُفوِّت عليه القيام، ويذكره به مرة بعد مرة، ويبين له كيف يستفيد من قيام الليل بالخشوع لله والتذلل له والرجاء منه والحب له.

والفقيه يُعرِّف الطالب بأن الفرار من الزحف في المعركة حرام وكبيرة، والمزكِّي يحرص على أن يوجد في نفس الطالب ما يمنعه من الفرار في المعركة، فيُذَكِّره بأن القتال لا يُقَرِّب أجل الموت، وترك القتال لا يُبعِد الأجل، بل الأجل راجع إلى قدر الله ومشيئته، وأن الجَرْح والأذى لا يكون إلا بإرادة الله ومشيئته، وأن أجر الثبات في القتال في سبيل الله كبير، وأجر الشهادة ونعيمها إن جاءت عظيم، وأن الإنسان إنما خلقه الله لعبادته وطاعته، فإذا جاء أمر الله وحكمُه للإنسان أن يضحي بنفسه لأجل الله، فعليه أن يكون راضياً بحكم الله، فالعبد المخلوق يجب أن يكون موته لله، كما يجب أن تكون حياته وأعماله وما عنده كلها لله.

ومن تتبع الآيات القرآنية والكلام النبوي يجد أن نصوص الشرع لم تكن تفرق بين هذه

العلوم، ولم تكن تميزها عن بعضها، فلا تجد الآيات تخصص موضوعاً أو سورة للفقه وموضوعاً للعقيدة وموضوعاً للتزكية، بل الآيات يتبع بعضها بعضاً بحقيقة عقائدية ثم بحكم فقهي ثم بأمر تزكوي.

بل تجد الآية الواحدة تخاطبك بإيمانك وتعطيك حكماً وتحرك في نفسك ما يزكيها، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [المجادلة: ٢]، فالآية تذكر حقيقة أن الله عفو غفور، وهذا اعتقاد، وهي تحث على التوبة من خلال ذلك، وهذا أمر تزكوي، وتَذْكر تحريم الظهار، وهو حكم فقهي، وتربط الحكم بأمر تزكوي، وهو منع الكذب والقول المنكر الزور.

والنبي ﷺ لم يكن يخصص درساً للعقيدة وآخر للفقه وآخر للتزكية وآخر للتفسير وغير ذلك.

وتجد في سنته ما يعطي حقيقة إيمانية اعتقادية، وما يعطي حكماً فقهياً، وما يخاطب النفس الإنسانية ويزكيها، مثاله ما أخرجه البخاري أَنَّ حُمْرَانَ بْنَ أَبَانَ أَخْبَرَهُ قَالَ أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِطَهُورٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ تَوَضَّأَ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا تَغْتَرُّوا»[1].

فأفاد الحديث ندب الوضوء ثم ركعتين في المسجد، وهذا حكم فقهي، وحث على تحسين الوضوء، وهذا حكم تزكوي، وحث على الفعل بذكر أجره وهذا أمر تزكوي، ثم نهى عن الاغترار بالأعمال الحسنة، وهذا حكم تزكوي يُذكِّر بحقيقة إيمانية، وهي أن العبد ينبغي أن يبقى على درجة الخوف من الله، وأن لا يأمن مكر الله، وأن لا يركن إلى أعماله.

وإنما فرق العلماء بين هذه العلوم لما وُجِدَ التخصص والتوسع في العلوم، فصار العالم يتخصص بعلم واحد ويُدَرِّسُه منفصلاً عن غيره من العلوم، لأنه ليس في وُسْع كل عالم أن يحيط بكل العلوم الشرعية.

وكما وُجِد في زمن التابعين ومن بعدهم من يتخصص بعلم الفقه أو بعلم العقيدة أو بعلم الحديث وروايته أو بعلم الرجال أو بعلم التفسير أو بعلم السيرة والمغازي؛ وُجِد من يهتم بعلم التزكية وتدريسه والتربية عليه.

وواجب الطالب إن لم يجد عالماً يجمع بين العلوم، أن يأخذ من كل عالم علمه، فلا يقتصر على عالم واحد، ويترك باقي العلوم التي لا يتقنها شيخه وعالِمُه، وخاصة علم العقيدة والفقه والتزكية.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٦٩.

المبحث الرابع

أهمية التربية والتزكية والتصوف وأهدافها

المطلب الأول: أهمية التربية والتزكية وتأثيرها على الفرد والمجتمع

أولاً: أهمية التزكية والتربية وتأثيرها في الإصلاح:

١. جاءت الشريعة الإسلامية لتعطي الإنسان الخير كله في الدنيا والآخرة، فبين الله للعبد العلمَ الصحيح، وبين العمل المطلوب، وهيأ وسائل ذلك، وبعث الرسل وهيأ لهم خلفاء يرشدون إلى فعل الخير وترك الشر.

فأعطى ديننا كل الاهتمام لِتطهير الإنسان من سيئاته ولإصلاحه وترقيته، وقد سمّى الله تعالى حال الإنسان بهذا الاعتبار تزكيةً، فقال سبحانه: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فكما جاء النبي ﷺ ليتلوَ علينا ما أوحى الله إليه، ويعلمَنا ما في القرآن والسنة من علم وحكمة وأحكام؛ فقد جعل الله من وظيفته تزكية النفوس، كما بينت الآية.

وبين الله تعالى أن على العبد أن يزكي نفسه وأن تزكيته لنفسه هي فلاحه وتحقيق مصلحته، فقال:

﴿**وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ**﴾ [فاطر: ١٨].

﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ**﴾ [الأعلى: ١٤].

﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وبين الله تعالى أن الأعمالَ الصالحة تزكي النفس:

قال سبحانه: ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ**﴾ [الليل: ١٧-١٨]، فمن العمل الصالح الذي يتزكى به الإنسان ويتطهر إيتاء المال، وكذلك قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣].

وبيّن النبي ﷺ أن التزكية راجعةٌ إلى الله تعالى، فهي فعله وتقديره ومشيئته، كسائر الأعمال، فكان يدعو:

«اللهم آت نفسي تقواها، **وزكها** أنت خير من **زكاها**، أنت وليها ومولاها»[1].

مما سبق يتبين لك أن التزكية واجب عليك **أنت** مأمور به أيها المكلف، وهي من وظائف **النبي** ﷺ أن يرشدك إلى ما فيه تزكيتك، وهي وظيفة وُرَّاثِه العلماءِ من بعده، **والشريعة** قد بينت كلَّ عمل تحصُل به التزكية، وكلَّ صفة من صفات التزكية والطهارة والرُّقِيّ[2].

وكل ذلك يكون بتوفيق **الله** وتقديره ومشيئته، فلذلك جاءت بعض النصوص السالفة تنسب التزكية إلى العبد وتأمره بها، وبعضها تنسبها إلى النبي ﷺ وتبين أنها من وظائفه، وبعضها تنسبها إلى الأعمال والعبادات، وبعضها تنسبها إلى الله، كل ذلك تنبيه إلى أن التزكية إنما تتكامل من خلال ذلك كله.

٢. والتزكية هي التي يستحق بها الإنسان الفلاح والجنة، فلا يكفي علم ولا عمل، ما لم يكن معه تزكية للنفس.

قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾ [الشمس: **٩-١٠**].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ **وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ** ﴾ [طه: **٧٥-٧٦**].

٣. إن النفس هي المحل الذي **يعلم** الحق، وهي المحل الذي يمكن أن **يعمل** بالخير، فإذا كانت النفس سيئة أو مريضة لم تنتفع مما تعلم من الحق، بل إذا كانت متكبرة معرضة عن الحق صورت الحق باطلاً، ولم تنتفع من الحق، بل تحاربه، وإذا كانت النفس كسولة مائلة إلى الشهوات تركت الخير ولم تعمل به، لذلك كان لا بد من العناية بإصلاح النفس، حتى تكون مستقيمة طاهرة، لتحمل الحق وتعمل به وتتحلى به.

فالنفس الصالحة الزاكية لا تكتفي بمعرفة الحقائق والعقائد من غير أن تتفاعل معها، بل تكون الحقائق محل اهتمامه، فيخضع لها ويوقن بها، ويجعلها المولِّد والمحرِّك لحياته وأعماله وواقعه، فعنها يَصْدُرُ، ومنها يَنْطَلِق، فيتحوَّل الاعتقاد إلى واقع يعيش على أساسه، ويسير في الحياة بناءً عليه.

وطهارة النفس وسلامتها تدفع صاحبها إلى التفاعل مع علم الفقه والأحكام، فيعمل بها في

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه رقم **٢٧٢٢** عن زيد بن أرقم ﷺ.

(٢) وكل الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه ـ بما فيها من عقائد وأحكام وأعمال وأخلاق ـ هي طريق التزكية لمن نزلت عليهم، قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩]، فموسى عليه الصلاة والسلام يدعو فرعون ـ كما في الآيتين ـ إلى أن يستجيب إلى شريعته، فيعبر عن ذلك بأنه الأمر الذي يتزكى به ويهتدي.

واقعه، ويطبقها ويقيمها، ولا يخالفها.

فلا بد من تطهير للنفس لتصل إلى الانتفاع من علم العقيدة والفقه.

علماً أن عمله بالأحكام يعود على نفسه بمزيد من الصلاح والتزكية، فتدفعه إلى مزيد من العمل بعلمه النافع.

ـ كم من إنسان عالم بالعقيدة عالم بأن الله يسمع ويبصر؛ وهو يعصيه ويسيء الأدب بين يديه؟

وكم من إنسان يعلم أن الصلاة فريضة وهو لا يصليها؟ ماذا أفاده فقهه وعلمه؟

كم منا من يعلم أن قيام الليل فيه من الفضيلة ما فيه؟ كم فينا من يقومه؟ إذا طهرت النفس حرصت على هذا الحكم وعلى هذا الأمر.

كم فينا من يعلم أن صيام يوم في سبيل الله يباعدنا عن النار سبعين خريفا، أي سبعين سنة؟ وكم منا يحرص على هذا الفضل؟

إذا قارنا أنفسنا بأهل الدنيا، لو أن إنساناً يعمل في شركة، وقيل له: في كل يوم تأتي فيه صائماً؛ فإنه سيضاف إلى راتبك مبلغ من المال، من منا سيترك الصوم؟!

فلماذا نترك الصوم ونبينا ﷺ يدعونا إليه ويحثنا عليه بما يبين لنا من عظيم أجره، إذاً إيماننا بما قال النبي ﷺ ضعيف، وهذا يحتاج منا إلى تزكية وتطهير للقلب حتى تزول عنه هذه الغشاوة التي تمنعنا من التجاوب مع الحق الذي جاء به نبينا ﷺ .

٤ . التزكية مطلوبة من كل فرد في المجتمع المسلم، ولا يمكن أن ترى الأثر العظيم لتزكية النفس حتى تظهر في المجتمع كله، فتظهر حقيقة العبودية فيه لله، وحقيقة الاستقامة، وجمال الخلق الراقي والأدب الرفيع، وحسن المعاملة، وغير ذلك.

ولا يمكن أن تقوم حضارة راقية تسعد البشرية إلا على معاملة طيبة وأخلاق راقية، وكل حضارة تنقصها الأخلاق والمعاملات الصالحة فهي مهددة بالزوال والدمار، وأذاها لشعوب الأرض وإفسادُها أكبرُ من الخير الذي تقدمه أو تسعد به البشرية.

والتزكية إذا وجدت في المجتمع المسلم؛ فإنها وحدها من أعظم وسائل الدعوة إلى دين الله، فإن الناس إذا رأوا جمال خلق المسلم وحسن معاملته وأدبه وطيب كلامه؛ ينجذبون إليه ويميلون إلى دينه الذي تربى عليه وأوصله إلى هذا الجمال والرُّقيّ، ألا ترى إلى الإسلام كيف دخل كثيراً من البلاد ـ كشرق آسيا وبعض إفريقيا ـ بأخلاق تجار المسلمين وحسن معاملتهم وصدقهم.

واليوم والناس يرون سوء أخلاق كثير من المسلمين، فينفرون عن ديننا ظناً منهم بأن هذه

الأخلاق هي أخلاق ديننا، فصار هؤلاء المسلمون بترك أخلاق دينهم سبباً في صرف الناس عن دين الله، أصلحنا الله وغفر لنا.

٥. وإذا زكى الإنسان نفسه صار إنساناً طيباً صالحاً جميل الأخلاق جميل الحال، صالحاً بين يدي الله، محبوباً عند الناس، مرتاح الضمير، سليم التفكير، سعيداً في دنياه وأخراه، فالتزكية تخرِّج رجلاً ربانياً طاهراً زكياً مقبولاً محبوباً خلوقاً عابداً عاملاً داعية مهذباً في قلبه وقالبه، لا تخرِّج مستكبراً مبغوضاً مغروراً وقحاً دعيّاً.

وقد تسمى علم التربية عبر التاريخ باسم التصوف، وقد سعى أهل التصوف إلى التحقق بأعلى قدر من التربية وأرقى حظ من التزكية، فكان التصوف الصحيح منهجاً عملياً كاملاً، **يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة،** يجمع الناحية الإيمانية السليمة، والعبادة الخالصة، والمعاملة الصحيحة الحسنة، والأخلاق الفاضلة.

وقد بين الإمام أبو نَصْرٍ السَّرّاجُ الطُّوسِي رحمه الله أهمية التصوف مقارناً بين دراسة الفقه ودراسة التصوف والتزكية، مبيناً أيهما أهم للفرد والمجتمع، فقال: « وليس التَّفقه في أحكام هذه الأحوال ومعاني المقامات التي تقدم ذِكْرُها بأقلَّ فائدة من التفقه في أحكام الطلاق والعتاق والظهار والقصاص والقسامة والحدود، لأنَّ تلك أحكامٌ ربّما لا تقع في العمر حادثةٌ تحتاج إلى علم ذلك، فإذا وقعت تلك الحادثة فمن سأل عنها قَلَّدَ في ذلك، وأَخَذَ بقول بعض الفقهاء، فقد سقط عنه فرضُ ذلك إلى أن تقع به حادثة أُخرى، وهذه الأحوال والمقامات والمجاهدات التي يتفقه فيها الصوفية ويتكلمون في حقائقها، فالمؤمنون مفتقرون إلى ذلك، ومعرفةُ ذلك واجبة عليهم، وليس لذلك وقت مخصوص دون وقت، وذلك مثل الصدق والإخلاص والذكر ومجانبة الغفلة وغير ذلك، ليس لها وقت معلوم، بل يجب على العبد في كل لحظة وخَطْرَة أن يعلم أَيْش قَصْدُهُ وإرادته وخاطره، فإن كان حقاً من الحقوق؛ فواجبٌ عليه أن يلزمه، وإن كان حَظّاً من الحظوظ؛ فواجبٌ عليه مجانبته، قال الله تعالى لنبيه وصَفِيّه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكهف: ٢٨]، فمن ترك حالاً من هذه الأحوال ما تركها إلا من غلبة الغفلة على قلبه »[1].

فالتصوف والتربية والتزكية يحتاجها كل مسلم وكل إنسان في كل وقت وفي كل حال.

٦. التربية ترتقي بالإنسان ليحقق أهداف وجوده[2]، ومقصد حياته، وليحقق أسمى المراتب التي ندبنا إليها الله ﷻ ورسوله ﷺ.

فيتحقق **بالعبودية** الكاملة لله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

ويطلب **الإحسان** وهو أعلى العبودية، ليكون كما وصف النبي ﷺ: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[3].

ثم يطلب أن يتحقق **بالصديقية** وهي أعلى الإحسان، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩]، فأرقى الناس النبييون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون، على تفاوت درجات كل مرتبة.

ثم يطلب **الكمال** البشري، وهو أعلى رتبة الصديقية، قال رسول الله ﷺ: « **كَمُلَ من الرجال كثيرٌ**، ولم يكمل من النساء إلا آسيةُ امرأةُ فرعون ومريمُ بنتُ عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »[4].

وهو يتحقق خلال ذلك **بالتقوى** وينال ثمراتها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، ويقول عز وجل: ﴿وَمَن

---

(١) اللمع في التصوف، ص ٢١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب: التزكية تصوف أهل السنة، في الفصل الأول من الباب الأول.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٣٢٣٠ ومسلم رقم ٢٤٣١، عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ويقول جل جلاله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ [الطلاق: ٤]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

ومن خلال التربية تصح وجهة الإنسان فلا يريد إلا **وجه الله**، ولا يسعى إلا إلى **جنته ورضوانه**، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ **يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ** ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وقال عز من قائل: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

ولا يزال يترقى في التربية حتى يتحقق **بالاستقامة** الظاهرة والباطنة، قال سبحانه: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[هود: ١١٢]، وقال ﷺ: « قل آمنت بالله ثم استقم »[1].

يسابق السائرين ويطلب أن يكون من **المقربين**، قال سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ **ٱلۡمُقَرَّبُونَ** فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٠-١٤].

يجتهد حتى يكون **ولياً لله، فيُثَبِّتُه الله**، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣].

٧. التربية تحقق **أهدافاً عامة** راقية، تظهر من خلالها أهميتها:

فلا تتعلق أهداف التربية بالفرد فقط، بل يمتد نفعها وأهدافها إلى **المجتمع**، فكل من صَلُحَ يهدف إلى إصلاح غيره، من المسلمين ومن البشرية جميعاً، كما يهدف إلى إقامة حكم الله وشرعه في الأرض، لينقل العبودية إلى غيره، فالله لا يريدك عبداً وحدك، وإنما يريد أهل الأرض جميعاً عباداً له، قال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان.

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ **لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ** فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

إن المسلم بعد أن يصير ذا قلبٍ سليم واستقامةٍ وسلوكٍ حسنٍ متحققاً بالرسالة الربانية في نفسه؛ لا بد أن يكون **حاملاً لهذه الرسالة** ويؤهل نفسه لنقلها إلى غيره، فيحملها بنشاط وهمة، ويعلم أنه رسالة وتكليفاً تجاه أمته وتجاه البشرية كلها، ويعمل لذلك مجتهداً بكل طاقته، مستفيداً من كل وقته.

ليكون له أثره في هداية البشرية، وإصلاح المجتمع تربوياً، ليكون لذلك أثرُه في إصلاح المجتمع فكرياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً وسلوكياً وأمنياً.

المبحث الخامس

اهتمام الدولة والجماعات بالتربية والتصوف

سبيلُ نجاحِها وصَلاحِ أفرادها

إن التربية والتزكية مهما كانت من اهتمامات الأفراد أو بعضهم؛ فإنه لا يظهر أثرها واضحاً ولا يكون انعكاسها على صلاح المجتمع كبيراً إلا إذا اهتمت الدولة بها، وقامت بواجبها نحوها، فوضعت المناهج التعليمية والتربوية التي تُحقِّقُها في المساجد والمدارس والجامعات والنوادي ومنابر الإعلام ومجامع العامة والخاصة وغيرها، وهيأت البيئة المناسبة لإصلاح النفوس وترشيد السلوك، واعتنت بالمربين وتولت تهيئتهم كما تعتني بتهيئة القضاة والمفتين والأئمة والنواب والوزراء والمسؤولين، وطالبت جميع هيئات المجتمع بالاعتناء بالتزكية.

وأول أساس للتربية في المجتمع ولصلاح المجتمع أن يكون الرأس الأعلى في الدولة من أهل التزكية والتربية، ليحكم بالعدل والحق، ويرعى مصالح العباد، ويعتني بصلاح الشعب واستقامته.

ولا يصلح المجتمع إلا أن تكون جماعاتُه وعشائرُه وجامعاتُه ومدارسُه ومؤسساتُه ورُؤساؤها من أهل التزكية والصلاح، وتعتني بالتزكية والتربية والتصوف في أتباعها وطلابها وموظفيها.

فكان هذا المبحث تنبيهاً إلى هذا الجانب[1]:

وقد نقل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي[2] عن والده الذي كان يلقب بولي العلماء وعالم الأولياء الشيخ الملا رمضان، أنه كان « يجزمُ بأن التصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه.

وكان يلحّ على أن التصوفَ ليس كلمات تورث أو تنقل ولا معارف تحفظ، ولكنه حال يتلبس بكيان المسلم يرقى به إلى مستوى شهود الله ﷻ، وإذا لم يرتفع المسلم إلى مستوى هذا الشهود، فهيهات أن تكون نصوص الأحكام وحدها، بكل ما يحفّ بها من مؤيدات الجزاء، حافزاً كافياً للانضباط الحقيقي بمدلولاتها وأوامرها.

إن الالتزام الحقيقي بأوامر الله ﷻ يأتي نتيجة ازدهار ثمرات الإيمان بالله ﷻ في القلب، وليس لهذا الإيمان من ثمرات إلا حب الله ﷻ وتعظيمه والخوف منه والرضا عنه والثقة به والاتكال عليه

(١) أكثر هذا المبحث نقلته من كتاب السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، للدكتور صلاح أبو الحاج.

(٢) في كتابه: هذا والدي، ص٩٨-٩٩.

والفناء في ذلك كله عن الأغيار، ومن ازدهار مجموع هذه الثمرات الإيمان يتحقق معنى شهود العبد للرب.

وهذا هو الذي يحجزه عن المحرمات ويضبطه عن منهج الآداب والواجبات؛ إذ هو في كل أحواله وتقلباته، مع الله ﷻ في مراقبته له وذكره إياه وانسياقه في مشاعر الخوف منه، والحبّ له والرّضا عنه والثقة به»[1].

المطلب الأول: تزكية الحاكم

إن من أهم الجوانب التي يجب أن تعتني الدولة بها ويتابعها الحاكم بنفسه « **الجانب التربوي**؛ ويهتمّ بتزكية النَّفس وتهذيبها وتحليتها بالأخلاق الفضيلة، وتنقيتها من الأفعال الرَّذيلة، وتنمية الإخلاص لله ﷻ فيها ...

إن هذا الجانب ينبغي أن يكون اهتمام الدول الأول؛ لأنّ فيه الارتقاء بسلوك بني آدم وتحسينه وتهذيبه، مما يكون له الأثرُ البالغُ على زيادة الانتاج ونمو الاقتصاد والتَّخلُّص من الفساد الأخلاقي والاجتماعي والوظيفي والسِّياسي، ويَنهض بالمجتمع في كافة ميادين الحياة؛ لأنه يخرج كامل طاقة النفس بعد تنقيتها، ويوجهها في مقصدها لتحقيق غايتها في رفعة الأمم.

وهذا يشمل كافة طبقات المجتمعات صغيرها وكبيرها، رجلها وامرأتها، عامها ومسؤولها، حاكمها ومحكومها، فالكل مهتم بتهذيب نفسه، وهي وظيفته الأولى؛ لأنه إن حسنت حسنت باقي الوظائف والمسؤوليات.

وإن أكثر المعاناة في زماننا راجعة لإهمال هذا الجانب التربوي العظيم، فعاش الفرد والمجتمع في ظنك شديد، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:١٠]، ففلاحنا في حياتنا الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بقدر التزكية والتنقية لأنفسنا.

وفي الجانب السياسي فيما يتعلق بالحاكم، فإن المرحلة الثانية فيه بعد تحقُّقِ استقرار الحكم؛ هي صلاح الحاكم، وطريق تحقيقها هو هذا العلم العظيم، وهذا ما انتبه إليه كثيرٌ من الأكابر الأوائل عندما ألفوا في السياسة الشرعية، فألف الماوردي كتاباً سماه «نصيحة الملوك»[2] جعل أكثره في تهذيب النَّفس وإصلاحها، ومثله مؤلّف كتاب «قانون السياسة ودستور الرياسة»[3].

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، د. صلاح أبو الحاج، صفحة ٤٩ وما بعدها.

(٢) ينظر: نصحية الملوك ص٥٧ـ ٢٣٧.

(٣) ينظر: قانون السياسة ص٣٩ـ٩٨.

وهذا المبحث مرتبطٌ به صلاحُ الحاكم واستقامةُ أمره، ويتعلَّق به صلاح أمر حاشيته ووزرائه وشعبه؛ لأن بصلاح السلطة يصلح أمر الرعية وبالعكس، ولذلك علينا أن نجعله من أهم مباحث السياسة الشرعية كما فعله سلفنا وخلفنا، حيث اهتموا به كثيراً، فكان لهم ما كان من الرفعة، ولما أهملناه وصل بنا الأمر إلى ما وصل من الذِّلة والمهانة»(1).

وقد بين علماؤنا أنه لا يكون الحكم رشيداً إلا أن يكون الحاكم قد تحقق بحالة تزكوية وتحلى بصفات عالية، تجعله مستقيماً على أمر الله وساعياً في مصالح العباد، ومن أهم هذه الصفات(2):

« ١ .حسنُ سلوكه واستقامته على الدِّين الحنيف:

إنّ استقامةَ الحاكم استقامةُ رعيته؛ لأنّ سلوكَه أدعى لهم للاستقامة، ولأنه محلُّ اقتداء منهم، فينبغي للحاكم أن يعتني بتهذيب وتحسين سلوكه، والارتقاء به، لا سيما في المحافظة على حدود الشرع الحكيم وعدم مجاوزتها؛ لأنه يحكم شعباً مسلماً معظماً لدينه ولَمن يعظم دينه، ويقف على حرمات الشرع، قال الغَزَاليّ(3): «أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع، فإنّ مَن سخط بخلاف الشَّرع لا يضر سخطه... وأن تجتهد أن ترضى عنك رعيتك بموافقة الشرع».

فاستقامة الحاكم على الدين والتزامه به، يرفعه في نظر شعبه ويزيد مكانته عندهم، وتكثر محبتهم له، وتزيد الثقة به؛ لأنّ الدِّينَ فيه صلاح الدنيا والآخرة، فمَن لم يكن عارفاً بمصلحته بالتزام دينه؟ كيف سيكون عارفاً بمصلحة رعيته، وقيادتهم إلى طريق الخير؟.

قال الطّرطوشي(4): «اعلم أن أدعى خصال السلطان إلى إصلاح الرعية وأقواها أثراً في تمسكهم بأديانهم وحفظهم لمرواتهم، إصلاحُ السُّلطانِ نفسَه وتنزيهُه عن سَفْساف الأخلاق، وبُعْدُه عن مواضِع الرِّيَب، وترفيعُه نفسَه عن استصحاب أهل البطالة والمُجونِ واللَّعب واللَّهو والإعْلان بالفُسوق»...

قال نظام الملك(5): «إنّ الاستقامة في الدين لأجمل ما ينبغي أن يتصف به الملك؛ لأنّ الملك والدين صنوان، فأي اضطراب في المملكة لا بُدّ أن يرافقه اختلال في أمور الدين، فيظهر والحال هذه المفسدون وأصحاب المذاهب والمعتقدات الخبيثة، وكلَّما تتضعضع أمور الدين يتسرّب الوهن إلى المملكة، فتقوى شوكة المفسدين الذين يتسببون في إقلاق راحة الملك وزوال هيبته، فتظهر البدعة، ويزداد الخارجون والعابثون قوّةً وبأساً».

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، د. صلاح أبو الحاج، صفحة ٤٩ وما بعدها.

(٢) مأخوذة بهوامشها من كتاب: السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، د. صلاح أبو الحاج، صفحة ٥٢ وما بعدها.

(٣) في التبر المسبوك ص١٠.

(٤) في سراج الملوك ص١١٦.

(٥) في سير الملوك ص٩٧.

٢. الرَّحمة لرعيته والإحسان لها:

كلَّما قرب العبد من ربّه رقّ قلبه، وامتلأ بالرحمة للخلق، وكثر الإحسان إليهم، فرحمةُ الحاكم برعيته تحفظ له ملكه، قال الطّرطوشيُّ[1]: «الرَّحمةُ والعدلُ يُحرِزان المُلْك»، فيحفظانه من الزَّوال؛ لتمسك شعبه به لشدة محبتهم له؛ لأنه رحيم بهم.

ولذلك كان على الحاكم أن يلتزم مع رعيته الرفق، إن أمكن إنجاز الأمر به، فلا ينتقل للحزم إلا بعد محاولة إتمام الأمر باللطف، قال الغَزَاليُّ[2]: «إنك متى أمكنك أن تعمل الأمور بالرفق واللطف، فلا تعملها بالشِّدّة والعنف».

والإحسان مرتبةٌ مقدمة على العدل، به تقوى الروابط بين الحاكم والمحكوم لما فيه من التفضل على الرعية والتودد إليهم، فيرغبون في الحاكم وحكمه، فالحاكم يحتاج في حكمه في تحقيق العدل، وأن يزيد عليه في الإحسان لهم.

قال الطّرطوشيُّ[3]: «واعلم أرشدك الله تعالى أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنّ كلَّ النَّاس ليست تصلح على العدل، بل تطلب الإحسان، وهو فوق العدل، فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[النحل: ٩٠]، فلو وسع الخلقَ العدلُ ما قرن به الإحسان، فمَن لا يَصْلُحَ حتى يُزادَ على العدل؛ كيف يَصلُحُ إذا لم يُبْلَغْ به العدل».

٣. التخلق بالخصال المحمودة:

إن الأخلاق الكريمة هي زينة الحاكم، وكلما حصل منها أكثر فأكثر كلما زادت زينته أمام شعبه، فرغبوا فيه وتمسكوا به، وهذا مما اتفقت عليه العلماء والحكماء، فقالوا: أيها الملك إن قَصَّرَتْ قُوَّتُك عن عدوِّك فتَخلَّقْ بالأخلاق الجميلة التي ليس لِعَدُوِّك مِثلُها، فإنها أَنْكَأُ فيه مِن الغَارة الشَّعْواء[4].

ومحلُّ تحصليها له كتب التَّزكية السُّنية، فإنّ التَّصوف علم السُّلوك والأخلاق، وبقدر تحصليها منه يرتقي حالنا ويكبر مقامنا، فعلى الحاكم أن يسلك المنهج التربوي السُّني النَّقي؛ ليكون نافعاً لنفسه ولرعيته.

٤. ترك الكبر والعجب:

---

(١) في سراج الملوك ص٥٩.

(٢) في التبر المسبوك ص٢٨.

(٣) في سراج الملوك ص٥١.

(٤) ينظر: سراج الملوك ص٥٨.

إن منبعَ الخيرات التواضعُ، ومنبعَ الشرور والآفاتِ الكبرُ، فعلى الحاكم أن يلتزم طريق التَّواضع في تعامله مع رعيته، حتى يَدُوم حكمُه ويستمر، وإلا خَسِرَه، قال الطرطوشي[1]: «من أعجب العُجاب دوام المُلْك مع الكِبْر والإعْجاب! اعلموا أنّ الكبر والإعجاب يَسلُبان الفضائلَ ويكسبان الرذائل».

وإن وجاهة الملك والسلطان مدعاة للكبر والتعالي، فإن لم يُعْطِ نفسَه مزيدَ اهتمامٍ وعنايةٍ حتى يُهذِّبها ويُخَلِّصَها من هذه الصفات الذميمة سيقع فيها، فيكون ممن خسر الدنيا والآخرة.

قال الغَزَاليّ[2]: «إن الوالي في الأغلب يكون متكبراً، ومن التَّكبر يحدث عليه السُّخْط الدّاعِي إلى الانتقامِ، والغضبُ غُولُ العقلِ وعدوُّه وآفتُه، وإذا كان الغضبُ غالباً، فينبغي أن يميل في الأمور إلى جانب العَفْو، ويتعوَّد الكرم والتَّجاوز، فإذا صار ذلك عادةً لك ماثَلْتَ الأنبياءَ والأولياء، ومتى جعلتَ إمضاءَ الغضب عادةً ماثَلْتَ السِّباعَ والدّواب».

٥. ترك الشهوات:

إن التعلق بالشهوات مُسقِط للمرء عن مكانته؛ لأنّه بدل أن ينشغل بعظائم الأمور يَلْهَثُ وراءَ نفسِه في قضاء رغباتها، فإن كان الحاكم من هذا الصنف؛ متى يَفْرُغُ للاعتناء برعيته طالما أنه مشغول بنفسه وشهواته.

ولذلك فإن الملوك العِظام كانوا يملكون أنفسهم ويَحْكُمونها ويُسَيِّرونها إلى كل ما يَرَوْنه خيراً، ولم يكونوا مُشتغلين بشهواتهم ومُنَهَمِكين في مَلَذّاتهم، قال الغَزاليُّ[3]: «لا تُعَوِّدْ نفسَك الاشتغالَ بالشَّهوات، مِنْ لُبْسِ الثِّياب الفاخرة وأكلِ الأطعمة الطَّيِّبة، لكن استعمل القَناعة في جميع الأشياء، فلا عدل بلا قناعة».

والطريق لِفَطْمِ النَّفس عن شهواتها هو تربيتها على القناعة، فسعادة المرء مُتعلّقة بتحقيقها، فمتى قَنَعَتْ نفسُه؛ تَرَكَتِ الشَّهواتِ وانصرفتْ إلى الخيرات.

٦. أن ترضى لرعيتك ما ترضى لنفسك:

إن من كمال عدل الحاكم وسُمُوّ أخلاقه أن يلتزم بقاعدة إنزال نفسه منزلة الآخرين مِنْ رَعِيَّته في كل ما يَعرِض له من أمور لهم، فكلُّ ما لا يرضاه لنفسِهِ لا يرضاه لهم، وهذه قاعدةٌ جليلة، تشتمل على ميزانٍ دقيق في إيفاء حقوق الخلق، مَن الْتزَمَها لم يظلم أحداً، وارتقى مقامُه وارتفع شأنُه وعَلَتْ مكانتُه.

---

(١) في سراج الملوك ٥٦.

(٢) في التبر المسبوك ص١٤.

(٣) في التبر المسبوك ص٢٧.

قال الغزالي[1]: «إنك في كل واقعة تصل إليك وتَعْرِض عليك؛ تُقَدِّرُ أنك واحدٌ مِن جُملة الرَّعية، وأنّ الوالي سِواك، فكل ما لا ترضاه لنفسك لا تَرضَى به لأحدٍ من المسلمين، وإنْ رَضِيتَ لهم بما لا ترضاه لنفسك؛ فقد خُنْتَ رعيَّتك وغَشَشْتَ أهلَ وِلايتِك».

٧. مصاحبةُ العلماء:

إن أفضل سبيل لتحقيق الصّفات الحميدة التي سبق ذكرها هي الصحبة للعلماء والصالحين، فإنها مدعاة أن يتخلق بأخلاقهم ويَسلك طريقهم، ولذلك قالوا: على الحاكم أن يُكثر من صحبةِ العلماء والاستماع لنصائحهم، فإنه من أفضل السبل لاستقامة سلوكه وانفتاح بصيرته.

قال الغَزاليُّ[2]: «أن يشتاق أبداً إلى رؤية العلماء، ويحرص على استماع نصحهم، وأن يحذر من علماء السُّوء الذين يحرصون على الدُّنيا، فإنّهم يُثْنون عليك، ويَغُرُّونك ويَطلُبون رِضاك طَمَعاً فيما في يديك من خُبْثِ الحُطام ووَبِيل الحرام؛ لِيحصِّلوا منه شيئاً بالمكْر والحِيَل، والعالم هو الذي لا يطمع فيما عندك من المال، ويُنْصِفُك في الوعظ والمقال».

وهذا ميزان لطيف لتمييز الحاكم بين العالم الصادق والعالم الوُصُولِيّ لمصالحه ومآربه بحسن كلامه، بأن العالِمَ الحقَّ له صِفتان:

أ. أنه لا يطلب الدُّنيا ولا يطمع بالمال والجاه، بخلاف الوصولي كلما رأى الحاكمَ؛ سألَه حاجةً لنفسه ولخاصته، وإن سأل العالمُ الصالحُ الحاكمَ سألَه ما فيه مصلحةُ للمسلمين.

ب. أنه يقول الحقّ والصّدق وإن لم يُعْجِب الحاكم؛ لأنّه يبتغي مرضاةَ الله ﷻ لا مرضاةَ حاكمٍ أو غيره.

وفي كثرة لقاء الحاكم بأهل العلم معرفةٌ له بكلِّ ما له وعليه، نحو شَرْعِه الحكيم، واطلاعٌ على دقائق أحكام الدّين، وتمييزٌ بالأفكار الخبيثة من أهل الأهواء التي يُدخِلُونها على الإسلام، فيحترز منها ومن أصحابها، ويتعرّف على خطورتها، ويَطَّلع على كيفية مواجهةِ الفكر المُنْحَرِف حتى لا يَدخل إلى مملكته شيء منها حتى يحفظ رعيته.

قال نظام الملك[3]: «على المَلِكِ تحرّي أمورِ الدين وإقامةُ الفرائض والسنن وأوامر الله تعالى وحفظُ حرمة علماء الدين، وتأمينُ أرزاقهم من بيت المال، وإكرامُ الزهاد والمتقين وتقديرهم، وعليه أن يَدْعُوَ

---

(١) في التبر المسبوك ص٢٦.

(٢) في التبر المسبوك ص١٨.

(٣) في سير الملوك ص٩٩.

إليه علماءَ الدّين مرّة أو مرّتين أسبوعياً، ويَستمعَ منهم إلى أوامرِ الحقّ تعالى، وتفسيرِ القران الكريم، وأخبارِ الرسول ﷺ، وسِيَرِ الملوكِ العُدُول، وقَصَصِ الأنبياء عليهم السلام.

وفي هذه الأثناء ينبغي ألا يشغل نفسه بالتفكير في أي أمر من أمور الدنيا، بل يجب أن يُسَخِّرَ ذِهْنَه وسَمْعَه للإصغاء إليهم، ثم يَطلب منهم أن يتحوّلوا إلى فريقين يتناظران فيما بينهم، وعليه أن يستوضح عما يَغْمُضُ عليه، فيعرفَه ويحفظَه، فإذا ما تكرَّر منه هذا، تصبح له سجية وعادة، ولن يمضي طويل وقت؛ حتى يحيط بأكثر أحكام الشريعة وتفسير القرآن وأخبار الرسول ﷺ ويحفظه.

فتتسع أمامه بذلك سبل المعرفة بالأمور الدينية والدنيوية، بحيث لا يستطيع أي مبتدع، أو صاحب اعتقاد خبيث أن يحرفه عن مسيره، إنّما يقوى رأيه، ويعمّ عدله وتمحي من مملكته البدع والأهواء، وتتمّ على يديه الأعمال الجليلة، وتستأصل به جذور الشرّ والفساد والفتنة، فينقرض المفسدون، ويزداد أهل الصَّلاح بأساً، فيَكسب السُّمعة الحسنة في الدُّنيا، وينجو من عقاب الآخرة، بل يَتَبَوّأُ أعلى الدَّرجات فيها ويُثاب ثواباً كبيراً، ثمّ يزداد إقبال النَّاس في عهده على العلم أكثر فأكثر».

المطلب الثاني: اهتمام الدولة بمناهج التربية مع التعليم

« من المعلوم أن الإنسان له عقل وجوارح وقلب، فالعقل يكون تفكيره صحيحاً إن كان اعتقاده سليماً، والجوارح تعمل بصورة صحيحة إن عرفت الأحكام الشرعية المتعلّقة بها، **والقلب يكون سوياً إن تعرف على السلوك القويم ووجد التربية الأخلاقية المناسبة**، وهذه الحاجيات الثلاث التي يحتاجها كلّ إنسان جاءت بها الشريعة الإسلامية، واشتملت تعاليمها العقائد والأعمال والسلوك، وكلّ هذا ظاهر في سُنة رسول الله ﷺ وأصحابه ومَن تبعهم ﷺ، وبها يتحقّق كفايةُ الإنسان بطريقة سليمة، وإلا لكان بنيانه ناقصاً ضعيفاً.

والإنسان محور بناء الدولة القوية، فالإنسان القوي يوجِد دولة قوية، والضعيفُ يوجِد دولة ضعيفة، فلا بُدّ أن يكون اهتمامنا في أول لَبِنة في المجتمع، وهي الفرد، فإن نجحنا معه في الإعداد والبناء والإرتقاء سهل كلّ شيء بعد ذلك.

وهذا هو السِّرُّ العظيم في الإسلام الذي لن تستطع أي مَدَنِيَّة أن تحققه في إسعاد الإنسان، فالإسلام بَدأ مِن الإنسان، وجعل كلَّ ما سواه تَبَعاً له؛ لأنه محْوَرُ الكَوْن، وكلُّ شيء خُلِق له فيه من أجل راحته وإسعاده، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[إبراهيم:٣٢].

ولم يكن هذا مجردَ كلام نظري، بل وجدت علوم ثلاثة في الإسلام، وهي العقائد والفقه والتزكية، تعالج هذه الجوانب الثلاثة للإنسان التي تتكون منها شخصية الفرد، قد اختصّت مذاهب أهل السنة ببيانها وتوضيحها»[1].

ومن ذلك يجب على الدولة أن تعتني بمناهج التعليم التربوية، فتحرص في المرحلة الابتدائية والإعدادية على وجود حِصَّةٍ دَرْسية أو أكثر في الجانب التربوي أسبوعياً، بالاستفادة من علم التزكية والتصوف والأخلاق في الإسلام بطريقة عملية مفيدة تؤثر على حياة الطالب المستقبلية بطريقة إيجابية؛ ليكون فرداً صالحاً.

وفي المرحلة الثانوية ينبغي التركيز أكثرَ على الجانب التربوي والسلوكي للطلبة، وأفضل الوسائل لذلك هي الاعتناء بالجانب الديني، فهو المُقَوِّم للسلوك والمُصَوِّب له، وهذا يتطلب أن يكون يومياً حِصَّة في التربية الدينية، وأن يكون مُدَرِّسُ الدين له مواصفات رفيعة، وأنْ يُساعِدَ جميعُ المدرسين بترسيخ هذا الجانب التربوي، بأن يُؤَهَّلُوا لذلك مِن خلال دَوْرات.

وهذا يقتضي أن نهتم دائماً بتطوير المعلم من الجانب العلمي والتربوي؛ ليكون قدوة للطَّلاب، فأهم عناصر المرحلة التَّعليمية هو المدرس، فلا بُدّ أن يكون المدرس على أرفع ما يكون من الجدّ والعلم والسلوك؛ ليكون الطَّلاب كذلك، فإن لم نكن قادرين على إعداد مدرسين مؤهلين لن نكون قادرين على إعداد طلاب مؤهلين لحمل الأمانة.

وبالتَّالي يكون المعلّم من أعلى طبقات المجتمع، ولا يدرس في كليات التربية للمعلمين إلا أعلى الطّلبة في معدلاتهم، ويكون لهم رواتب عالية مقارنةً بباقي الوظائف في الدّولة، حتى يتوجّه جميع المجتهدين والأذكياء لهذا المجال، ولن يكون عِبئاً كبيراً مالياً على الدَّولة؛ لأنّ نظامَ الأوقاف سيوفر لهم هذه الدُّخول الرَّفيعة.

إن مرحلة التعليم والتربية هي الأساس في المجتمعات، ولها الاهتمام الأول في التفكير والعناية من الحكومات الراشدة؛ لأنها تُعالج عامة مشاكل المجتمع التربوية والوظيفية من خلال الإعداد الصَّحيح، وهي أكبرُ مؤثر في جانب الاستثمار في إعداد الكوادر القادرة على تنشيط اقتصاد الدَّولة وتنميته وتطويره[2].

---

(1) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٤٢-٤٣.

(2) انظر: السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٢٨٠-٢٨١.

وفي مرحلة التعليم الجامعي يجب أن يعتنى بالجانب التربوي والتزكوي لجميع الطلاب في جميع التخصصات، لأنه أساس استقامة سلوكه، فلا ينتفع من أحد إذا انحرف عن الاستقامة، وينقلب تخصصه العلمي والعملي والمهني والإداري إلى طريق للفساد والإفساد.

وينبغي أن يكون مع المنهج التربوي التعليمي تلبيةٌ لحاجة الطالب الروحية، فتكون هناك عدة لقاءات ونشاطات، مع المواد التي يدرسها.

ولا بد من التَّطوير المستمر للمدرسين تربوياً من خلال الخضوع لدورات مستمرة.

ولا بد في التعليم في جميع مراحله من الفصل بين الطالبات والطلاب، حتى يكون ذلك بيئة تربوية لحماية الجنسين، وحتى يكون الانشغال في الاجتهاد العلمي لا في الجانب العاطفي؛ لأنه مُشْغِلٌ جداً عن طلب العلم، وعلى الدولة والمجتمع أن يسعى لتزويج الطلاب قبل المرحلة الجامعية، ليتحقق استقرار الأنفس، وتنصرف إلى المثابرة العلمية والعملية والعبادية [1].

«وأفضل طرق إصلاح المجتمع هو التربية الدينية، ويكون بالعناية الظاهرة بالدين على النحو الآتي:

أ. البرنامج التزكوي والفقهي في المدرسة والجامعة.

ب. الترغيب في بناء المساجد؛ لأنها منارات الإسلام للتربية والتزكية، ويكون للمسجد دورٌ فعّالٌ؛ إن راعَيْنا تأهيل الإمام فيه، بأن يكون ملتزماً بالمنهج السُّني، وله قدرة على التربية والتعليم للناس.

ويلزم الدولة أن تتعهد الإمامَ بكثرة الدَّورات والمتابعة، ويكون له راتبٌ متميز، تتحقق به كفاية في حياة كريمة، حتى يسعى كلُّ الفضلاء لهذه الوظيفة، فيُختار من بينهم الأقدرُ، ويُلزم الإمامُ بوظائف يومية من دروس ومتابعةٍ لأهل حَيِّهِ مِن جهة تربوية، فيكون هو المربي والراعي لأهل الحي.

ج. تخصيصُ فضائيات وإذاعات خاصّة تلبي حاجة النّاس للدِّين، وتكون هادفةً في التّربية والتعليم، بحيث تُغني المجتمع عن الاستماع لغيرها، فتكونُ مصادرُ التعليمِ الديني موثوقةً، خشيةَ الانحراف بين أفراد المجتمع.

د. طباعةُ الكتب والمجلات الشَّرعية التي تزيد معارف المجتمع بطريقة دينية سليمة، وتطلع على علوم الإسلام وحضارته العريقة، وتوجد الثقة بين أبنائه، وتقوي انتمائه لأمته.

---

(1) انظر: السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٢٨٢.

هـ. الإصلاحُ لكلِّ المظاهر المخالفة للشريعة من لباس وتصرفات ومأكولات ومشروبات وغير ذلك.

و. الإصلاحُ للعقود المحرمة شرعاً من ربا وقمار وغيرها.

فينبغي للدَّولة الحفاظُ على إظهار شعائر الدين وإبرازها، وعدمُ السماح لأحد بتجاوز حدود الشرع مجاهرةً، حتى يطمئن المجتمع بدينه وتعاليمه، ويشعر بحلاوة الإيمان، وعزة الإسلام، التي تقوي انتماءه لأمته ودولته، فلا يبخل عليها بماله أو وقته أو روحه نصرة لدولته ورسالته»[1].

المطلب الثالث: حفظ الأمن وقوة الدولة بتحقيق التزكية في الشعب وفي رجال الأمن والجيش

إنه لا طريق أقوى من طريق التربية والتزكية والتصوف لتثبيت الأمن، ومنعِ الجريمة وقطع دابرها، وإصلاح الفاسدين، بما تُصلِح من حِسٍّ داخلي وبما تصنع من سلوك مستقيم، فيكون خائفاً من الله أن يَعصِيَه أو يؤذيَ خَلْقَه، يَعمَلُ بما يُنجِيه في الآخرة.

ولا يمكن حماية الدولة من الغدر والنفاق والولاء للأعداء إلا بتربية رجالها ووزرائها وجيشها وقياداتها على التزكية والولاء لله وللأمة، فواحد لم ننجح في تربيته وتزكيته قد تؤتى الأمة من خلاله، وتُهزَم بسببه، أو تَفقِدُ قوتَها وهيبتها ودينها واقتصادها وتماسكها.

فنحن بحاجة إلى رجال لا يستطيع العدو شراءهم، ولا يخضعون لابتزاز، ولا يطمعون في مال، ولا ينتظرون من عدوٍّ منصباً ولا وعداً.

«ولما كان الدين أقوى أركان نظام الحكم وأثبتها، كان التزام حدوده أكبر ما يُقوي الدّولة، فهو أحفظ للدَّولة من جيشها وعساكرها؛ لأنّه يُحقِّق الأمن الدَّاخلي للمجتمع على أكمل وجه، فتكون قادرةً على صد أي عدوان خارجيّ، ومتى أُهمِل جانب الدين، وشاع الفِسق والمُجون ضَعُفَت الدولة، لا سيما إن تَسَلَّل لها الفهم الخاطئ للشريعة من الفرق المنحرفة»[2].

«وإن صلاح المجتمع هو القوة الحقيقية للدولة في مواجهة أعدائها ومواجهة التحديات والصعوبات، فلا يمكن هزيمة أمة صالحة؛ لأن الفساد منبع الضعف والإهلاك للإمام؛ لذلك كانت قوة الأمة مرتبطة بمقدار صلاحها، وهذا ما نبه عليه القرآن في الاهتمام بالجانب الإصلاحي التربوي للبشر في جميع آياته، وذكر القوة المادية في آية واحدة، قال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [الأنفال:٦٠]،

---

(1) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٢٩٥-٢٩٦.

(2) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٥٣.

وكلُّ هذا ليعلمنا أهمية إصلاح المجتمعات؛ لأنه يمثل القوة الحقيقية، قال الطّرطوشي[1]: «وإصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود».

ولا بدّ أن تكون الرعية متعاونة في الإصلاح والتغيير؛ لأنها إن لم تصلح نفسها فلن يكون مسؤولها صالحاً، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١].

فاستقامة الحاكم والرعية كل منهما متأثرٌ بالآخر، وبالتالي سيكون استقامة الشعب أدعى لاستقامة الحاكم؛ لأن المجتمع إن كان صالحاً لن يكون للحاكم فيه مكانة إن لم يكن صالحاً، فبقاؤه حينئذٍ في الحكم متعلِّق بصلاحه.

قال الطّرطوشي[2]: «لم أزل أسمع الناس يقولون: أعمالكم عمالُكم، كما تكونوا يولى عليكم، إلى أن ظفرت بهذا المعنى في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ [الأنعام:١٢٩].

وكان يُقال: ما أنكرت من زمانك فإنّما أفسده عليك عملك.

وقال عبد الملك بن مروان: ما أنصفتمونا يا معشر الرَّعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرتهما، نسأل الله أن يعين كلّ على كلّ» »[3].

المطلب الرابع: حاجة الجماعات الإسلامية إلى التزكية والتربية

يعترف عدد من كبار قيادات الحركات الإسلامية بعد تجربة طويلة في العمل الإسلامي والدعوي أن من أهم أسباب ضعف جماعاتهم، وعدم تحقيقها ما تَصْبُو إليه من إصلاح الأمة؛ هو عدم العناية بالتزكية والتربية وإصلاح النفوس[4].

وقد كان من أسباب الضعف أنهم انكفؤوا على أنفسهم، فلم يكن لهم أثر في العامة، فخطابهم لا يصل تقريباً إلا إلى واحد بالمائة من شعوبنا وأمتنا، ولو أنهم حملوا خطاب الأمة الموروث؛ لوصلوا إلى جميع الأمة، ولكان لهم أثر هائل وتغيير وإصلاح.

وقد كان من أسباب الضعف في الجماعات أنهم توهموا أن المنهج التربوي الموروث منهج منحرف، ولم يميزوا بين الصحيح والدخيل، فتركوا المنهج التربوي وأهملوا هذا الجانب، فاختلت أخلاق كثير من الأفراد، ووُجِدَت المنافسات الحاقدة، والحرص على المناصب، وفُقد الإخلاص، وأُقْصِيَ صادقون، واهتموا بما لا يجدي، على حساب ما هو مطلوب.

---

(١) في سراج الملوك ص٦١.

(٢) في سراج الملوك ص١١٦.

(٣) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٢٩٦-٢٩٧.

(٤) انظر: التزكية والسلوك، عدنان سعد الدين، وجند الله تنظيماً، سعيد حوى.

إنه لا بد أن تستفيد الأمة والجماعات من مناهج التربية التي نهجها المسلمون تحت اسم التصوف، فإن الأمة لما فقدت مظلة الخلافة التي كانت ترعاها وترعى تربيتها من خلال طرق الصوفية؛ قامت جماعات إسلامية لتحمل الإسلام وتنادي بإقامته، لكنها فَشِلَتْ إلى حد كبير « لِضَعْفِ الجانب التربوي لدى هذه الجماعات؛ لاعتمادها على فهمها للدين وعدم اعتبار الفهم التاريخي الموروث للدين، حيث حاربت التصوف ورأت أنه دخيل على الإسلام، وغَفِلَت أنّه يُمثل الجانب الرُّوحي والتَّربوي والتَّزكوي للإسلام، فتَرْكه تَرْكٌ لروح الإسلام.

ويُمكننا تصفية التصوف بالمنهج المسلوك تاريخياً، وهو أنّ الشريعة الظاهرة المثلة بالمذاهب الأربعة السنية حاكمةٌ على الشريعة الباطنية الممثلة بالطرق الصوفية، فكلُّ ما في التصوف مما هو مخالف للفقه بالإجماع؛ لا يُلتَفَتُ إليه، وأما ما اختلف فيه الفقهاء مِن بعض تصرفات وسلوكيات في التصوف فلا ينكر فيها على المخالف، إن شئت أخذت بها وإن شئت تركتها؛ لأنه لا إنكار في مسائل الخلاف.

فلو أنهم تحاكموا للفقه في قبول التصوف ورده لما وقعوا فيما وقعوا فيه من ترك هذا الجانب العظيم من الإسلام، ولاستفاد أفراد هذه الجماعات منه، فارتقى سلوكهم وحسنت تصرّفاتهم وكانوا أنموذجاً حيّاً للإسلام، وقدوةً كاملةً للمسلمين»[1].

والعاملون للإسلام لا يكون هدفهم طلب رئاسة أو السعي إلى منصب، « وإنما هدفنا وغايتنا إرضاء وجه الله ﷻ بالعمل الصالح، والتربية الخيرة للمسلمين والمسلمات.

فكل عملنا في التغيير والتبديل يقوم على التربية والتهذيب لجميع فئات المجتمع، والاهتمام بتذكيرها بالله ﷻ لنصلح حالها ويستقيم أمرها، فنحبّ الخير لكلّ أحد، ولا نطعن ولا نشتم ولا نشهر ولا نلمز؛ لأننا دعاة خير ونجاة.

وعلاقتنا مع كلِّ واحدٍ من مجتمعنا تقوم على المحبّة والنصيحة الطيبة والثقة والأمانة، فهذه هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه وأتباعهم من الصالحين إلى يوم الدين، نسأله الله ﷻ أن يهدي قلوبنا جميعاً لها؛ لتكون سبباً في وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم»[2].

المطلب الخامس: توضيحات حول العلاقة بين التصوف والتربية في الإسلام

أشرنا فيما مضى أن الجانب التربوي في الإسلام هو التصوف، هكذا عرف عبر تاريخ المسلمين، حتى جاء القرن الأخير من تاريخ أمتنا الإسلامية فظهرت أصوات تُنْكِرُ التصوف، بعد أن كان التصوف يمثل الإحسان والأنموذج الأعلى عند المسلمين، ويَستنكر ناس في زماننا ـ يُحسَبون على العلم ـ أن يكون التصوف من الإسلام أصلاً، ويدعون أنه خليط من النصرانية

(1) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٢٩.

(2) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ٢٥٠.

والبوذية والديانات الوثنية والمحرفة والفلسفات، كما ينسبون إلى التصوف أنه مليء بالشرك والبدع والمنكرات، وأن له عقائد تخالف عقائد أهل السنة، وأن التصوفَ واسمَه بدعة لم تكن في الدين.

لقد كان الناس عبر تاريخ الأمة الإسلامية يحبون التصوف ويمدحونه، ويعلمون أنه الطريق إلى الولاية والصديقية، وعلى الرغم من أنهم يعلمون أن من الناس من ينتسب إلى التصوف لشرفه وعلو شأنه من غير تحقق بمقاماته وحقائقه؛ فإن ذلك لم يمنع الناس أن يبحثوا عن التصوف الحق وعن أهله وأئمته المستقيمين، وعن مفرداته ومسائله المستنبطة من الكتاب والسنة، والمقررة عند أهل السنة.

وقد نشأ في القرن العشرين من يُنكِر التصوفَ جملة وتفصيلاً؛ بحجة وجود منحرفين من أهل التصوف، وبحجة وجود عبارات منكرة في بعض كتب التصوف، وبحجة وجود نصوص موضوعة وضعيفة واستدلالات غير قويمة في بعض كتب التصوف.

وذلك خلل منهجي خطير، فالخطأ مردود لذاته، ولا يجوز أن يكون حجة لرد الصواب، بل الواجب التحقيق والتحرير والتمييز، لا سيما أن تسعين بالمئة من نصوص الكتاب والسنة تتعلق بإصلاح النفس وأخلاقها وتزكيتها، بينما النصوص التي يستنبط منها الفقه لا تمثل عشرة بالمئة، فكيف يُهمَل العلمُ الذي يَعتني بإظهار هذه النصوص، ويُبَيِّنُ طريق التحقق بها.

وهذه الحرب التي أُعلِنتْ على التصوف في زماننا؛ أبعدت الناس عن أخلاق الإسلام، الظاهرة والباطنة، حتى قلَّ في المسلمين من يعتني بصلاح قلبه، وصار الدين كأنه رسوم وأشكال، لا تجد معها حقائق الإخلاص، ولا جمال الأخلاق، وإذا عاملت بعض المسلمين تفاجأت بخبث وحسد وحقد وكيد وغِلظة، تنفرك منه، وتجعله تهمة للإسلام، حتى صار بعض الكفار ينظر إلى الإسلام من خلال هؤلاء على أنه دِين لا أخلاقي، وأن الإسلام دِين جفاء وتكبر، ودِين بَطْش وقتل، ودِين تحايل وكذب، وكل ذلك ناشئ عن تضييع علم التصوف الذي يعتني بإصلاح القلوب والأخلاق.

وفي هذا المبحث نعطي نبذة توضح الحقائق حول هذا الموضوع[1]:

أولاً: تعريف التصوف وبيان حقيقته كما بينه أئمة الصوفية:

من خلال النظر في تعريفات أئمة الصوفية للتصوف؛ يظهر لك أنه لا يخرج عن الشريعة، بل هو يعتني بالتحقق بالشريعة قولاً وفعلاً، ويحرص على الاتباع، وينطلق من الكتاب والسنة، ويتطلع إلى الدرجات الأعلى في دين الله؛ درجات الإحسان والصديقية.

فعلى سبيل المثال تجد تعريف أبي علي **الرّوذباري** (ت ٣٢٢ هـ) يتضمن قوله في تعريف التصوف: "وسلك منهاج المصطفى"، وفي تعريف **ذي النون المصري** (٢٤٥ هـ): "متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسُننه"[2]، وفي تعريف الجنيد: "واتباع الرسول ﷺ في الشريعة".

وقال القاضي شيخ الإسلام **زكريا الأنصاري** رحمه الله (٨٢٣-٩٢٦ هـ): «التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية»[3].

ثانياً: نشأة اسم التصوف واشتقاقه:

ينكر بعض الناس على اسم التصوف بأنه لم يُسمع في عهد الصحابة والتابعين، وهذا الإنكار مردود، إذ كثيرٌ من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة، واستُعملت ولم تُنكَر، كالنحو والفقه والمنطق والعقيدة.

وكيف يكون التصوف الذي يدعو إليه علماء أهل السنة منكراً، وهو تزكية النفوس، وصلاح القلوب وصفاؤها، وإصلاح الأخلاق، والوصول إلى مرتبة الإحسان، وهو الجانب الروحي والمعنوي في الإسلام.

وقد ذكر أبو نصر الطوسي رحمه الله في كتاب اللمع في التصوف، أن اسم التصوف بدأ يطلق من القرن الأول، فقال في « باب الرد على من قال: لم نسمع بذكر الصوفية في القديم، وهو اسم

---

(١) وتجد تفصيل هذه المسائل في كتاب: التزكية تصوف أهل السنة، معاذ حوى.

(٢) مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، ص ٩.

(٣) شرح الشيخ زكريا الأنصاري على الرسالة القشيرية، مطبوع على هامش « الرسالة القشيرية »، ص ٧.

مُحْدَث »؛ قال: « وأما قول القائل: إنه اسم مُحْدَثٌ، أحدثه البغداديون فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله كان يُعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وقد رُوي عنه أنه قال: رأيت صوفيّاً في الطواف، فأعطيته شيئاً؛ فلم يأخذْه، وقال: معي أربعة دوانيق، فيكفيني ما معي، وروي عن سفيان الثوري رحمه الله (ت ١٦١هـ) أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء، وقد ذُكِرَ في الكتاب الذي جُمِع فيه أخبار مكةَ عن محمد بن إسحاق بن يسار، وعن غيره، يَذكُر فيه حديثاً: أنه قبل الإسلام قد خَلَتْ مكةُ في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي، فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صح ذلك؛ فإنه يدل على أنه قَبْلَ الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم »[1].

وكما نشأت العلوم والتخصصات بعد رسول الله ﷺ وهي علوم موجودة في زمنه ﷺ فكذلك نشأ العلم الذي يتخصص في إصلاح النفوس والقلوب والأخلاق، قال أبي رحمه الله:

« إن نشأة علم يبحث أحوال الصحة والمرض للقلب والنفس، وطرائق الصحة، وأنواع المرض؛ شيء عادي »[2].

وقال أيضاً بعد أن ذكر أن ناساً في زماننا ينكرون التصوف كله لمجرد اسمه، ويتشنجون إذا ذكر اسمه، فقال: «لم ينكر خلال العصور اسم التصوف أحد من الناس، لأنه اصطلاح على علم، كعلم النحو والبديع والمعاني والفقه، وغير ذلك، ولا مشاحة في الاصطلاح، كما يقول العلماء، وحتى في عصرنا هذه فتاوى ابن تيمية خرج منها مجلدان تحت اسم التصوف والأخلاق، ولم أر على ذلك منكراً، ... فإذا تجاوزوا هذه النقطة ـ وينبغي تجاوزها ـ فإن المضمون هو الذي ينبغي أن يكون محل النقاش، فليكن همنا هو الوصول إلى الحق في المضمون، بدلاً من مناقشة في جانب لا يترتب على النقاش فيه أي طائل»[3].

---

(١) اللمع في التصوف، ص ٢٥.

(٢) جولات، ص ١٠٧.

(٣) تربيتنا الروحية، ص ٩.

ثالثاً: استمداد علم التصوف ومصادره:

يستمد علم التصوف قواعده وأسسه وخصاله ومبادئه من الكتاب والسنة الشريفة، ومن اجتهادات العلماء العاملين، وتجاربِ الصالحين وأحوالِهم في سيرهم إلى الله، ومن فهوم العارفين، بما يوافق الكتاب والسنة والآثار الثابتة، فهو لا يخرج عن هذا.

وقد نص على ذلك عدد كبير من أئمة التصوف[1] منذ القرون الأولى:

قال الإمام **الجنيد** (ت ٢٩٧هـ) رحمه الله: « علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة »،

وقال الإمام سهل **التُّسْتَرِيّ** (ت ٢٨٣هـ): « أصولنا .. التمسكُ بكتاب الله تعالى، والاقتداء بِسُنّة رسوله ».

وروي مثل ذلك عن الإمام إبراهيم **النصر آباذي** (ت ٣٦٩هـ) والإمام أبو الحسين **الوَرَّاق** والإمام سَرِيُّ **السَّقَطِي** (ت ٢٥٣هـ) والإمام أبو يزيد **البسطامي** (١٨٠ - ٢٦١هـ) والإمام أبو عبد الرحمن محمد **السلمي** (ت ٤١٢ هـ)، وغيرهم من بعدهم.

رابعاً: عقيدة الصوفي عند أهل السنة:

قال القشيري: « اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم، ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله: التوحيد إفراد للقدم من الحدث، وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد، كما قال أبو محمد الجريري ـ رحمه الله ـ : من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده؛ زلت به قدم الغرور في مهواة من التلف »[2].

قال أبي الشيخُ سعيد حوى رحمه الله: «الصوفي الحق ليس له عقيدة خاصة به، بل عقيدته هي عقيدة أهل الحق، ولكنه سائر في الطريق التي تصبح فيها هذه العقيدة شعوراً عنده، فلا يكون

---

(١) انظر: كتاب: حقائق عن التصوف: الشيخ عبد القادر عيسى.

(٢) الرسالة القشيرية، ص ٢.

انفصام بين فكره وقلبه، ومن ثم فهو لا يستحدث عقيدة، بل يستشعرها، وإذا تحدث فإنما يتحدث عن شعور، ويسجل تجربة، فإذا تجاوز هذا فقد ظلم، وإذا لم يحمل كلامه على هذا مع اعتقاده عقيدة الحق؛ فإنه مظلوم، والعدل طيب»[1].

قال **أبو نصر الطُّوسِي** رحمه الله (ت ٣٧٨هـ): « ثم إن طبقات الصوفية أيضاً اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم، وقَبِلُوا عُلُومَهم، ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك مجانباً للبدع واتباع الهوى، ومنوطاً بالأسوة والاقتداء وشاركوهم بالقبول والموافقة في جميع علومهم »[2].

خامساً: نشأة علم خاص لموضوعات التزكية سمي التصوف:

كما أن علم العقيدة والفقه يرجع إلى الكتاب والسنة، ووجود موضوعاتهما في الكتاب والسنة لم تمنع من نشوء عِلْم باسم العقيدة وعِلْم باسم الفقه، فكذلك مضمونات علم التصوف موجودة في الكتاب والسنة، وذلك لا يمنع نشوء علم يختص بذلك، وينبغي احترام أهل كل تخصص، والرجوع إليهم في علمهم.

قال الإمام أبو نصر السراج الطوسي رحمه الله (ت ٣٧٨ ه): « ولكل صنف من أهل العلم في علمه دواوين ومصنفات وكُتب وأقاويل، ولكل صنف منهم أئمة مشهورون قد أجمع أهل عصرهم على إمامتهم، لزيادة علمهم وفهمهم، ولا خلاف في أن أصحاب الحديث إذا أشكل عليهم علم من علوم الحديث وعلل الأخبار ومعرفة الرجال لا يرجعون في ذلك إلى الفقهاء، كما أن الفقهاء لو أشكل عليهم مسألة في الخَلِيّة والبَرِيّة والدُّور والوصايا لا يرجعون في ذلك إلى أصحاب الحديث، وكذلك مَن أشكل عليه علم من علوم هؤلاء الذين تكلموا في مواجيد القلوب ومواريث الأسرار ومعاملات القلوب، ووصفوا العلوم واستنبطوا في ذلك بإشارات لطيفة ومَعانٍ جليلة؛ فليس له أن يرجع في ذلك إلا إلى عالم ممن يكون هذا شأنه، ويكون ممن قد

(١) جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ص ١٠٧.

(٢) اللمع في التصوف، ص١٥-١٦.

مارس هذه الأحوال ونازلها واستبحث عن علومها ودقائقها، فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ، وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوَقِيعَة في قومٍ لا يعرف حالهم، ولم يعلم علمهم، ولم يقف على مقاصدهم ومراتبهم، فيَهْلِك ويَظُنُّ أنه من الناصحين، أعاذنا الله تعالى وإياكم »[1].

« فعندما تقرأ الكتاب والسنة تجد كلاماً كثيراً عن القلب والإيمان والذوق وأمراض القلوب ودواء هذه الأمراض، وتجد كلاماً عن صمم القلب وعماه، وعن سلامته وسقمه، وعن تقواه وفسوقه، وعن النفس البشرية، عن زكاتها وعن فجورها، وأمثاله هذه المعاني، فشيء عادي أن يسجل علماء المسلمين كل ما له علاقة بهذه المعاني وهذه القضايا ضمن سجل خاص، وأن ينشأ نتيجة لذلك علم خاص في كل ما له علاقة في حيثيات هذه المعاني، وكان هذا العلم هو علم التصوف والسلوك »[2].

---

(١) اللمع في التصوف، ص٢٣.

(٢) تربيتنا الروحية، ص ١٧.

الوحدة الثانية

المُرَبِّي والمُرَبَّى

وضرورة وجود المربين والمصلحين

من سنة الله في الكون أن جعل للولد أباً وأماً يربيانه، ومن سنة الله أن مَن أراد صَنْعَةً لا بد أن يأخذها عن أهلها، حتى في الحيوانات والطيور ترى تربية الأبوين لصغيرهما، وترى حاجته إلى إطعامهما، ومِن سنة الله أنه أرسل الرسل عليهم الصلوات والتسليمات ليكونوا مربين للناس ومصلحين ومعلمين وقدوات.

ولا بد أن يكون **الأب** مربياً لأبنائه، **والأم** كذلك، ولا بد أن يكون **المدرس** مربياً في المدرسة وفي الجامعة وفي المسجد، ولا بد أن يكون **إمام** المسجد وخطيبه ومدرسه مربياً، ولا بد أن يكون **الحاكم** والمسؤول مربياً، والكل يجب أن يكون فيه صفات المربين وأهليتهم.

وما لم يكن هؤلاء مُرَبِّين؛ فإن جزءاً كبيراً من الحياة ناقصاً أو منحرفاً أو فيه خلل، فلن تكون الحياة صالحة ولا سعيدة.

ولما كان الآباء والمدرسون والمسؤولون ينقصهم جانب التربية أو ينقصهم الأهلية للتربية؛ فقد جرى عرف الناس في التاريخ أن يرسلوا أبناءهم وطلابهم ومَن في وِلايتهم إلى مُؤدِّبين ومُرَبِّين مُخْتَصِّين، عُرفوا بالتربية والتزكية والإصلاح والهداية.

تماماً كالأب الذي لا يَعلم ما يجب أن يُعَلِّمَه لولده؛ فيرسلُه إلى المُعَلِّم، وكالحاكِمِ الذي لا يَعلَم العِلم الذي يجب أن يكون عند الحاكم؛ فَيلجأ إلى العلماء ويستشيرهم لِيَدُلُّوه.

ومن هنا صارت التربية تخصصاً بذاتها، ولها أهلها، يتصفون بصفات، ولهم مؤهلات وقدرات ومهارات، من خلالها يمكنهم التأثير والتغيير والإصلاح فيمن يتربى عندهم.

وهذا المربي والمؤهل غَلَبَ تاريخياً أن يُطلَق عليه اسم الشيخ، وغلب أن يربط في قضية السير إلى الله والسعي إلى المقامات العالية، لكنه في الحقيقة غير مختص بذلك، لكن من قَدِرَ على هذا فهو على غيره أقدر بإذن الله.

ولنأت إلى بيان حاجة المسلم إلى مُرَبٍّ ومُؤَدِّبٍ وقائد وقدوة[1].

المبحث الأول

ضرورة الشيخ المربي وحُكْم صحبتِهِ للتربية

يَعُدُّ المربِّي المُؤَهَّلُ للتربية ضرورياً في العملية التربوية، ويكاد يكون هو الركنَ الأهمَّ والأقوى للإصلاح وتعديل السلوك عند المربَّى.

فالتربية سير في طريق إصلاح النفس، وهي كالسفر يحتاج في المسافر إلى دليل.

والتربية شأنها شأن الصنائع، ومن كان يريد أن يتعلم صنعة كالنِّجارة والحِدادة والهندسة والفقه؛ فإنه يحتاج إلى معلم يختصر له علوم السابقين وتجاربهم، وهكذا سنة الله في العلوم والأعمال والصنائع، فكذلك السير إلى الله يحتاج إلى معلم وخبير، قد عرف الطريق وجربه، فعرف أخصر الطرق وأسهلها، وعرف مواقع الخطر والمهالك.

وكما أن الطبيب لا يصير خبيراً حتى يجمع بين العلم والتجربة، فكذلك الشيخ المربي يحتاج إلى علم، ثم يجمع إليه التجربة، والطالب يحتاج إلى هذا المُرَبِّي العالِمِ المُجَرِّب.

أدلة شرعية على الحاجة إلى الشيوخ المربين والصالحين وصحبتهم:

١. أمرنا الله تعالى بصحبة الصالحين والصادقين، وحثنا على صحبة الأتقياء المحتكمين إلى حكم الله، يعرفوننا على الله ونتعلم منهم ديننا ويرشدوننا إلى الحق والتزكية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(١) وانظر لمزيد من التفصيل كتاب التزكية تصوف أهل السنة، معاذ حوى، الباب الثاني الفصل الثالث المبحث الأول.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فأمرنا بأن نكون مع الصادقين[١]، وإنما نكون معهم بمجالستهم والأخذ عنهم والتعاون معهم على الخير والحق.

٢. وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ﴾ [لقمان: ١٥]، فأمرنا أن نجعل كل من رجع إلى الله وإلى أحكامه محلاً نتبعه ونقتدي به ونأخذ عنه ونقلده فيما اتبع فيه الحق وفيما أناب فيه إلى الله وإلى أحكامه، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فأنت تبحث عن المهتدين المتبعين، فتجعلهم قدوة لك.

٣. وقال سبحانه: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾ [الكهف: ١٧]، فبين في هذه الآية أن أَقْدَرَ الناس على الهداية مَن كان مِن أهل الولاية والصلاح والعلم والإرشاد[٢]، فالضال لا يستطيع أن يهديه أقدرُ الناسِ على الهداية، أما من يريد الهداية فسيجد في هؤلاء الأولياء المرشدين سبباً ووسيلة للوصول إلى الهداية، بعد إرادة الله وتوفيقه وهدايته، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٤. وقد أخذ الصحابة العلم عن النبي ﷺ وصحبوه، وأخذ التابعون عن الصحابة، فمِن السُّنَّةِ الشرعية أن يأخذ الإنسان العلم والتربية عن أهلها جيلاً عن جيل، كما قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ قال: نقتدي بِمَن قبلَنا ويقتدي بنا مَن بعدَنا.

٥. والإنسان يتأثر بصحبته الذين يخالطهم، فإذا كانوا على خير تَأَثَّرَ بذلك وتَوجَّه إلى الخير، وإذا كانوا على شر تأثر بذلك وتوجه نحو الشر، وكلما كانت خلطته بهم وتداخله معهم أكبر كان تأثره بهم أكبر، كما قال ﷺ : « مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير،

---

(١) بين والدي رحمه الله في كتابه تربيتنا الروحية صفحة ١٨٢ في الباب الخامس عشر: قضية الشيخ والبيعة، أن الصادقين ذكرت لهم صفات في القرآن في سورة البقرة آية ١٧٧ والحجرات آية ١٥ والأحزاب آية ٢٣ والحشر آية ٨ والتوبة آية ١٢٢، وقال: «فالصادقون هم المؤمنون المجاهدون الموقنون المصلون المزكون المتقون الصابرون الوافون بالعهود المنتظرون أن يقتلوا في سبيل الله، ويدخل في الصادقين العلماء العاملون».

(٢) انظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى، ص ١٨٢.

فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة »[1].

٦. وقال ﷺ : « الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل »[2].

فوائد الشيخ المربي:

وقد نبه والدي رحمه الله بعد أن ذكر كثيراً مما ينتقد على الشيوخ؛ أن ذلك لا يعني ترك البحث عن الشيوخ وترك صحبتهم، فإن الشيخ ضروري في العلم والتربية، ولِصحبةِ الشيخ المربي الصادق الصالح الكامل فوائد عظيمة:

« ١. إن الشيخ البصير في الأمور يختصر لك الطريق؛ فبدلاً من أن تتعب في الطريق ـ أيَّ طريقٍ ـ سواء كان طريق تحصيل علم، أو طريق الاستدلال على صلاح القلب، أو طريق تخلص من مرض؛ فإنه يختصره لك.

٢. إن الشيخ الكامل يُجَنِّبُكَ الخطأَ في الفهم، أو الخطأ في السلوك، أو الخطأ في التصورات التي يمكن أن تَنْشأ عن سير الإنسان نفسِه.

٣. إن الشيخ من خلال صحبته تأخذ منه حالاً، وتأخذ منه سَمْتَ العلماءِ وأدبَهم، ونور العلم، وتنوير القلب.

٤. إن مجرد قَبول الإنسان أن يأخذ العلم أو التربية عن أهلها؛ يُحْرِزُه مِن كثير من الأمراض، كمرض الغرور أو العنجهية أو الكِبْر.

٥. وكل حالة يُفترَضُ على إنسانٍ تحصيلُ شيءٍ، ولا يستطيع تحصيلُه إلا مِن جهة ما؛ فإن الأخذ عن هذه الجهة يُعتبر فريضةً في حقه من باب: ما لا يتم الواجب إلا به؛ فهو واجب.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢١٤ ومسلم رقم ٢٦٢٨ عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وفي روايات: « والجليس السوء ».

(٢) حديث صحيح، رواه أبو هريرة ﷺ، أخرجه أبو داود رقم ٤٨٣٣ والترمذي رقم ٢٣٧٨ وقال: حسن غريب، ورواه أحمد رقم ٨٣٩٨ بلفظ: المرء ...

٦. وإذا كان الشيخ صالحاً وداعياً إلى هُدىً؛ فإن الانتفاع به في الدنيا والآخرة تدل عليه النصوص.

٧. والتجمُّعُ حولَ شيخ، والمشاركة في حلقات العلم والذكر، والتآخي الخاص في هذه الأجواء؛ تترتب عليه مصالحُ كثيرةٌ في الدنيا والآخرة، وكل ذلك غَيْضٌ مِن فَيْضٍ في محل الشيخ ومكانه.

ونحن بقدر ما نُرَكِّزُ على أنْ تزولَ الأخطاءُ من التصورات والسلوكيات في موضوع المشيخة؛ فإننا نركز على أن نُقطَةَ الانْطلاق الصحيحةِ هي وُجُودُ الوَلِيِّ المرشِد »[1].

التربية تجربة يمر بها المربي ثم يطبقها على طلابه وتلامذته:

التربية ليست عِلْماً يُدْرس، ثم يُطَبَّق، بل هي ميراث يتوارثه جيل عن جيل، ولا شك أن تعلم التربية ينفع ويفيد ويعطي شيئاً من خبرات الآخرين، لكن التربية بالدرجة الأولى تجربة يمر بها المربي سالكاً وتلميذاً فيمر بمراحلها ومشكلاتها، حتى ينضح ويصلح ويرتقي ويتطهر، بعد ذلك يكون مؤهلاً الأهلية الكبيرة ليربي غيره.

البحث عن المرشد المربي وعدم الغلو فيه:

والطالب يبحث عمن تأهل للتربية، ويسأل عنه الثقات، ويستخير الله؛ حتى يهديه الله لرجل صالح على منهج صالح.

قال ابن عطاء الله السكندري في حِكَمِه مبيناً بعض التوجيهات في اختيار الشيخ:

«(لا تَصْحَبْ من لا يُنْهِضُك حالُه، ولا يَدُلُّك على الله مَقالُه، ربما كنت مُسِيئاً فأراك الإحسانَ منك صحبتُك إلى مَن هو أسوأُ حالاً منك)، (ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه؛ خيرٌ لك من أن تصحب عالِماً يَرضَى عن نفسه، فأيُّ عِلم لعالِمٍ يرضَى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه)، (من رأيتَه مُجِيباً على كل ما سُئل، ومُعَبِّراً عن كل ما شَهِدَ، وذاكراً كل ما علم؛ فاستدل بذلك على وجود جهله)، (مَن أُذِنَ له في التعبير فُهِمَتْ في مَسامِعِ الخَلْقِ عبارتُه، وجُلِّيَتْ

---

[1] تربيتنا الروحية، صفحة ١٩٨-١٩٩.

إليهم إشارته)، (ربّما عَبَّرَ عن المقام مَن اسْتَشْرَفَ عليه، وربما عبر عنه مَن وَصَلَ إليه، وذلك يلتبس إلا على صاحب البصيرة)».

وعلى الطالب الباحث عن الشيخ المربي أن يحذر من شيوخ الضلالة، وقد حذر أئمة التصوف من المُدَّعِين الكاذبين.

وقد نبه الإمام الرفاعي رحمه الله في حِكَمِه إلى انحراف بعض الشيوخ، وحذر من الغلو في الشيخ:

قال في الحكمة ٥١: «لا تجعل رواق شيخك حَرَماً، وقبرَه صَنَماً، وحالَه دَفّة الكُدْية»، أي لا تغالي في الشيخ فتجعله مقدساً، ولا تتعامل مع قبره وكأنه إله، ولا تجعل انتسابك إليه وسيلة للشحدة واستجلاب حب الناس وشفقتهم.

وقال في الحكمة ١٣٣: « ربما اتُّبِعَ الكاذبُ، وهُجِرَ الصادقُ، وكَثُرَتْ طَقْطَقَةُ النِّعالِ حول المغرورين، وتباعد الناس عن المبروكين، فلا تعجب من ذلك، فإنه حالَ النفس تحبُّ القُبَّةَ المُزَيَّنة، والقبرَ المنْقوش، والرُّواق الوسيع، وتَأْلَفُ الشيخَ الكبيرَ العِمامةِ، الوسيعَ الكُمِّ، الكثيرَ الحِشْمة، فسَيِّرْ هِمَّةَ القلب، لا همة النفس لكشف هذه الحُجُب، وقلْ لنفسك: لو رأيتِ رسولَ الله ﷺ على حصيرٍ وقد أثرتْ في جَنْبِه الشريف، ورأيتِ أهل بيته رِضْوان الله وسلامه عليهم؛ لا طعام لهم ولا حَشَم، ثم رأيتِ كسرى العجمِ على سريره المُرَصَّع بالجواهر واليَواقِيت، وأهلَ بيته مستغرقين بالتَّرَف والنعيم، مُحاطِين بالخدم والحَشَم، أين تكونين؟ ومع أي صنف تنصرفين؟ فلا بد إن وفقها الله أن تحب مَعِيَّة رسول الله ﷺ وأهلِ بيته، فَقُدْ بهذا الشأن همةَ القلب إلى أهل الحالِ المحمدي؛ تُحْسَبْ في حزب الله ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ ».

ونبه إلى أن بعض المبالغات في الشيوخ دخلنا من جهة الأعاجم، فقال في ا لحكمة ٨١: « قال بعض الأعاجم من صوفية خراسان: إن روحانية ابن شهريار الصوفي قدس سره تتصرف في ترتيب جموع الصوفية في العرب والعجم إلى ما شاء الله ؟ ذلك لم يكن إلا لله الوهاب الفعال ».

وقال في حكمة ٨٣: « إياك وإفراط الأعاجم، فإن في أعمال بعضهم الإطراءَ الذي نص

عليه الحبيب ـ عليه صلوات الله وسلامه ».

وذكر بعض الصفات التي يجب أن تتحراها في شيخك ومرشدك، فقال في الحكم ٣٢-٣٤:

« الشيخ: من إذا نصحك أَفهمك، وإذا قادك دلك، وإذا أخذك نهض بك.

الشيخ: من يُلزمك الكتاب والسنة، ويُبعدك عن المحدثة والبدعة.

الشيخ: ظاهره الشرع، وباطنه الشرع ».

ونبه إلى أن التلميذ بدلاً من أن يفتخر بشيخه ويغالي فيه، فليكن من المجتهدين الذي يفتخر بهم شيوخهم، فقال في حكمة ٥٢: « الرجل من يفتخر به شيخه، لا من يفتخر بشيخه ».

إن وجود بعض المنحرفين والكاذبين لا يجوز أن يترك لأجله البحث عن الشيخ المربي الصالح، ولا أن يُدَّعَى به أن كل أئمة التصوف وشيوخِهم على انحراف وباطلٍ وكفر وبدعة وضلالة.

وفي الرد على ذلك نجد العلماء من القديم قد نبهوا إلى استقامة أئمة الصوفية.

وهذا الشيخ ابن تيمية يمدح أئمة التصوف ويبين أن من الصوفية مستقيمون متمسكون بالكتاب والسنة، فقال وهو يمدح الإمام عبد القادر الجيلاني رحمه الله: « فَأَمَّا الْمُسْتَقِيمُونَ مِنْ السَّالِكِينَ كَجُمْهُورِ مَشَايِخِ السَّلَفِ؛ مِثْلِ الْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَأَبِي سُلَيْمَانَ الدارانيِّ وَمَعْرُوفٍ الْكَرْخِي وَالسَّرِيِّ السَّقطِيّ والْجُنَيْدِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَمِثْلِ الشَّيْخ عَبْدِ الْقَادِرِ وَالشَّيْخ حَمَّادٍ وَالشَّيْخِ أَبِي الْبَيَانِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ، فَهُمْ لَا يُسَوِّغُونَ لِلسَّالِكِ وَلَوْ طَارَ فِي الْهَوَاءِ أَوْ مَشَى عَلَى الْمَاءِ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الشَّرْعِيَّيْنِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَدَعَ الْمَحْظُورَ إلَى أَنْ يَمُوتَ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ »[1].

---

[1] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، مجلد التصوف، ١٠/ ٥١٦-٥١٧.

علوم الشيخ المؤهل في التصوف

يرى ابن البنا السرقسطي[1] أن الشيخ الصوفي المربي الصالح للإرشاد يجب أن يكون جامعاً للعلوم الآتية:

١. العقائد، ومسائلها، وعرف الواجب والمستحيل والممكن.

٢. الفقه، وأحكامه العملية.

٣. معرفة حدود التعاريف وضوابط المسائل، ليكون متحققاً منها، ومميزاً لها، ومُفَرِّقاً بين مُخْتَلِفِها، فلا يخلط ولا يتوه.

٤. معرفة أصول الطريق ومعالمه الكبرى، وهي صحة الاعتقاد، وإقامة الفرائض، واجتناب المحرمات، واتباع السنة، ولزوم الأدب.

٥. معرفة مصطلحات الصوفية، ومعانيها الصحيحة الموافقة للشريعة.

٦. معرفة القرآن، فيحسن قراءته، ويفهم تفسير آياته بشكل جيد، فلا يحرف معانيها، ويتعلم من ذلك ما يتعلق بالتصوف والتربية وإصلاح النفوس، على الأقل.

٧. معرفة السنة، بالقدر المتعلق بعلم التزكية والتصوف، وما يحتاجه من استدلال لنصرة الطريق، وبيان صحة السلوك والتصوف الذي يدعو إليه.

ويتعلم من علم السنة ما يكون به مميزاً بين الحديث المقبول الذي يُستَدَلُّ به، كالصحيح والحسن، والحديث المردود الذي لا يجوز الاستدلال به؛ كالموضوع وشديد الضعف، والحديث المجبور؛ كالضعيف ضعفاً خفيفاً، والذي يمكن أن يُستدل به في الفضائل التي أيدتها نصوص عامة أو روح الشريعة.

٨. علم البرهان والمنطق السليم، فيعلم من ذلك ما يعينه على سلامة العبارة والاستدلال والتفكير.

---

(١) انظر: الفصل الخامس من منظومة المباحث الأصلية.

٩. علم الحال، فيعلم أحوال السالكين، وقد مر بها، ويعلم كيف يتعامل مع تحولات النفس، ويَقْدِرُ بالفراسة والنَّباهة على تمييز مقاصد الناس والسالكين، مَن يريد الحق ممن يريد الباطل، مَن هو من أهل الحق والإحسان والصدق والعدل، ومن هو على خلاف ذلك.

١٠. يعتني بعلم التنزيه، ويحرص على أن تكون عباراتُه منضبطةً في ذلك غيرَ موهمة، ويميز بين رتبة الإله والعبد، وبين رتبة الرب والمخلوق، ولا ينسب إلى الخالق ما لا يليق بكماله، ولا ينسب إلى الأولياء ما هو لله.

وهذا من علم العقائد، لكن ذكره العلماء لأنه وجد في كتب التربية والتصوف عبارات ظاهرها البطلان، وتحتاج إلى تأويل كثير أو بعيد، وبعض الطلاب الجهلة يحملونها على ظاهرها، ويناصرونها بالباطل.

١١. معرفة النفس والعقل والروح والقلب والفؤاد والصدر، والتمييز بينها، وكيف تتكامل التربية من خلال إصلاحها جميعاً، وكيف يُربِّي العقل، وكيف يُنَوِّرُ الروح، وكيف يُصلِح النفس، وكيف يعالج أمراض القلوب، وكيف يميز بين انشراح الصدر بالحق، وبين فرح النفس بهواها.

١٢. معرفة علم الناسخ والمنسوخ، حتى لا يستدل بنص تُرِك العملُ به، ولا يخالف إجماعَ الأمة بدعوى نص منسوخ.

فمن أتقن هذه العلوم العقلية والعلمية والذوقية؛ كان أهلاً للمشيخة، وإلا فليس من المقبول أن يمارس المشيخة أو يَدَّعِيها أحدٌ لم يتقن هذه العلوم.

وليس المقصود من تحصيل هذه العلوم أن يكون شيخ التربية والتصوف مجتهداً، وإنما أن يكون عنده منها ما يلزمه للتربية والإقناع بصحة التصوف، لا سيما ونحن في زمان وُجِد فيه مَن يُنكِر التصوف جملة وتفصيلاً.

المبحث الثاني

أعمال الشيخ المرشد المربي ووظائفه

فصل الإمام الغزالي وظائف المرشد المعلم، فقال[1]:

«**الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلمين** وأن يجريهم مجرى بنيه، قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[2]، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا، ولذلك صار حق المعلم أعظمَ من حق الوالدين؛ فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة، أعني معلم علوم الآخرة، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا.

وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابُّوا ويتعاونوا على المقاصد كلها، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا.

فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى، وسالكون إليه الطريق من الدنيا، وسِنُوُّها وشُهُورُها منازل الطريق.

والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التوادّ والتحابّ، فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه؟ ولا ضيق في سعادة الآخرة، فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع، ولا سَعة في سعادات الدنيا، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم.

---

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ٥٥-٥٨، وما ذُكِر ملخَّص من كلام الغزالي كما لخصه الشيخ سعيد حوى في كتاب المستخلص في تزكية الأنفس، ٢٠-٢٣.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة.

والعادِلون[1] إلى طلب الرياسة بالعلوم؛ خارجون عن موجَب قوله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات: ١٠]، وداخلون في مقتضى قوله تعالى: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الوظيفة الثانية: أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه، **فلا يطلب على إفادة العلم أجراً**، ولا يقصد به جزاءً ولا شُكراً، بل يُعَلِّمُ لوجه الله تعالى، وطلباً للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه مِنَّةً عليهم، وإن كانت المنة لازمةً عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأَنْ تتقرَّبَ إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها، كالذي يُعِيرُكَ الأرضَ لِتزرع فيها لنفسك زراعة، فمنفعتُك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض، فكيف تُقَلِّدُه مِنَّةً؛ وثوابُك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى، ولولا المتعلم ما نِلْتَ هذا الثواب، فلا تطلبِ الأجرَ إلا من الله تعالى، كما قال عز و جل [حكاية عن نوح عليه السلام]: ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله ﴾ [هود: ٢٩].

الوظيفة الثالثة: **أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً**، وذلك بأن يمنعَه من التَّصَدِّي لرُتبةٍ قبل استحقاقها، والتشاغلِ بعلم خَفيٍّ قبل الفراغ من الجَلِيِّ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القربُ إلى الله تعالى، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن، فليس ما يُصلِحُه العالمُ الفاجِرُ بأكثرَ مما يُفسِدُه.

الوظيفة الرابعة: وهي من دقائق صناعة التعليم؛ **أن يزجر المتعلِّمَ عن سوء الأخلاق،** بطريق التعريض ما أمكن، ولا يُصَرِّحُ، وبطريق الرحمةِ لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يَهْتِكُ حجاب الهيبة، ويورِثُ الجُرْأَةَ على الهجوم بالخلاف، ويُهيِّجُ الحرص على الإصرار، ويُنبِّهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نُهِيا عنه؛ فما ذُكِرت القصةُ معك لتكون سَمَراً، بل لتتنبّه بها على سبيل العِبْرة، ولأن التعريض أيضا يُمِيلُ النفوسَ الفاضلة والأذهانَ الذكية إلى استنباط معانيه؛ فيفيدُ فرَحَ التَّفطُّنِ لمعناه، رغبة في العلم به، لِيعلمَ أن ذلك مما لا يَعْزُبُ عن فِطْنَته.

---

[1] عَدَلَ إلى: أي مال ورغب، وترك ما الشيء الصحيح.

الوظيفة الخامسة: أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن **لا يُقَبِّحَ في نَفْسِ المتعلِّمِ العلومَ التي وراءه**، كمعلم اللغة إذْ عادتُه تقبيحُ علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وأن ذلك نَقْلٌ مَحْضٌ وسَماعٌ، وهو شأن العجائز، ولا نَظَرَ للعقلِ فيه، ومُعلِّم الكلامِ[1] يُنَفِّرُ عن الفقه، ويقول: ذلك فروع، وهو كلام في حَيْضِ النِّسوان، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن، فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين، ينبغي أن تجتنب، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعي التَّدريج في ترقِية المتعلم من رتبة إلى رتبة.

الوظيفة السادسة: **أن يَقتصِر بالمتعلم على قَدْرِ فهمِه**، فلا يُلْقِي إليه ما لا يَبْلُغُه عقلُه، فيُنَفِّرَه، أو يَخْبِطَ عليه عقلَه، اقتداءً في ذلك بسيد البشر ﷺ ، فلْيَبُثَّ إليه الحقيقةَ إذا علِم أنه يَستقِلُّ بفهمِها، وقال [ابن مسعود ﵁ كما أخرج مسلم:] «ما أحدٌ يُحدِّثُ قوماً بحديث لا تبلغُه عقولُهم إلا كان فتنةً على بعضهم»، وقال علي ﵁، وأشار إلى صدره: «إن ههنا لعلوماً جَمَّةً، لَوْ وَجدْتُ لها حَمَلَةً»، وصدق رضي الله عنه فقلوبُ الأبرارِ قُبورُ الأسْرارِ، فلا ينبغي أن يُفشِي العالِمُ كلَّ ما يَعلَمَ إلى كل أحد؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم، ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟ ولذلك قِيلَ: كِلْ لِكُلِّ عبدٍ بمِعْيارِ عقلِه، وزِنْ له بميزان فهمِه، حتى تسلم منه، وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار، لتفاوت المعيار، وليس الظلم في إعطاء غير المستحِق؛ بأقل من الظلم في منع المستحِق:

فمن مَنَحَ الجُهّال عِلْماً أضاعه ... ومَنْ مَنَعَ المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة: **أن المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقَى إليه الجليَّ اللائق به**، ولا يُذكَرُ له أن وَراءَ هذا تدقيقاً وهو يَدَّخِرُه عنه، فإن ذلك يُفَتِّرُ رغبتَه في الجليِّ، ويُشَوِّشُ عليه قلبَه، ويوهِمُ إليه البخلَ به عنه، إذْ يظنُّ كلُّ أحدٍ أنه أهلٌ لكلِّ علمٍ دقيق، فما من أحد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في كمال عقله، وأشدُّهم حَماقةً وأضعفُهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله، وبهذا يُعلَم أن مَن تَقَيَّدَ من العوام بقَيْدِ الشرعِ، ورَسَّخَ في نفسه العقائد المأثورة عن السَّلَف مِن غير تشبيه ومن غير تأويل،

---

(١) أي معلم علم الكلام، وهو علم العقيدة.

وحَسَّنَ مع ذلك سريرتَه، ولم يحتمل عقلُه أكثرَ من ذلك؛ فلا ينبغي أن يُشَوَّش عليه اعتقادُه، بل لا ينبغي أن يُخاضَ مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يَقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليمِ الأمانة في الصناعات التي هم بصددها، ويَمْلأَ قلوبَهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار، كما نطق به القرآن، ولا يُحرِّكَ عليهم شُبْهَةً؛ فإنه ربما تعلقت الشُّبْهةُ بقلبِه، ويَعْسُرُ عليه حَلُّها، فيشقى ويهلك.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المعلِّم عاملاً بعلمه، فلا يُكَذِّبُ قولَه فعلُه، لأن العلم يُدرَك بالبصائر، والعمل يدرَك بالأبصار، وأَرْبابُ الأبْصار أكثرُ، فإذا خالفَ العملُ العلمَ منعَ الرُّشْد، وكلُّ مَن تناول شيئاً، وقال للناس: (لا تتناولوه، فإنه سُمٌّ مُهْلِكٌ)؛ سَخِرَ الناسُ به واتهموه، وزاد حرصُهم على ما نُهُوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيبُ الأشياء وألذُّها؛ لَمَا كان يستأثرُ به.

ومَثَلُ المعلِّمِ المرشِدِ مِن المسترشدين مَثَلُ النَّقْشِ من الطين، والظِّلِّ مِن العُودِ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه؟ ومتى استوى الظلُّ والعودُ أعوج؟ ولذلك قيل في المعنى:

لا تَنْهَ عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى: ﴿ أتأمرون الناس بالبرِّ وتنسون أنفسكم ﴾ [البقرة: ٤٤]، ولذلك كان وِزْرُ العالمِ في معاصيه أكثرَ مِن وِزْرِ الجاهل، إذْ يَزِلُّ بِزَلَّتِه عالَمٌ كثير، ويقتدون به، «ومن سَنَّ سُنَّةً سيئة فعليه وِزْرُها ووزر من عمل بها»، ولذلك قال علي ﷺ: «قَصَمَ ظَهرِي رجلان؛ عالِمٌ مُتَهَتِّكٌ، وجاهلٌ مُتَنَسِّكٌ؛ فالجاهلُ يَغُرُّ الناسَ بتنسُّكِهِ، والعالِمُ يَغُرُّهم بِتَهَتُّكِهِ»، والله أعلم».

وقال القاسمي في تعريف المرشد والمذَكِّر، مبيناً أهم أعماله:

«أَتَدْرِي مَنِ الْمُذَكِّرُ أَوِ الْوَاعِظُ أَوِ الْمُرْشِدُ ؟ هُوَ إِنْسَانٌ حَافِظٌ لِحُدُودِ اللهَّ ، قَائِمٌ عَلَى إِرْشَادِ الْعُقُولِ ، وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ ، وَتَثْقِيفِ الْأَذْهَانِ ، وَتَنْوِيرِ الْمَدَارِكِ وَتَصْحِيحِ الْمُعْتَقَدَاتِ وَإِبَانَةِ سِرِّ الْعِبَادَاتِ ، وَإِمَاطَةِ مَا غَشِيَ الْأَفْهَامَ الْقَاصِرَةَ مِنْ غَيَاهِبِ الْجَهَالَةِ وَتُرَاثِ الضَّلَالَةِ .

الْمُذَكِّرُ وَارِثٌ مُحَمَّدِيٌّ[1]، وَاقِفٌ عَلَى مَقَاصِدِ التَّشْرِيعِ وَحِكْمَتِهِ ، عَالِمٌ مَوَاضِعَ الْخِلَافِ وَالْوِفَاقِ ، سَائِسٌ لِسَامِعِيهِ بِمَا يُلَائِمُهُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ، لَا يَصْعَدُ بِهِمْ قِمَمَ الشِّدَّةِ وَالتَّعْسِيرِ ، وَلَا يَهْبِطُ بِهِمْ إِلَى حَضِيضِ التَّرْخِيصِ غُلُوًّا فِي التَّيْسِيرِ ، بَلْ يَسِيرُ بِهِمْ عَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ وَسَوَاءِ الطَّرِيقِ .

الْمُذَكِّرُ يَنْشُرُ الْعِلْمَ النَّافِعَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ ، وَيُخَاطِبُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ ، وَيَتَنَزَّلُ لِإِرْشَادِهِمْ إِلَى لُغَتِهِمْ ، يُعَاشِرُ بِالنُّصْحِ ، وَيُخَالِطُهُمْ لِتَأْلِيفِ قُلُوبِهِمْ .

الْمُذَكِّرُ هُوَ الْعَامِلُ الْأَكْبَرُ فِي إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ ، وَتَحْرِيرِهِمْ مِنْ رِقِّ الْخُرَافَاتِ وَالْوَهْمِ.

وَهُوَ كَالسِّرَاجِ فَإِذَا لَمْ يُنْتَفَعْ بِضَوْئِهِ فَلَا فَائِدَةَ فِي وُجُودِهِ ، وَحَقٌّ مَا قِيلَ: (لَا يَكُونُ الْعَالِمُ عَالِمًا حَتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ عِلْمِهِ فِي قَوْمِهِ)، إِذْ لَيْسَ مَسْؤُولًا عَنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا ، بَلْ عَنْهَا وَعَنْ عَشِيرَتِهِ وَأُمَّتِهِ ، فَمِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يُعَلِّمَ وَيَعِظَ وَيُبَلِّغَ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ: فَالْمُذَكِّرُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ كَامِلًا فِي تَعْلِيمِهِ ، كَامِلًا فِي إِرْشَادِهِ ، كَامِلًا فِي أَخْلَاقِهِ»[2].

---

(١) ولفظ الوارث المحمدي أو وارث النبوة مصطلح مستخرج من الكتاب السنة، من قوله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقول رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

(٢) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين: ص ١٠.

المبحث الثالث

أدب التلميذ والسالك وطالب العلم والتزكية

بين الإمام الغزالي رحمه الله أن آداب المتعلم ووظائفه الظاهرة ترجع إلى عشرة، وهي آداب يحتاجها طالب علم العقيدة وعلم الفقه وطالب علم التزكية وغيرهم، وطالب التربية محتاج أن يبدأ بالعلم فلا بد أن يتأدب بآدابه:

«**الوظيفةُ الأولى: تقديمُ طهارةِ النَّفْس عن رَذائلِ الأخلاق ومَذْمومِ الأوْصاف**، إذ العلم عبادةُ القلبِ، وصلاةُ السِّرِّ، وقُرْبَةُ الباطِنِ إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف.

قال الله تعالى: ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ [التوبة: ٢٨]، تنبيهاً للعقول على أن الطهارةَ والنجاسة غيرُ مقصورة على الظواهر بالحِسِّ، فالمُشْرِك قد يكون نظيف الثوب مَغْسولَ البَدَنِ، ولكنه نَجِسُ الجَوْهَر، أي باطنُه مُلَطَّخٌ بالخَبائِثِ، والنَّجاسةُ عبارة عما يُجْتَنَبُ ويُطلبُ البُعدُ منه، وخبائثُ صفاتِ الباطن أهمُّ بالاجتناب، فإنها مع خُبْثِها في الحالِ مُهْلِكاتٌ في المآلِ.

الوظيفة الثانية: أن يُقلِّلَ علائقَه مِن الاشتغال بالدنيا، فإن العلائقَ شاغلةٌ وصارِفَةٌ، ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ [الأحزاب: ٤]، ومهما تَوَزَّعَتِ الفِكْرةُ قَصَّرَتْ عن دَرْكِ الحقائقِ، ولذلك قيل: (العلمُ لا يُعطِيك بعضَه حتى تُعطيه كُلَّكَ، فإذا أعطيته كُلَّكَ فأنتَ مِن إعطائه إياك بعضَه على خَطَرٍ[1]).

والفِكرة المُتَوَزِّعةُ على أمورٍ مُتفرِّقةٍ كَجَدْولٍ تَفرَّقَ ماؤُهُ فَنَشَّفَتِ الأرضُ بعضَه، واخْتَطَفَ الهواءُ بعضَه، فلا يَبقَى منه ما يَجتمِعُ ويَبْلُغُ المَزْرُوعَ.

الوظيفة الثالثة: أن لا يَتكبَّرَ على العِلم، ولا يَتأمَّر على مُعَلِّم، بل يُلقِي إليه زِمامَ أمرِه بالكلِّيَّة في كل تفصيل، ويُذْعِنُ لنصيحتِه إذْعانَ المريضِ الجاهل للطبيب المُشْفِقِ الحاذِق.

---

(١) على خطر: أي على احتمال.

وينبغي أن يتواضع لمعلمه، ويطلب الثواب والشرف بخدمته، قال الشَّعْبي: (صلى زيدُ بن ثابت ﷺ على جنازةٍ فقُرِّبَتْ إليه بَغْلَتُه لِيركبَها، فجاء ابن عباس فأخذ بِركابِه، فقال زيدٌ: خَلِّ عنه يا ابن عَمِّ رسولِ الله ﷺ ، فقال ابنُ عباسٍ: هكذا أُمِرْنا أن نفعلَ بالعُلماءِ والكُبَراءِ، فقبَّل زيدُ بنُ ثابتٍ يدَه، وقال: هكذا أُمِرْنا أنْ نَفعلَ بأهلِ بيتِ نبيِّنا ﷺ)[١].

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم، ومِن تَكبُّره على المعلم أن يَستنْكِفَ عن الاستفادة إلا مِن المرْموقِين المشهورين، وهو عين الحماقة؛ فإن العلمَ سببُ النجاةِ والسعادة، ومَن يطلبُ مَهْرَباً مِن سَبُعٍ ضارٍ يفترسُه؛ لم يُفرِّقْ بين أنْ يُرْشِدَه إلى الهَرَبِ مَشهورٌ أو خامِلٌ، فالحكمة ضالَّةُ المؤمنِ يَغتنِمُها حيث يَظفَرُ بها، ويَتَقَلَّدُ المِنَّةَ لِمَنْ ساقَها إليه كائناً مَن كان؛ فلذلك قيل:

العِلْمُ حَرْبٌ للفَتى المتعالي ... كالسَّيْلِ حربٌ للمكان العالي

فلا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاءِ السَّمْعِ، قال الله تعالى: ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق: ٣٧]، ومعنى كونِه ذا قَلْبٍ أن يكون قابلاً للعلم فهماً، ثم لا تُعِينُه القُدْرةُ على الفَهْمِ حتى يُلقِي السَّمع وهو شهيد، حاضِر القلبِ لِيَسْتَقْبِلَ كلَّ ما أُلقى إليه بحُسْنِ الإصْغاء والضَّراعةِ والشُّكر والفَرح وقَبولِ المِنَّة.

فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دَمِثَةٍ[٢] نالتْ مطراً غزِيراً، فتَشَرَّبَتْ جميعُ أجزائها وأَذْعَنَتْ بالكُلِّيَّةِ لقبولِه، ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فلْيُقَلِّدْهُ ولْيَدَعْ رأيَه، فإنَّ خطأَ مُرْشِدِه أَنفعُ له من صوابِه في نفسه، إذ التجربة تَطَّلِعُ على دقائقَ يُستغرَبُ سماعُها، مع أنه يَعظُم نفعُها.

وقد قال علي ﷺ: (إنَّ مِن حقِّ العالمِ أن لا تُكثِرَ عليه بالسؤال، ولا تُعْنِتَه[٣] في الجواب، ولا تُلِحَ عليه إذا كَسِلَ، ولا تأخذْ بثوبِه إذا نَهَضَ، ولا تُفْشِي له سِرّاً، ولا تَغْتابَنَّ أحداً عنده، ولا تطلبنَّ عَثْرتَه، وإنْ زَلَّ قبلتَ معذرتَه، وعليك أن توقِّره وتعظمَه لله تعالى، ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجةٌ سبقتَ القومَ إلى خدمتِه).

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا هكذا نفعل قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم.

(٢) دمثة: أي لينة تشرب ماء المطر.

(٣) لا تعنته: لا تتعبه ولا تشق عليه.

الوظيفه الرابعة: أن يحترز الخائضُ في العلم في مَبْدَإِ الأمر عن الإصْغاء إلى اختلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة، فإن ذلك يُدْهِشُ عقلَه، ويُحيِّر ذهنَه، ويُفتِّر رأيَه، ويُؤْيِسُه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريقَ الحميدة الواحدة المَرْضِيَّة، ثم بعد ذلك يُصْغِي إلى المذاهب.

الوظيفة الخامسة: أنْ لا يَدَعَ طالبُ العلم فنّاً[١] من العلوم المحمودة، ولا نوعاً من أنواعه، إلا ويَنْظُرَ فيه نظراً يَطّلعُ به على مَقْصِدِه وغايته، ثم إن ساعدَه العُمرُ طلبَ التَّبَحُّرَ فيه، وإلا اشتغل بالأهمِّ منه واسْتوْفاه، فإن العلوم مُتعاوِنَة، وبعضها مُرتَبِطٌ ببعض، ويَستفيدُ منه في الحالِ الانْفِكاكُ عن عَداوةِ ذلك العلم بسبب جهلِه، فإن الناس أعداءُ ما جهلوا، قال تعالى: ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ [الأحقاف: ١١]، قال الشاعر:

ومن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريض ... يَجِدْ مُرّاً به الماءَ الزُّلالا

فالعلومُ [الشرعية] على درجاتها؛ إما سالكةٌ بالعبد إلى الله تعالى، أو مُعِينَةٌ على السلوك نوعاً من الإعانة، ولها مَنازل مُرتَّبةٌ في القرب والبعد من المقصود، والقُوّامُ بها حَفَظَة [الشريعة] كحُفّاظ الرِّباطات والثُّغور، ولكلِّ واحدٍ رُتْبةٌ، وله بحسب درجته أجر في الآخرة، إذا قصد به وجه الله تعالى.

الوظيفة السادسة: أن لا يخوض في فَنٍّ من فُنون العلم دَفْعَةً، بل يراعي الترتيب ويَبتدىء بالأهمِّ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً؛ فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بِشَمِّه، ويَصْرِفَ جِمَامَ قوَّتِه في الميسورِ مِن علمِه إلى استكمالِ العلم الذي هو أشرف العلوم، وهو علم الآخرة، ولَسْتُ أعني به الاعتقادَ الذي يَتَلَقَّفُه العاميُّ وِراثةً أو تَلَقُّفاً، ولا طريقَ تحريرِ الكلام والمجادلةِ في تحصين الكلامِ عن مُراوَغاتِ الخصوم، كما هو غاية المُتكَلِّم، بل ذلك نوعُ يَقينٍ، هو ثمرةُ نورٍ يقذفُه الله تعالى في قلبِ عبدٍ طَهَّرَ بالمجاهدة باطنَه عن الخبائث، حتى

(١) فناً: أي تخصصاً.

ينتهي إلى رتبةِ إيمان أبي بكر ﷺ، الذي لو وُزِن بإيمان العالَمين لَرَجَح، [كما شهد له به عمر في رواية صحيحة].

وعلى الجملة فأشرفُ العلوم وغايتُها معرفةُ الله عز وجل، وهو بحر لا يُدرَك مُنْتَهى غَوْرِه، وأقصى درجاتِ البَشرِ فيه رُتبةُ الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الذين يلونهم.

الوظيفة السابعة: أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله؛ فإن العلوم مرتبةٌ ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض، والموفَّقُ مَن راعى ذلك الترتيبَ والتدريجَ، ولْيَكُنْ قصدُه في كل علم يَتحرّاه الترقي إلى ما هو فوقَه؛ فينبغي ألا يَحْكُمَ على علم بالفساد، لوقوع الخُلْفِ بين أصحابِه فيه، ولا بخطأ واحدٍ أو آحادٍ فيه، ولا بمخالفتهم مُوجَبَ علمِهم بالعَمَل، فترى جماعةً تركوا النَّظر في العَقليات والفِقهيات، مُتَعَلِّلين فيها بأنها لو كان لها أَصْلٌ لأَدْرَكَه أربابُها، وترى طائفةً يعتقدون بُطلان الطِّبِّ لخطأ شاهدوه مِن طبيب، وطائفةٌ اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتَّفَقَ لواحد، والكلُّ خطأ، بل ينبغي أن يَعرِف الشيءَ في نفسِه، فلا كُلُّ عِلمٍ يَستقِل بالإحاطة به كل شخص، ولذلك قال علي ﷺ: (لا تَعْرِفِ الحقَّ بالرجال، اعرِفِ الحقَّ تَعْرِفْ أهلَه).

الوظيفة الثامنة: أن يعرف السبب الذي به يُدرِك أشرف العلوم، وأن ذلك يراد به شيئان: أحدهما: **شَرَف الثَّمرة**، والثاني: **وَثاقَةُ الدَّليل وقُوَّتُه**، وذلك كعلم الدين وعلم الطب، فإن ثمرة أحدهما الحياةُ الأبدية، وثمرة الآخر الحياة الفانِية، فيكون علم الدِّينِ أشرفَ.

ومِثْلَ علمِ الحساب وعلم النجوم، فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها، وإن نُسِبَ الحساب إلى الطب كان [الطب] أشرفَ، وبهذا تبين أن أشرفَ العلوم العلمُ بالله عز وجل وملائكتِه وكتبه ورسله، والعلمُ بالطريق المُوْصِل إلى هذه العلوم.

الوظيفة التاسعة: أن يكون قصدُ المتعلم في الحالِ تحليةَ باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآلِ **القربَ من الله سبحانه والترقي** إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يَقصِد به الرِّياسة والمالَ والجاهَ ومُماراةَ السُّفهاء ومُباهاةَ الأقران، ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم، أعني علمَ الفتاوى، وعلمَ النحوِ واللغةِ المتعلِّقَين بالكتاب والسنة، وغيرَ ذلك من

ضُروب العلوم التي هي فرضُ كفاية، ولا تَفهَمَنَّ مِن غُلُوِّنا في الثناء على علم الآخرة تَهْجِين هذه العلوم، فالمُتَكَفِّلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغُزاةِ المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتلُ، ومنهم الرِّدْءُ، ومنهم الذي يَسقيهم الماء، ومنهم الذي يَحفَظُ دوابَّهم ويتعهدهم، ولا يَنْفَكُّ أحدٌ منهم عن أجر؛ إذا كان قصْدُه إعلاءَ كلمةِ الله تعالى، دون حِيازَةِ الغنائم، فكذلك العلماءُ، قال الله تعالى: ﴿ يرفعِ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [الحشر: ١١]، وقال تعالى: ﴿ هم درجات عند الله ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، والفضيلة نِسبِيَّة.

فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقطُ القَدْر، بل الرُّتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين في العلم ثم للصالحين، على تفاوت درجاتهم، وبالجملة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ومن قصد الله تعالى بالعلم أَيَّ علمٍ كانَ؛ نَفَعَه ورَفَعَه لا محالة.

الوظيفة العاشرة: أن يعلم نِسبة العلوم إلى المقصد، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره، ومعنى المهم ما يَهُمُّك، ولا يهمك إلا شأنُك في الدنيا والآخرة، وإذا لم يمكنْك الجمعُ بين مَلاذِّ الدنيا ونعيم الآخرة ـ كما نطق به القرآن، وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان ـ فالأهم ما يبقى أبد الآباد، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً، والبَدَن مَرْكَباً، والأعمال سعياً إلى المقصد، ولا مقصدَ إلا لقاءُ الله تعالى، ففيه النّعيم كلُّه، وإنْ كان لا يَعرفُ في هذا العالم قَدْرَه إلا الأَقَلُّون.

فتأَمَّلْ هذا أوّلاً، واقْبَلِ النصيحةَ مجّاناً ممن قام عليه ذلك غالباً، ولم يصل إليه إلا بعد جُهْدٍ جَهِيد، وجَراءَةٍ تامَّةٍ على مُبايَنَةِ الخَلْق العامة والخاصة، في النزوع مِن تقليدهم بمُجَرَّد الشهوة، فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم»[1].

(١) مختصراً من إحياء علوم الدين، ١/ ٤٨-٥٤، كما اختصره الشيخ سعيد حوى في المستخلص من تزكية الأنفس، ١٦-٢٠.

تنبيه

إلى تكامل الشيخ المربي مع البيئة مع المنهج السليم[1]

الوسائل لتكوين الفرد المسلم ثلاثة يجب أنْ تجتمع حتى تؤتي ثمارها كاملة:

(١) المربِّي. (٢) المنهج المناسب. (٣) البيئة الصالحة.

وأيّ خلل في واحد من هذه الثلاثة لا بد أن يترتب عليه خلل في تخريج الشخصية المسلمة، إلَّا إذا تداركتْ الفرد نفحة ربانية، أو شاء الله أنْ يعوض.

● فالبيئة الصالحة: هي الجو الذي يأخذ المسلم فيه الأخلاق والعلم والعمل، وينأى بواسطتها عن اللهو والعبث فضلاً عن الحرام، وهي التي مظهرها العلم والذكر، فهي دائماً إما في جو علم أو في جو ذكر، وأن يكون ذلك في جو المسجد فذلك أفضل، وإلَّا ففي كل بيت مسلم يمكن أنْ يقوم سوق للخير ، وعلينا أن نَحذر من البيئات المرضيَّة، والتي يمكن أنْ تنشأ من الصحبة.

● والمربي الحكيم: هو الوارث الكامل، أو في اصطلاح القرآن (الولي المرشد).

● وأما المنهج: فهو ذكْرٌ وعمل، فيحافظ المسلم على أوراده اليومية، وينبغي أنْ يكون له اعتكافه السنوي، وينبغي أنْ يعتاد على الخلوات، وعلى أنواع الأذكار، وعلى قيام الليل، وعلى الأخلاق العليا في كل دائرة، وينبغي أنْ يمرَّ على دوْرات متعدِّدة روحيَّة وعلميَّة ليكمل نضجه سواء كان رجلاً أو امرأة، طفلاً وشاباً، وشيخاً، وينبغي أن توجد حلقات للنساء والأطفال والكبار، والكتب المناسبة لكلٍّ، ويُلاحظ في تربية الأطفال قضية تأهيلهم لمرحلة ما بعد البلوغ، جسماً، وعقلاً، وقلباً، وروحاً، حرفة وعملاً، وأنْ يُدرَّبوا على أعمال الفروسيَّة، وأخلاقها، وبعض ألعاب القوَّة، وعلينا أنْ نلاحظ أنَّ قوَّة الحافظة عند الطفل كبيرة، ومِن ثَم فعلينا أنْ نحفِّظهم كثيراً مِن كتاب الله، وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن الآداب الخاصة والعامة، وأنْ نعلِّقهم بالذكر والعلْم.

---

(١) جند الله تخطيطاً وتنظيماً، مخطوط، سعيد حوى.

المبحث الرابع

إيجاد المربين واجب كفائي على الدولة والأمة

المطلب الأول: التربية حاجةٌ وضرورةٌ للدولة والأفراد

أمر الله تعالى العالمين بالكتاب والهدى أن يعلموه لغيرهم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وحذر النبي ﷺ من كتمان العلم، «من كتم علماً ألجم بلجام من نار»، وبين النبي ﷺ أن من واجب المسلمين في كل بلد أو قرية أن يكون هداة ومعلمين ومرشدين لبعضهم، حتى يشيع الحق والخير والهدى، فقال ﷺ : «لَيُفَقِّهُنَّ أقوامٌ جيرانَهم وليُعَلِّمُنَّهم، أو لأُعاجِلَنَّهم العقوبة»، والفقه هنا بمعنى الأعم الذي يشمل معرفة الدين عقيدة وفقهاً وسلوكاً وتزكية.

وإذا كان التربية هي حاجة الأفراد والجماعات والمجتمعات والبشرية، والحكام والمحكومين، وإذا كانت التربية هي التي تحفظ أمن البلاد والعباد والدولة، وإذا كانت تزكية رجال الدولة والأمن والجيش هي التي تحفظه من الهزيمة وبيع البلاد وإفشال تقدمها،

فالواجب إيجادُ مصلحين ومربين، وإعدادُهم، بالعدد الكافي، ليقوموا بهذه المهمة الشريفة المهمة.

والواجب تيسير مهمتهم الإصلاحية في المجتمع والدولة ومرافقها ومدارسها ومساجدها، حتى يظهر أثرهم العظيم.

وذلك من فروض الكفاية الواجبة على الأمة، والتي يجب أن تقوم بها الدولة، ويتعاون معها مكونات المجتمع من عشائر وجماعات وأحزاب وأفراد،

فالدين والتربية لا تختص بحزب دون حزب ولا بجماعة دون جماعة ولا بعشير دون عشيرة، لذلك يجب على الجميع أن يهتم بهذا الجانب، ويرعاه، ويقوم بحقه، ويستفيد منه، وذلك سبيل نجاح الدولة وأحزابها وجماعاتها وعشائرها، وسبيل عزتها وتقدمها وجمالها.

قال الدكتور صلاح أبو الحاج: «فالعمل السياسي الحزبي لا ينبغي أن يكون طبياً أو هندسياً أو دينياً بحيث يحسب هذا الحزب على نوع منها؛ لأن هذه العلوم تمثل قواعد المجتمع الأساسية التي لا يجوز لحزب أن يخالفها؛ لأن الطب والهندسة والدين وغيرها من العلوم لكلِّ المجتمع وليست خاصة بفئة منهم رفعت شعاراً واحداً منها لأحد هذه العلوم ؛ لأنه لا غنى لأحد عن هذه العلوم...

وكل الأحزاب ترجع للأطباء والمهندسين وغيرهم من المختصين فيما يتعلق بمجالاتهم عند رسمهم خططها، فكذلك ينبغي أن تبقى المرجعية للعلماء والفقهاء من قبل جميع الأحزاب يحتكمون لرأيهم الشرعي فيما يخططون ويرسمون، بل ينبغي للدولة في تشريعاتها للأحزاب أن تشترط في تكوين كلّ منهم لجنة من الفقهاء؛ لضمان موافقة تصرفات الحزب لقانون الدولة الفقهي.

ومن الخطأ الكبير أن يكون الشرعيون حزباً لوحدهم ينافسون الأحزاب الأخرى، فنقسم المجتمع إلى متدين وغير متدين، بل يجب أن يبقى الدِّين للكلّ، ويكون الشّرعيين مساندين ومساعدين ومراقبين لجميع أطياف المجتمع بما فيها الأحزاب السِّياسية؛ لأنه لا غنى لأحد في المجتمع عنهم، فرتبتهم ومكانتهم أعلى وأرفع من التحزّب في ناحية أو طرف؛ لأن طريقهم الإصلاح - بحسب الاستطاعة - لكلِّ أحد»[1].

المطلب الثاني: إعداد المربين فرض كفاية

أولاً: إن إيجاد المصلحين المربين المرشدين في أي دولة هو من فروض الكفاية، وهو من واجبات الدولة:

كما هو واجب الدولة نحو التعبئة المعنوية.

كما هو واجبها نحو إيجاد قضاة ومفتين لكل ناحية ومنطقة ومدينة وقرية.

كما هو واجبها في تعيين إمام وخطيب ومدرس لكل مسجد.

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، صفحة ٢٣٠-٢٣١.

كما هو واجبها في تعيين مدرسين في مدرسة.

كما هو واجبها في إيجاد الثقافة والتعليم المناسب والصحيح.

كما هو واجبها في تهيئة رجال للسياسة والاقتصاد.

كما هو واجبها في تدريب جنود وضباط في الجيش والأمن، وإيجاد جيش يحمي الأمة.

كما هو واجبها في فتح تخصصات جامعية تخدم حاجة المجتمع في الطب والهندسة والكيمياء وسائر العلوم والفنون والتخصصات والمهارات.

فمن أوجب ما يجب أن تهتم به **إعداد المربين،** وتعيين المرشدين والمصلحين في كل موقع.

ويمكن أن يكون ذلك ضمن تخصص الشريعة في الجامعات، لكن ذلك يجب أن يضاف لأجله مساقات تعليمية، أو يفرد بتخصص خاص، وأن يكون معه تطبيق عملي ومنهج سلوكي، يترقى من خلال الطالب، فيكون متحققاً بالمنهج التعليمي الذي يدرسه.

ويجب على الدولة أن تضع لذلك الخطط العلمية والعملية التي تحقق ذلك، وتعمل لإنجاحها وتسعى لتطبيقها، حتى تحقق أهدافها في إيجاد ثلة من المربين المصلحين، الذين يكونون مرجعاً للشعب كلِّه، وهداةً فيه، ومَناراتٍ يلجؤون إليها.

إن من أهم الجوانب التي يجب أن تعتني الدولة بها ويتابعها الحاكم بنفسه « **الجانب التربوي**؛ ويهتمّ بتزكية النَّفس وتهذيبها وتحليتها بالأخلاق الفضيلة، وتنقيتها من الأفعال الرَّذيلة، وتنمية الإخلاص لله ﷻ فيها ...

إن هذا الجانب ينبغي أن يكون اهتمام الدول الأول؛ لأنّ فيه الارتقاء بسلوك بني آدم وتحسينه وتهذيبه، مما يكون له الأثرُ البالغُ على زيادة الانتاج ونمو الاقتصاد والتَّخلُّص من الفساد الأخلاقي والاجتماعي والوظيفي والسِّياسي، ويَنهض بالمجتمع في كافة ميادين الحياة؛ لأنه يخرج كامل طاقة النفس بعد تنقيتها، ويوجهها في مقصدها لتحقيق غايتها في رفعة الأمم.

وهذا يشمل كافة طبقات المجتمعات صغيرها وكبيرها، رجلها وامرأتها، عامها ومسؤولها، حاكمها ومحكومها، فالكل مهتم بتهذيب نفسه، وهي وظيفته الأولى؛ لأنه إن حسنت حسنت باقي الوظائف والمسؤوليات.

وإن أكثر المعاناة في زماننا راجعة لإهمال هذا الجانب التربوي العظيم، فعاش الفرد والمجتمع في ظنك شديد، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس:١٠]، ففلاحنا في حياتنا الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية بقدر التزكية والتنقية لأنفسنا ...

وهذا المبحث مرتبطٌ به صلاحُ الحاكم واستقامةُ أمره، ويتعلَّق به صلاح أمر حاشيته ووزرائه وشعبه؛ لأن بصلاح السلطة يصلح أمر الرعية وبالعكس، ولذلك علينا أن نجعله من أهم مباحث السياسة الشرعية كما فعله سلفنا وخلفنا، حيث اهتموا به كثيراً، فكان لهم ما كان من الرفعة، ولما أهملناه وصل بنا الأمر إلى ما وصل من الذِّلة والمهانة»[1].

ثانياً: من هو المربي الذي نريد:

قال والدي رحمه الله: « إن نجاح العمل التعليمي التربوي الروحي يتوقف على وجود العالم العامل الوارث الحكيم الزاهد، وذلك هو الرباني ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب بما كنتم تدرسون ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والنجاح الذي يحققه الولي المرشد لا يحققه غيره؛ ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ [الكهف: ١٧].

ووجود طائفة الأولياء المرشدين في كل دائرة سكانية، بحيث يُغَطُّون احتياجات هذه الدائرة، من التفقُّه والتذكير مطلب إسلامي كبير، قال تعالى: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ [التوبة: ١٢٢].

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، د. صلاح أبو الحاج، صفحة ٤٩-٥٢.

ولا نجاح في تجميع المسلمين على الحق إلا إذا وُجِدَ الأولياء المرشدين، لأن هؤلاء هم أولُ مَن يَدخل في صفة الصادقين الذين أمر الله بالكينونة معهم، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ [لقمان: ١٥].

ولا تلتقي القلوب على أحد إلا إذا ظهرت فيه الوراثة الكاملة، فظهرت السياسات النبويّة بالحِلْم و الرأفة واللين والحرص على المسلمين: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله اليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانْفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب: ٦] أي وهو أبوهم، ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّمْ حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات: ٧].

إن وجود الوارث الرباني المرشد هو نقطة البداية الصحيحة في إقامة العمل الإسلامي الراشد، وهذا يقتضى علماً وذكراً ومعرفة بالأهداف والمشكلات وخارطة العمل واستيعابها للنظريات التنظيمية، فإذا وُجِدَ ذلك فقد وُجِدَ الولي المرشد، ووُجِدَ بوجوده عمل إسلامي رشيد، وإلا فإن الثمرات معرَّضَةٌ للسقوط قبل أوانها، فالتطاحن الإداري والتنافس بين العاملين وتغير القلوب وظهور الأمراض؛ كل ذلك يمكن أن يكون.

ولكن مَن الذي يعطِي صفة الأستاذية لأهلها؟

فالحديث الشريف: (لا يقص على الناس إلا أمير أو مأمور أو متكلف) »[1].

ثالثاً: ولا بد لكل دولة أن تضع خطة لإعداد المربين والمصلحين، كما تضع خطة لإعداد القادة للمجتمع، وإلا فإن الأمة ستكون بلا تربية، أو سيقوم بذلك من ليس بأهل، فيكون تخريباً وإفساداً.

---

(١) جند الله تخطيطاً، صفحة ١١٠-١١١.

قال والدي رحمه الله: « إنك عندما تكلف إنساناً ما بمهمة ولم يكن مؤهَّلاً لها؛ فإنه يُخَرِّب أكثر مما يُعَمِّر، فإذا كانت هذه المهمة دعوة؛ فقد يضل من حيث يريد الهداية،... ومن ههنا كان التخطيط لتدريب القادة والدعاة واجباً رئيسياً من واجبات أي قيادة.

والدورات والحلقات والرحلات هي البيئة التي ينمو فيها الداعية، والتدريب والتكليف بالمهمات هو البيئة التي ينمو فيها القائد.

ولا بد أن تكون المادة العلمية التي يُعطاها الإنسان مؤثَّقة على مذاهب أهل السُّنَّة والجماعة الاعتقادية والفقهية والسلوكية، ولا بد أن تكون مادة التدريب والتكليف هي حصيلة تجربة صحيحة وحق »[1].

رابعاً: وكما على الدولة والأمة أن تعتني بإيجاد المربين، فعليها أن تضع الخطط لجعل كل إمام مربياً، وكل أب مربياً، وكل أم مربية، وكل مدرس مربياً، وهكذا كل مسؤول في مسؤوليته، بدءً من الحاكم إلى أدنى مسؤول، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته.

المطلب الثالث: واجب المتأهلين للتربية ووسائلهم في التربية

يجب على كل من تَأَهَّل للتربية أن يقوم بحق هذا الفرض من فروض الكفاية، وعليه أن يستعمل أدوات ذلك لإنجاحه.

قال والدي رحمه الله: «فروض الكفاية تشمل كل ما يحتاجه المسلمون لإقامة الدين أو الدنيا، وإذا تعين إنسان ما لفرض من فروض الكفاية أصبح في حقه فرض عَيْن، لا يصح عزله ولا اعتزاله، ولا تَنَكُّبُه عن القيام بهذه الفريضة...

ولن يستطيع هذا أفراد ولا جهة شعبية فقط، بل لا بد من تضافر جهود فردية وجَماعية وحكومية لتحقيق هذا كله...

وعلى العلماء والمُهْتَمِّين أن يقوموا بهذا الوجب، وعليهم أن يشجعوا كل عمل حكومي يساعد في تأدية ذلك، وعليهم أن يكملوها...

---

(١) جند الله تخطيطاً صفحة ١٤٢، تحت عنوان: في التخطيط لتدريب الدعاة والقادة.

ومما يجب أن يُهتَمَّ به لتحقيق الجانب التربوي في المجتمع المسلم؛ عدة أمور:

١. نشرُ الكتاب الإسلامي الموثق ـ سواء أكان كتاباً قديماً أو حديثاً ـ على أكبر قدر من المثقفين.

٢. المجالس التربوي في المساجد والبيوت، وإقامة دورات تربوية في المساجد والمدارس والجامعات والمؤسسات، وينبغي أن يكون في كل بلد إسلامي مسجد يكون مركزَ إشعاع وتربوي.

٣. إقامة المؤتمرات الإسلامية التي تخطط لهذا الأمر، وتنشر الوعي حوله، وتبحث عن كل ما يفيد في تحقيق هذا الأمر؛ من مناهج وأساليب ونشاطات ومؤلفات ومتخصصين.

٤. إيصال المنهج التربوي إلى كل مسلم، ولا سيما ما كان منه واجباً.

٥. التخطيط لإيجاد المسلم الكامل، المختصِّ بالتربية، وإيجادِ عددٍ منهم؛ يكفي لكل المسلمين وبلادِهم ومُدُنِهم وقُراهم.

٦. وضع المناهج اللازمة والمناسبة لذلك.

٧. تهيئة البيئة والظروف لتطبيق المنهج التربوي والتحققِ به.

٨. التعاون بين التدريس الحكومي والتدريس الشعبي، وبين التدريس المسجدي والتعليم البيتي، ليكون لكل ذلك اهتمامه التربوي، العلمي والعملي»[1].

المطلب الرابع: إيجاد المربيات وإعدادهن ضرورة وواجب

أولاً: يجب على الأمة والدولة أن تعتني بالجانب التربوي للنساء، بحيث تؤدي دورها في الحياة، فيجب « التركيزُ على أن المهمة الأولى للمرأة أنها زوجة وأم ورَبَّةُ بيت، وإعطاءُ هذه المعاني حقوقها.

والتجمعات النسائية التي يتولاها النساء أنفسهن هي الأجود في عصرنا.

والتجمعات النسائية التي تحضر فيها المرأة درس العلماء في المساجد أو في المراكز الإسلامية تأتي بالدرجة الثانية»[2].

---

(١) جند الله تخطيطاً، الشيخ سعيد حوى، صفحة ١٠٧ فما بعدها، بتصرف واختصار، تحت عنوان: في التخطيط التعليمي الثقافي التربوي.

(٢) جند الله تخطيطاً، صفحة ١٥٩.

«والملاحظ أن القُوَى المعادية للإسلام تركِّز على إفساد المرأة، فما لم تقم المرأة المسلمة بدورها في رَدِّ الهجمة المعادية؛ فإن أعمال الدعاة ستذهب هدراً، أو أنها تكون قاصرة.

إن الرجل بحاجة إلى زوجة تُنْجِبُ أطفالاً، وتُرَبِّي أطفالاً، فإذا تزوَّج الفاسدةَ أَفْسدَتْه وأفسدتْ ذُرِّيتَه.

وامرأة فاسدة واحدة قد تفتن خَلْقاً كثيراً، ولذلك ذكر رسول الله ﷺ أنه ما ترك فتنة أضر على الرجال من النساء ...

ينبغي أن نحاول مع المرأة أن ترتقي إلى عزائم التكليف، وفي الوقت نفسه أن نكون مستعدين للتعامل مع الحد الأدنى للتكليف، فالحد الأدنى من التكليف هو الذي يَسَعُ عصرَنا، فمثلاً هناك قولان للفقهاء في أن صوت المرأة عورة أو غير عورة، فعصرنا لا يسع إلا أن نتساهل فنأخذ بالقول الأدنى، وهو أن صوت المرأة ليس بعورة، ومَن أرادت أن تأخذ بالعزائم فذلك أولى لها، ولكن لا بد أن يكون عندنا استعداد للأخذ بالحد الأدنى من أقوال الفقهاء في تكليف المرأة، وهذا القدر هو الذي يسعنا في عصرنا ويجعل المرأة المتدينة قادرة على المحافظة على تدينها ومُنافَسَة المرأةِ الفاجرة في كثير من مجالات الحياة، فمثلاً أجاز فقهاء الحنفية للمرأة أن تكون قاضية في كثير من الشؤون، وإنما ضمن شروط العفاف والتحصن وعدم الخلوة بالرجال»[1].

ثانياً: وكما يجب العناية بإعداد مربين ومرشدين؛ فالحاجة أيضاً قائمة إلى إيجاد مربيات ومرشدات ومصلحات، بشكل أكبر، لافتقار مجتمعاتنا إلى المُرَبِّيات المرشدات كثيراً، وحتى لا تحتاجَ المرأة إلى رجل في تربيتها.

وإلى أن يوجد في مجتمعنا مرشدات ومصلحات بالعدد الكافي، فلا بد أن تكون العلاقة بين المربي والطالبة؛ علاقة نزيهة واضحة عفيفة ظاهرة، لا تفتح مجالاً لشبهة ولا لتهمة، ولا تترك مدخلاً لفتنة وانحراف وانزلاق، ولا تحوم حولها الشكوك، ولا تكون مثاراً للجدل[2].

---

(١) جند الله تخطيطاً، صفحة ١٥٩-١٦٠.

(٢) قال أبي رحمه الله في جند الله تخطيطاً صفحة ١٥٨: «فالعمل في صفوف النساء إذا لم يرافقه الورع والدقة فقد يكون مثاراً للجدل، وقد يكون مثاراً للفتنة، وقد يكون مجالاً للشبهة».

يحرص فيها الشيخ على النزاهة والتورع، مع الالتزام بالضوابط الشرعية، في أعلى معاييرها، ويتعامل بحذر، فليس في العلاقة خلوةٌ ولا اتصالاتٌ خاصة ولا مجاملات وعواطف، ويفضل أن يكون للنساء مجلس خاص تسأل فيه النساء عن شؤونها، ولا تكون المتابعات شخصية أو عبر وسائل الاتصال، ويفضل أن يكون مع الشيخ زوجته، وأن يكون التواصل معه عند الضرورة عبر الهاتف ووسائل الاتصال من خلال زوجته أو بنته.

وتحرص فيها الطالبة على عفته وحيائها، ولا تسمح بالتجاوز مهما كان، ولا تقبل الخلوة، ولا تتواصل تواصلاً خاصاً مباشراً مع الشيخ المربي، لتحميه وتحمي نفسها، ولتكون التربية في جو نظيف، لا تسمح للدجالين والفاجرين وأدعياء المشيخة أن يستغلوا ذلك للإفساد والاستدراج، وعندئذ سيكون ذلك مشجعاً لجميع نساء المجتمع وفتياته أن يمشين في طريق التربية، لما يَرَيْن مِن نفعِه وأثره وطهارته.

الوحدة الثالثة

المنهج التربوي الشرعي

مجالاته ومعالمه الأساسية

تمهيد:

التربية والتزكية والتصوف والإصلاح الشرعي يمتد إلى كل مجالات الحياة.

يبدأ من الفرد ويصل إلى البشرية جميعها، في جميع مناحي الحياة.

يبدأ من فكر الإنسان واعتقاداته وتصوراته العقلية، ثم يُصلِح قلبَه ويَهديه، ثم يُقَوِّم سلوكه وأعماله الجسدية، فهو يُوَلِّد العبادة ويَدفَع إلى أداء العبادات، وهو الذي يَحْجُز عن المعاصي ويَصْرِف عنها.

يُقَوِّم سلوك الإنسان، فيغرس في نفسه الأخلاق الممدوحة، ويطهره من الأخلاق المذمومة، ويصنع الآداب الحميدة في سلوكه؛ في خصوصياته وعلاقاته؛ في طعامه ونومه، في بيته ومسجده، في عمله وراحته، في كلامه وصمته، في معاملته الاجتماعية والمالية والسياسية

فإذا وجدت التربية في كل المستويات أثمرت إصلاحاً للفرد والمسؤول، وإصلاحاً للأسرة والمجتمع، وسعياً لإصلاح البشرية كلها.

ـ وإذا تحقق ذلك فقد صلحت علاقة العبد مع ربه، بحسن اعتقاده وسلامة قلبه وإقامة عبادته وترك معصيته

وصلحت علاقته مع الآخرين؛ مع أهله وقرابته وجيرانه، مع المجتمع، مع الحاكم والدولة، مع المسلمين، ومع الكافرين، كل ذلك له فيه قانون أخلاقي رباني، لا ينطلق من طمع، ولا يحركه غضب، ولا يحرق قلبه حسدٌ، بل يحب الخير، ويحسن إلى الناس جميعاً.

وصار الإنسان في سلام مع نفسه، فهو في باطنه وظاهره مرتاح، يؤدي ما هو مقتنع به، ويعمل بما هو حق، فيكون مطمئناً مهما كانت أحوال الحياة، قلبه في صفاء ونقاء، ونفسه في حياء وأدب ومروءة.

ـ وفيما يأتي من هذا الوحدة سنبين باختصار **مجالات** علم التربية والتزكية والإصلاح والتصوف، ونفصل خلال ذلك **معالم** التربية الكبرى، وهي الموضوعات الكبرى وأهم المسائل في منهج التربية والتزكية، و التي يعتني بها المربي أكثر من غيرها.

في هذا العلم عشرات الآلاف من المسائل، ترجع إلى مجالات أساسية، وبعضها متداخل ببعضها الآخر، وكلها يكمل بعضها.

فهذا العلم يبحث في الروح وفي القلب وفي العقل وفي النفس.

كما يبحث في الجانب التحققي من علم العقائد.

كما يبحث في الجانب القلبي المرتبط بقضايا الفقه.

وفي الجانب العملي التحققي بالكتاب والسنة.

كما يبحث في محاولة التحقق الكامل بحال رسول الله ﷺ وأصحابه وسَيْرِهم في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان والتقوى والشكر وغير ذلك.

وفي هذا العلم جانب نظري، وجانب عملي.

المبحث الأول

الروح والقلب

فأما **الروح**، فلا يتكلف أهل هذه العلم البحث عن ماهيتها، وإنما يحافظون على الروح طاهرة، بإبقاء القلب والجسد والأعمال طاهرةً، فتكون الروح في عبودية كاملة وخضوع لله، معترفة بالله رباً ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وأما **القلب**، ففي هذا العلم عناية كبيرة به، لأنه ورد ذكره في كتاب الله كثيراً، فبُينت أعماله وصفاته وحالاته الصحية والمَرَضِيَّة.

فمن الحالات المَرَضِيَّة:

قال تعالى: { فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور } [الحج: ٤٧]، فالقلب يعمى.

وقال تعالى: { ليجعل ما يلقي الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبُهُم } [الحج: ٥٣]، فالقلوب تقسو وتمرض.

وقال تعالى: { كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون } [المطففين: ١٥]، وقال تعالى: { ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة } [البقرة: ٨]، فالقلب يصيبه الختم ويكون عليه الران.

وقال تعالى: { أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم } [محمد: ١٧]، فهناك حالة يطبع الله بها على قلب صاحبها.

وقال تعالى: { أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى } [الحجرات: ٠٤]، فالقلب يمتحن كما يمتحن الجسد، وبالتالي فإنه يسقط أو ينجح.

وقال تعالى: { لهم قلوب لا يفقهون بها } [الأعراف: ١٧٩]، فهناك قلوب لا تعقل.

وقال تعالى: { واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه } [الأنفال: ٢٥]، فالإنسان يريد ولكن القلب لا يطاوع، ولذلك أسبابه.

وللقلب صفات وأعمال وحالات صحية، حدثنا عنها القرآن والسنة:

قال تعالى: { يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم } [الشعراء: ٨٧]، فالقلب وضعه الصحي الذي يكون به سليماً.

وقال تعالى: { ومن يؤمن بالله يهد قلبه } [التغابن: ١١]، فلا هداية لقلب إلا بالإيمان بالله.

وقال تعالى: ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فذلك قلب ذاكر مطمئن.

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣]، فذلك قلب راجع إلى الله، تائب ومعترف، ومستمد ومتوكل ومعتمد عليه، وراجع إلى أحكامه.

وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢]، فذلك قلب تقي.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فذلك قلب يخاف ويخشى، ويشفق على نفسه إلى أين مصيرها.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦]، فذلك قلب خاشع.

وقال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤]، فذلك قلب مخبت، فهو في غاية الإقرار والتسليم والخضوع والانكسار والتذلل لله.

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فهناك قلب مُنَوَّرٌ مُبْصِر مُنْشَرِح.

وقال تعالى: { قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى روحمة للمؤمنين } [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: { إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد } [ق: ٣٧]، وقال تعالى: { الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله } [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى {أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها} [محمد: ٢٥]، فهناك قلب في حالة شفاء، يتذكر ويتأثر ويتدبر، ويسمع ويشهد، وتلك من موازين صحة القلب التي نبهت إليها الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: « ألا وإن في الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب »(١).

وقال ﷺ: « تعرض الفتن على القلوب عوداً عوداً فأي قلب أشربها نُكِتتْ فيه نَكْتَةٌ سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مُجَخيّاً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه »(٢).

وقال ﷺ : « إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الكتاب وعلموا من السنة. يقول حذيفة: ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتنقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمر دحرجته على رجلك، فنفط فتراه منتبراً، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من إيمان »(٣).

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. والجَذْرُ: الأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْوَكْتُ: أَثَرُ الشَّيْءِ الْيَسِيرُ مِنْهُ، وَالْمَجْلُ: أَثَرُ الْعَمَلِ فِي الْكَفِّ إِذَا غَلُظَ.

وقال ﷺ: « أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ: قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَبَدَنًا عَلَى الْبَلاءِ صَابِرًا، وَزَوْجَةً لا تَبْغِيهِ خَوْنًا فِي نفسها ولا ماله »[1].

ـ إن من **أهم مجالات هذا العلم**: معرفة القلب، ما هي علامات صحته وسقمه، وما هي موازين استقامته وانحرافه، كيف يستنير، وكيف يظلم.

وأهل هذا العلم الذين عُرِفوا باسم التصوف هم المختصون بهذا وهم العالمون به، وهم المتحدثون حوله.

وهذا المجال من مجالات التربية والتصوف قد قَلَّ الحديث عنه، وكادت تموت التربية عليه، فكان على المربين في الأمة تجديدُ هذا العلم وإحياءُه، وقد ورد: أول علم يرفع من الناس الخشوع.

إن صلاح القلب أو مرضه يتوقف عليه خرابُ الدنيا والآخرة، أو عمارُهما.

وصلاح القلب يحتاج إلى علم وعمل وصحبة، يحتاج إلى ملاحظة الخواطر، ومراقبة الرغبات والنيات والإرادات في النفس، ويحتاج إلى صحبة للصالحين ومذاكرة مع المربين المختصين بذلك.

ومن المعالم الكبرى في تزكية القلب

اليقظة والإنابة إلى الله

والخروج من الغفلة والإعراض

إذا آمن الإنسان بالله وصفاته وعرف حقه عليه وعرف أن له هدفاً في الحياة ومقصداً خُلِقَ له؛ فإنه لا يمكن أن يتجاهل ذلك، ولا يمكن أن يعيش وكأن الإله الرب غير موجود، بل حياته كلها ينبغي أن يعيشها بحيث يحقق حق خالقه وربه وإلهه.

فإذا فهم الإنسان ذلك بدأ يتوجه نحو القيام بحق مولاه وبدأ يحرص على موافقة أمره وإرضائه، وهذا التوجه إلى ذلك هو يقظة الإنسان وانتباهه إلى ما هو مطلوب منه وإلى ما فيه خيره ومصلحته.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني، ١١١١١.

قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤].

وكلما قويت اليقظة كان صدق التوجه إلى الله وإلى طاعته وإلى السير نحو تزكية النفس أقوى وأثبت وأدوم بإذن الله، والله تعالى بشر أولئك المنيبين بالمغفرة والهداية، قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقال تعالى مبشراً المنيبين ومبيناً أهم صفة من صفاتهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، فشأن المنيبين إلى الله الصادقين أنهم يبحثون عن أحسن القول، وإذا سمعوا أقوالاً أخذوا بأعلاها وأحسنها وأقربها إلى الله تعالى وأرضاها له.

ـ من أسباب اليقظة:

لقد جعل الله تعالى من الأحداث والعقوبات ما يوقظ الإنسان وينبهه ويجعله يرجع إلى ربه وينيب، قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

كما جعل الله الحقائق والآيات الدالة عليها ـ في القرآن وفي الكون ـ سبيلاً إلى الرجوع والإنابة إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٤].

ـ وعلامة صدق الرجوع إلى الله؛ برجوع الإنسان إلى أحكام الله، ورغبته في الاحتكام إليها، وحرصه على معرفتها والعمل بها، والاعتماد على الله تعالى في تحقيقها.

ـ وقد يكون المسلم غافلاً على الرغم من صلاحٍ في ظاهر أمره، وذلك حينما يكون التزامه بالدين عن تقليد لبيئته ومسايرة لأهله، من غير أن ينتبه إلى صلاح قلبه مع صلاح عمله، قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالكم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعمالِكُمْ »(١).

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي رواية أخرى له: «إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسادِكْم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ».

ـ ومن لم ينتبه من غفلته؛ يعيش مشغولاً عن ربه، ملتهياً عن فرائض الله، يقع في المحرمات ولا يبالي، يعيش بلا غاية، ويبني حياته على شهواته وظنونه ويتبع هواه، وذلك يؤدي به إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا [1]﴾ [الكهف: ٢٨].

ومن لم يرجع إلى الله فسيرجع إلى هواه وأوهامه وشهواته أو إلى الشيطان أو إلى الطغاة الذي يدَّعون لأنفسهم حق التشريع من دون الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ [الزمر: ١٧]، والطاغوت هو كل من عبد من دون الله[2].

ـ والغافل يستولي عليه الشيطان بوساوسه وتوهيماته، فيستدرجه إلى الباطل والشر، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

وأخطر من الغفلة: **الإعراض**، وهو أن يدرك الإنسان الحق، ويطلع على ما يدعوه إلى اليقظة ومع ذلك يعرض ويدير قلبه ووجهه عن الحق، ويبقى على حاله من الفساد والباطل والشهوة والانحراف، قال سبحانه: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ** [3] مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ **ثُمَّ أَعْرَضَ** عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

ـ ومن أسوإ الإعراض أن يجعلك الله في موقف خطير وصعب يُخرجك فيه من الغفلة ويَضطرك فيه للإقبال عليه، فتُقبل عليه؛ ثم إذا خرجت من ذلك الموقف أعرضت وتجاهلت ما عَرَفْت، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ـ ومن أعرض عن الحق فقد كتب الله تعالى عليه التعب في الدنيا بالمشقة والإرهاق النفسي، كما كتب عليه العذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ **أَعْرَضَ** عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ **مَعِيشَةً ضَنكًا**

(١) الفرُط: المتروك أو المجاوز للحد، وهي إشارة لهلاكه.

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور: ج ١٥، ص ٩.

(٣) أي: لا أحد أظلم منه.

﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

قال الإمام الحداد رحمه الله[١]:

«**فصلٌ**: اعلم أنّ أوّل الطريق باعثٌ قويّ يُقذف في قلب العبد يُزعجه ويُقْلقه ويَحُثُّه على الإقبال على الله والدّارِ الآخرة، وعلى الإعراض عن الدُّنيا وعمّا الخَلْقُ مَشغولونَ به مِن عِمارَتِها وجَمعِها والتَّمَتُّع بشهواتِها والاغترارِ بِزخَارِفها.

وهذا الباعِثُ مِن جنود الله الباطِنة، وهو مِن نَفحاتِ العِناية وأعلامِ الهِدايَة، وكثيراً ما يُفتَح بِهِ على العبْدِ عِند التَخْويف والتّرغيب والتّشويق، وعِند النّظَرِ إلى أهل الله تعالى والنّظَرِ منهم، وقد يقعُ بِدون سببٍ...

ومَن أكرَمه الله بهذا الباعِث الشَّريف فَليَعرِف قَدرَهُ المُنيف، وَلْيَعلَم أنّهُ مِن أعظَم نِعَم الله تعَالى عليه التي لا يُقدَّرُ قَدرُها ولا يُبْلَغُ شُكرُها فَلْيُبالِغ في شُكر الله تعالى على ما منَحه وأوْلاهُ، وخصّه به مِن بين أشكالِه وأقرانِه، فَكم مِن مُسلمٍ بلَغَ عُمرُه ثمانين سنَةً وأكثر؛ لم يجد هذا الباعِث، ولم يطْرُقْهُ يوماً مِن الدّهر.

وعلى المُريد أن يجتهد في تَقْويَته وحِفظِه وإجابَته - أعني هذا الباعِث - فَتقوِيَته بالذّكر لله، والفِكر فيما عِند الله، والمُجالسة لأهل الله، وحِفظِه بالبُعد عَن مُجالسة المحجوبين والإعراضِ عَن وَسوَسة الشياطين، وإجابَتِهِ بأن يُبادر بالإنابة إلى الله تعالى، ويَصْدُقَ في الإقبالِ على الله، ولا يَتَوَانى ولا يُسوِّف ولا يَتَباطَأ ولا يُؤَخِّر، وقد أمكنَتْه الفُرصةُ فلْيَنتهِزها، وفُتِح له الباب فلْيَدخُل، ودَعاه الدّاعي فليُسرِع وَلْيحذَر مِن غدٍ بعد غدٍ، فإنّ ذلك مِن عمَل الشّيطان، ولْيُقْبِلْ ولا يَتَثَبَّطْ ولا يتَعلَّل بِعَدم الفَراغ وعدم الصّلاحِيّة... قال ابنُ عطاءِ الله في الحِكم: إحالَتُك العَمَل على وُجود الفراغِ مِن رُعوناتِ[٢] النّفوس».

(١) آداب سلوك المريد، صفحة ٤.

(٢) فلان أرعن: أي لا يحسن التصرف، يضيع مصالحه، ليس جاداً في أموره، وهو الأهوج الأحمق. انظر لسان العرب (رعن).

ومن المعالم الكبرى في تزكية القلب

الزهد

قال الإمام عبد الله الحداد[1]:

«**فصْلٌ**: وقد يُبتَلى المريدُ بالفقرِ والفاقةِ وضيقِ المعيشةِ؛ فينبغي له أن يشكرَ اللهَ على ذلك، ويَعُدَّه من أعظمِ النِّعمِ؛ لأن الدنيا عدوةُ الله يُقبلُ بها على أعدائه، ويصرفُها عن أوليائِه؛ فليحمدِ الله الذي شبَّهَه بأنبيائِه وأوليائِه وعباده الصالحين [2].

فلقد كان سيدُ المرسلين وخيرُ الخلقِ أجمعين محمدٌ ﷺ يربِطُ حجراً على بطنِه من الجوعِ[3]، وقد يمرُ شهران أو أكثرُ ما توقد في بيتِه نارٌ لطعامٍ ولا غيرِه، إنما يكون على التمرِ والماءِ، ونزل به ضيفٌ فأرسل إلى أبياتِه التسعِ فلم يوجد فيها ما يطعمُه الضيفَ.

ومات يومَ مات ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍ[4] في أَصوُعٍ من شعيرٍ، وليس في بيتِه ما يأكلُه ذو كبِدٍ غيرُ كَفٍّ من شعيرٍ.

فليكن قصدُك - أيها المريدُ - وهمتُك من الدنيا خِرقةً تسترُ بها عورتَك، ولقمةً تسدُ بها جَوعتَك من الحلالِ فقط.

وإياك والسمَّ القاتلَ، وهو أن تشتاقَ إلى التنَعُّمِ بالدنيا، وترغب في التَّمَتُّعِ بشهواتِها، وتغبِط المتنَعِّمِين بها من الناسِ، فسوف يُسألون عن نعيمها ويُحاسبون على ما أصابوه وتمتعوا به من شهواتِها.

---

(١) آداب سلوك المريد، عبدالله بن علوي الحداد الحضرمي الشافعي، صفحة ٢١.

(٢) قال تعالى: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، لو كانوا يعلمون﴾.

(٣) ورد في البخاري في حديث جابر حينما أطعم الصحابة من البرمة، ونصه: « وبطنه مَعْصُوب بحجر »، ولم يذكر ذلك في الحديث في رواية مسلم.

(٤) أخرجه البخاري عن عائشة ... مرهونة في ثلاثين صاعاً.

ولو أنك عرفت المشاقَّ التي يُقاسونَها، والغُصَصَ التي يتجرعونَها، والغمومَ والهمومَ التي في قلوبِهم، وصدورِهم في طلبِ الدنيا، وفي الحرص على تنميتها، والاعتناءِ بحفظِها؛ لكنت ترى ذلك يزيدُ بأضعافٍ كثيرةٍ على ما هم فيه من لذةِ التنعمِ بالدنيا؛ إن كانت ثَمَّ لذةٌ.

ويكفيك زاجراً عن محبةِ الدنيا، ومزهِّداً فيها قولُه تعالى: ﴿ ولولا أن يكون الناسُ أمةً واحدةً لجعلنا لمن يكفرُ بالرحمنِ لبيوتِهم سُقُفاً من فضةٍ ومعارجَ عليها يظهرونَ * ولبيوتِهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكِؤن* وزخرُفاً وإن كلُّ ذلك لَّما متاعُ الحياةِ الدنيا والآخرةُ عند ربكَ للمتقينَ ﴾، وقولُ رسولِ الله ﷺ: « الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ »(١)، « ولو كانت تزنُ عند الله جَناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شَربةَ ماءٍ »(٢)، وأنه سبحانه منذُ خلقها ما نظر إليها(٣) .

واعلم أن الرزقَ مقدَّرٌ ومقسومٌ فمن العبادِ من بُسِطَ له ووُسِّع عليه، ومنهم من ضُيِّق عليه وقُتِّر، حكمةً من الله.

فإن كنت - أيها المريدُ- من المُقَتَّرِ عليهم؛ فعليك بالصبرِ والرضا والقناعةِ بما قَسمَ لك ربُّك، وإن كنت من المُوسَّعِ عليهم ؛ فأَصِبْ كِفَايَتَكَ وَخُذ حاجَتَكَ مِمَّا في يَدِكَ، وَاصرِف مَا بَقِيَ في وُجُوهِ الخَيرِ وسُبُلِ البِرِّ.

وَاعلَم أَنَّهُ لا يَتَعَيَّنُ على الإنسانِ إذا أَرادَ الدُّخولَ في طَريقِ الله أَن يَخرُجَ مِن مَالِهِ؛ إِن كانَ لَهُ مَالٌ، أَو يَترُكَ حِرفَتَهُ وَتِجارَتَهُ؛ إِن كانَ مُحترِفاً أَو مُتَّجِراً، بَل الذَّي يَتعيَّنُ عليهِ تَقوى الله فِيما هُوَ فِيهِ، وَالإِجمالُ في الطَّلَبِ(٤)، بِحيثُ لا يَترُكُ فَريضَةً وَلا نَافِلةً، وَلا يَقعُ في مُحُرَّمٍ وَلا فُضُولٍ لا تَصلُحُ الاِستِعانَةُ بِهِ في طَريقِ الله.

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢٠ عن سهل بن سعد، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٣) حديث موضوع، لكن العبارة لها معنى صحيح، فإن الدنيا عند الله هينة وحقيرة ودار غرور وفناء.

(٤) قال رسول الله ﷺ: « ليس من عمل يقرب إلى الجنة؛ إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار؛ إلا قد نهيتكم عنه، لا يستبطئن أحد منكم رزقه، إن جبريل عليه السلام ألقى في رَوْعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله أيها الناس، وأجملوا في الطلب، فإن اسْتَبْطَأَ أحدٌ منكم رزقَه؛ فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا يُنالُ فضلُه بمعصية »

فإن عَلِمَ المُريدُ أَنَّهُ لا يَستقيمُ قَلبُهُ، وَلا يَسلَمُ دِينُهُ إلاَّ بِالتَّجَرُّدِ عَنِ المَالِ، وَعنِ الأَسبابِ البَتَّةَ لَزِمهُ ذَلكَ، فإن كانَ لَهُ أَزواجٌ أَو أَولادٌ تَجِبُ نَفقَتُهُم وَكِسوَتُهُم؛ لَزِمَهُ القِيامُ بِذلكَ وَالسَّعيَ لَهُ، فإن عَجِزَ عَن ذلكَ عَجزاً يَعذُرُهُ الشَّرعُ؛ فَقَد خَرَجَ مِنَ الحَرَجِ وَسَلِمَ مِنَ الإِثمِ.

وَاعلَم أَيُّها المُريدُ أَنَّكَ لا تَقدِرُ عَلى مُلازَمةِ الطَّاعاتِ وَمُجانَبةِ الشَّهواتِ والإِعراضِ عَنِ الدُّنيا؛ إلاَّ بِأَن تَستَشعِرَ في نَفسِكَ أَنَّ مُدَّةَ بَقائِكَ في الدُّنيا أَيَّامٌ قَلِيلةٌ، وأَنَّكَ عَمَّا قَرِيبٍ تَموتُ، فَتَنْصِبَ أَجَلَكَ بَينَ عَيْنَيْكَ، وَتَستَعِدَّ لِلمَوتِ وَتُقَدِّرَ نُزولَهُ بِكَ في كُلِّ وَقتٍ.

وَإِيَّاكَ وَطُولَ الأَمَلِ فإِنَّهُ يَميلُ بِكَ إِلى مَحَبَّةِ الدُّنيا، وَيُثَقِّلُ عَليكَ مُلازَمةَ الطَّاعاتِ، والإِقبالَ عَلَى العِبادَةِ، والتَّجَرُّدَ لِطَرِيقِ الآخِرةِ، وَفي تَقديرِ قُربِ المَوتِ وقِصَرِ المُدَّةِ الخَيرُ كُلُّهُ، فَعليكَ بِهِ، وَفَّقنَا الله وَإِيَّاكَ».

وقال الشيخ الحداد[1]: «وَأَخرِجْ مِن قَلبِكَ خَوفَ الفَقرِ وَتَوَقُّعِ الحاجَةِ إِلى النَّاسِ.

وَاحذَر كُلَّ الحَذَرِ مِنَ الاِهتِمامِ بِأَمرِ الرِّزقِ، وَكُن وَاثِقاً بِوَعدِ رَبِّكَ وَتَكَفُّلِهِ بِكَ، حَيثُ يَقولُ تَعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ وَأَنتَ مِن جُملَةِ الدَّوَابِّ، فَاشتَغِل بِمَا طَلَبَ مِنكَ مِنَ العَمَلِ لَهُ، عَمَّا ضَمِنَ لَكَ مِنَ الرِّزقِ؛ فَإِنَّ مَولاكَ لاَ يَنسَاكَ، وَقَد أَخبَرَكَ أَنَّ رِزقَكَ عِندَهُ، وَأَمَركَ بِطَلَبِهِ مِنهُ بِالعِبادَةِ.

فَقالَ تعَالَى: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾، أَمَا تَراهُ سُبحانَهُ يَرزُقُ الكافِرينَ بِهِ الَّذينَ يَعبُدونَ غَيرَهُ ؟ أَفَتَرَاهُ لَا يَرزُقُ المؤمِنينَ الَّذينَ لَا يَعبُدُونَ سِوَاهُ، وَيَرزُقُ العَاصِينَ لَهُ وَالمُخالِفِينَ لأمرِهِ؛ أَوَلَا يَرزُقُ المُطيعِينَ لَهُ، المُكثِرينَ مِن ذِكرِهِ وَشُكرِهِ ؟

وَاعلَم أَنَّهُ لا حَرجَ عَليكَ فِي طَلَبِ الرِّزقِ بِالحَرَكاتِ الظَّاهِرَةِ، عَلَى الوَجهِ المَأذونِ لَكَ فيهِ شَرعاً، وإِنَّما البَأسُ والحَرجُ فِي عَدَمِ سُكونِ القَلبِ واهتِمامِهِ وَاضطِرابِهِ وَمُتابَعتِهِ لأَوهامِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلى خَرابِ القَلبِ اهتِمامُ الإِنسانِ بِما يَحتاجُ إِليهِ فِي وَقتٍ لَمْ يَخرُج مِنَ العَدَمِ كَاليَومِ المُقبِلِ وَالشَّهرِ

حديث صحيح، أخرجه الحاكم رقم ٢١٣٦ عن عبد الله بن مسعود ﷺ. (رَوْعي): نفسي. (أَجْمِلوا): أي اطلبوه طلباً جميلاً، لا بالحرام، ولا بالهمّ والاستعجال.

(١) آداب سلوك المريد، صفحة ٢٥.

الآتي، وَقَولُهُ: إِذا نَفِذَ هَذا فَمِن أَين يَجيءُ غَيرُهُ، وإِذا لم يَجِئِ الرِّزقُ مِن هذَا الوَجهِ فَمِن أَيِّ وَجهٍ يَأتي؟

وَأَمَّا التَّجَرُّدُ عَنِ الأَسبابِ والدُّخولُ فِيها؛ فَهُمَا مَقامانِ يُقيمُ الله فِيهما مِن عِبادِهِ مَن يَشاءُ.

فَمَن أُقِيمَ في التَّجرُّدِ؛ فَعَليهِ بِقُوَّةِ اليَقينَ ، وَسَعَةِ الصَّدرِ، وَمُلازَمَةِ العِبادَةِ.

وَمَن أُقِيمَ في الأَسبابِ؛ فَعليهِ بِتَقوى الله في سَبَبِهِ، وَبالِاعتِمادِ علَى الله دونَهُ، وَلِيَحذَر مِنَ الاشتِغالِ بِهِ عَن طَاعةِ رَبِّهِ».

وإذا كانت القاعدة الأساسية أن الجوارح تبع للقلب، فإذا صلح صلحت، لكن أيضاً القلب يتأثر بالجوارح وأعمالها، فكان لا بد من إصلاح الأعمال ليبقى القلب سليماً، ومن شواهد ذلك قول النبي ﷺ : «ولا يستقيم قلب عبد حتى يستقيم لسانه»، فجعل الكلام مؤثراً على القلب، قال الشيخ عبد الله بن علوي الحداد رحمه الله[1]:

«واعلم أنّ السّمع والبصَرَ بابانِ مَفتوحانِ إلى القلبِ، يَصيرُ إليهِ كُلُّ ما يدخُلُ مِنهُما، وكم مِن شيءٍ يسمَعُهُ الإنسانُ أو يَراهُ مِمّا لا يَنبغي؛ يَصِلُ مِنهُ أثرٌ إلى القلبِ تَعْسُرُ إزالتُهُ عنهُ، فإنّ القلبَ سَريعُ التأثُّرِ بِكُلِّ ما يَرِدُ عليهِ، وإذا تأثّرَ بشيءٍ يَعسُرُ مَحوُهُ عنهُ، فَلْيكُنِ المُريدُ حريصاً على حِفظِ سمعِهِ وبصَرِهِ مُجتهداً في كفِّ جَميعِ جَوارِحِهِ عن الآثامِ والفُضولِ.

ولْيحذَرْ من النَّظرِ بِعَينِ الِاستحسانِ إلى زَهرةِ الدُّنيا وزينَتِها فإنّ ظاهِرَها فِتنةٌ، وباطِنَها عِبرَةٌ.

والعَينُ تَنظُرُ إلى ظاهِرِ فِتنَتِها والقلبُ يَنظُرُ إلى باطِنِ عِبرَتِها، وكم مِن مُريدٍ نَظَرَ إلى شيءٍ مِن زَخارِفِ الدُّنيا فَمَالَ بِقلبِهِ إلى مَحبَّتِها والسّعيِ في جَمعِها وعِمارَتِها، فيَنبغي لكَ أَيُّها المُريدُ أن تَغُضَّ بَصرَكِ عَن جَميعِ الكائِناتِ ولا تنظُرَ إلى شيءٍ مِنها إلا على قصدِ الِاعتبارِ، ومعناهُ أن تذكُرَ عِندَ النّظَرِ إليها أنَّها تَفنى وتَذهبُ وأنها قد كانَت مِن قَبلُ مَعدومةً، وأَنَّهُ كَم نَظَرَ إليها أحدٌ مِنَ الآدميِّينَ فذهَبَ وبَقِيَت هِيَ، وكَم تَوارَثها خَلفٌ عن سَلفٍ.

(١) آداب سلوك المريد، صفحة ١٠.

وإذا نظَرْتَ إلى الموجوداتِ فانظُر إليها نَظَر المُستدِلِّ بها على كَمالِ قُدرةِ مُوجِدِها وبارِئِها سُبحانَهُ».

وقال[1]: «وعلى المُريد أن يَحتَرِز مِن أصغَر الذنوب فضلاً عن أكبرها أشدّ مِن اِحترازِهِ مِن تَناولِ السُّم القاتِل، ويكونُ خوفُه لو ارْتكبَ شيئاً منها أعظمَ من خَوفه لو أكلَ السُّم، وذلكَ لأنّ المعاصي تعمل في القلوب عمَل السُّم في الأجسام، والقلبُ أعزُّ على المُؤمن مِن جِسمه بل رأس مالِ المُريد حِفظُ قلبه وعمارَتُهُ. والجِسمُ غرضٌ للآفاتِ وعمّا قريبٍ يُتلَفُ بِالموتِ، وليس في ذهابِهِ إلا مُفارقةُ الدُّنيا النَّكِدة النَّغِصة وأمّا القلبُ إن تلِف فقد تلِفت الآخِرة، فإنه لا ينجو مِن سخطِ الله ولا يفوزُ بِرِضوانه وثَوابه إلا مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ».

ومن ثمرات الزهد الاستقامة والاعتدال في موضوع الطعام واللباس والخلطة بالناس، ومن ثمراته العفةُ عن الشهوات وعن المال الحرام.

تكاليف القلب

الله تعالى كلفنا بأعمال وصفات وأحوال تتحلى بها قلوبُنا، وكلفنا أن تتخلى قلوبنا عن صفات، وهذه أهمها[2]:

ما طَلَبَ اللهُ التَّحَلِّيَ به: الإيمان، التقوى، التوبة، التواضع، التوكل، الخوف، الخشية، الزهد، العفة، الشكر، الصبر، الحلم، كظم الغيظ، الرفق، التفكر، المراقبة، المحاسبة، الفقر إلى الله، التبتل، الخشوع، الرضا عن الله وأحكامه، التفويض، الحياء، الإنابة، التورّع، الاستقامة، القناعة، الاعتصام بالله، الاتعاظ، محاربة الشيطان، اليقين، قصر الأمل، حسن الظن بالله، الحزن على ما فات من الطاعة، الفرح بفضل الله وبرحمته، محبة الطاعة والإيمان، كراهة الكفر والفسوق والعصيان، الحب لله ولرسوله ﷺ، الحب في الله، البغض في الله، مجاهدة النفس، الصدق، الإخلاص والنية الصالحة، الاستجابة لله، ابتغاء الآخرة، تعظيم الله تعالى، الرهبة، الرغبة،

---

(١) آداب سلوك المريد، صفحة ٦.

(٢) انظر كتاب فصول في الإمرة والأمير، سعيد حوى، بتصرف وحذف، وهو نقلها بتصرف عن كتاب بدائع السلك في طبائع الملك، لابن الأزرق.

الرجوع إلى الله ورسوله ﷺ عند التنازع، الإخبات، التسليم لأمر الله تعالى.

ما طلب الله التخلي منه: الكفر، الشرك، النفاق، الرياء، اتباع الهوى، حب الدنيا والركون إليها، حب الشهوات، الكبر، العجب، الغضب، الحقد، الحسد، حب الجاه المضرّ، حب المال، حب المدح، كراهة الذم، الطمع، الغرور، الغفلة، اتباع خطوات الشيطان، حب الظلم، التكلف، الأمن من مكر الله، اليأس من روح الله، القنوط من رحمة الله، الغلظة، الفظاظة، اتخاذ الكافر ولياً، احتقار المسلم، القسوة، خوف الفقر، التطير، طول الأمل، الطغيان، مدح النفس، حب الحمد بما لم يفعل، الترفع عن حكم الله، كراهة الموت، الاتكال على غير الله، التسويف بالتوبة.

المبحث الثاني

من مجالات التربية: تربية العقل وتزكيته

وأما **العقل**:

أولاً: هناك **عقلي تكليفي**، فلا يكون الإنسان مطالباً ولا محاسباً إلا بوجوده، وهو العقل الذي يصل إلى الحق والعقائد، ويميز بين الخير والشر، والحق والباطل، وإذا لم يوجد هذا العقل يكون الإنسان مجنوناً.

وهناك **عقل شرعي**، مرتبط بقبول الإنسان للحق، وخضوع قلبه له، فمن لم يملك هذا العقل فهو لا يَعْقِل في ميزان الله، لأنه لم ينتفع من عقله، قال تعالى: { وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير } [الملك: ١١].

إن الاهتمام بالعقل من مجالات علم التربية، فيدرس فيه:

كيف نستعمل عقولنا، وكيف نتوصل بها إلى الحق، والحقائق الكبرى في الوجود، وهي معرفة وجود الله وصفاته، ومعرفة النبوة وأدلتها، والآخرة، وغيرها من أصول العقائد، قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا** ﴾ [النساء: ١٣٦].

ويُدرَس في علم التربية والتزكية: كيف نُطَوِّعُ قلوبَنا لِتُتابع الحقَّ الذي عرفته عقولنا، وكيف نُلْزِم جوارحنا أن تعمل بمقتضى ذلك، فلا تخالف ما تراه حقاً، كيف نجعل الإرادة القلبية تبعاً للعقل والحق والاعتقاد السليم، وكيف نخالف النفس الأمارة بالسوء، حتى يستعصي القلب على الشهوات والرغبات الفاسدة، وكيف نرتقي بعقولنا وأفكارنا لتسيطر على حالات القلب وتضبط سلوكيات الجسد على أمر الله.

إن المهمة الأساسية للعقل هي التفكير أو التفكر للوصول إلى العلم: قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨]، ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿ وَأَنزَلۡنَآ

إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

والتفكر: هو نظر العقل في الأدلة بترتيب أمور معلومة في الذهن ليصل من خلالها إلى علم أمر مجهول عنده[1].

والمسلم يستعمل العقل في التعقل والنظر والتفكر والتدبر والتذكر والتفهم والفقه، وكلما استعمل عقله في هذه الأمور كانت معارفه أكثر.

ولن ينتفع الإنسان من عقله ما لم يرغب بمعرفة الحق ويتوجه إلى طلبه، وحرصك على الحق، وطلبك الهداية إليه؛ سبب في أن يهديك الله أكثر، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، فمن بذل الهداية التي يستطيعها أعطاه الله من الهداية مزيداً.

والهداية تأتي في القرآن الكريم بمعاني متعددة[2]، أحدها أنها تأتي بمعنى هداية العقل وإعطائه القدرة على معرفة الحق والبحث عنه، فوُصول العقل إلى الحقائق هداية[3].

ـ **ولا ينبغي للعاقل أن يضيع عقله** بالخمر والمُسْكِرات والمخدِّرات، فيفقد طريق الحق، قال تعالى:

---

(١) عرف الجرجاني الفكر بأنه «تصرف القلب بالنظر في الدليل»، التعريفات: ص ٧٦، رقم ٣٤٢، وعرفه في موضع آخر بأنه: «ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول»، التعريفات: ص ٢١٧، رقم ١١٠١.

(٢) قال الراغب في مفردات القرآن، ص ٥٣٨: «وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه: **الأول**: الهداية التي عَمَّ بجنسها كل مكلف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، التي أَعَمَّ منها كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ فيه حسب احتماله، كما قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. **الثاني**: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة: ٢٤]. **الثالث**: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. **الرابع**: الهداية في الآخرة إلى الجنة، المعني بقوله: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٥] ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].
وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث».

(٣) قال الجرجاني في التعريفات: ص ٣١٩، رقم ١٥٨٣: «الهداية: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب». وقال الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٣٨: «الهداية دلالة بلطف».

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، فالله تعالى لم يقبل لنا شيئاً يذهب عقولنا ويغيبها، إذ بقاؤها سبب في بقاء الهداية، ومن رضي بزوالها فقد رضي بالباطل والانحراف عن الحق.

ثانياً: علم التربية والتزكية يعلم الإنسان أن يستعمل العوامل المعينة للعقل ليعرف الحق:

ومنها: **نظر العقل في الآيات الكونية والآيات القرآنية، ودلالاتها:** قال سبحانه: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] فيؤديهم التفكر إلى الاستسلام للحق: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد يتعرف عقل الإنسان على ربه من خلال آيات القرآن الكريم، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور: ٦١].

ومنها: **خضوع العقل للمعجزات: قال تعالى:** ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

ومنها: **الرجوع إلى الوحي في معرفة الحقائق:** قال تعالى: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وإذا اطمأن الإنسان أن القرآن والسنة وحي من عند الله؛ فعندئذ لا يتساءل: لماذا جعل الله الصلوات خمساً، ولماذا جعل كل صلاة عدد ركعاتها كذا، ولماذا فرض الزكاة بمقدار كذا، ولماذا فرض الحجاب على النساء، ولماذا لم يأمر بتحرير كل العبيد، ولماذا أمر بالقتال على ما فيه من شدة، ولماذا أجاز للرجال زواج أربعة ولم يجز للمرأة إلا واحداً، ولماذا جعل الله ميراثاً للنساء، ولماذا جعل ميراث النساء نصف ما للرجال أحياناً، ولماذا حرم الربا، فالمؤمن لا يعترض على خالقه، ولا يتهم الله في حكمته، ويعلم أن الله من حقه أن يحكم ما يشاء.

ومنها: **الرجوع إلى الله تعالى الذي يملك العقول ويقدِر على هدايتها:** فالله سبحانه يملك العقل ويملك هدايته، ورجوع العقل إلى الله وإنابته إليه من أعظم الأسباب التي تعطي الهداية، قال تعالى: ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧]، ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى في الحديث

القدسي: «فاستهدوني أهدكم»(١).

ومنها: تَنَبُّه العقلِ عند الأحداث والبلايا التي توقظ العقل: جعل الله تعالى في هذا الكون وفي خلقنا من الأحداث والمواقف ما يوقظ العقل وينبهه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

ثالثاً: تزكية العقل بترك ما يمنعه من الوصول إلى الحق:

هناك أمور تبعد الإنسان عن استعمال عقله فلا يصل إلى الهداية والحق، ومنها:

التكذيب بالحق ورفضه والكفر به حينما يصل إليك أو تتوصل إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

الافتراء على الله: وهو تَعَمُّدُ الكذب وقَلْبُ الحقائق، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

ومن أشد الكذب والافتراء: **تحريف كلام الله،** قال تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

رفض حقيقة ثابتة واحدة سبب في ضلال العقل، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥].

الجهل واتباع الوهم وانحراف التفكير عن المنطق السليم، ومثال ذلك: ما فعله فرعون للتعرف على الله، فلم يطلب الدليل العلمي المنطقي الذي يدل على الغيب ويدل على وجود الله وصفاته من خلال فعله وآثار صفاته، وإنما طلب دليلاً مادياً بدل الدليل العقلي، والله لا يجوز أن يكون جسماً، فلا يجوز أن يُعرَف بالحس، ولا تكون الرؤية سبيلاً لذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

ترك العقل لقول الآخرين، تقليداً من غير بحث عن الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٧، جزء من حديث.

ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال سبحانه: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٤].

تلقي إلقاءات الشياطين ووساوسهم وتشكيكاتهم التي تدعو إلى الكفر، قال تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن **يُضِلَّهُمۡ** ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا **شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ** وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ **خُطُوَٰتِ** ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الغفلة عن استعمال العقل وعن طلب الحقائق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ **هُمۡ أَضَلُّۚ** أُوْلَٰٓئِكَ **هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

هذه هي الغفلة العقلية، وقد يكون الإنسان عارفاً بالحق لكنه يتغافل عنه ولا يذكره، فهذا غافل القلب، وكثيراً ما تنشأ الغفلة عن انشغال الإنسان بحاجاته الجسدية وغرائزه وشهواته ودنياه، مع التعلق بشهواتها، قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ **كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ** ﴾ [محمد: ١٢]، وقال: ﴿**أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ** ﴾ [التكاثر: ١]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨]

رابعاً: وجود فساد في القلب قد يؤدي إلى الكفر وعدم الهداية، وإلى عدم الانتفاع من الحقائق والعقائد، فلا يَكْفِي أن يعرف الإنسانُ الحقَّ، ويتوصل بعقله إليه، فقد يصل العقل إلى الحقائق ولا يستفيد، لمرض في قلبه، ومن ذلك :

ـ **الكِبْر: بترك الحق استكباراً على الله وعلى حكم الله،** قال تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وهذا المرض هو الذي جعل إبليس يعصي الله ويكفر به، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ **وَٱسۡتَكۡبَرَ** وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقر: ٣٤].

ومن صور الكبر التي تمنع الهداية؛ أن يشترط الإنسان شروطاً لا تحق له، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

ومن صور الكِبْر أن يطلب الإنسان من غيره من الناس أن يطيعوه في غير طاعة الله، فإنه ظالم يعطي لنفسه حقاً هو لله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

الظلم والإجرام، إذ يمتنع من الاعتراف بالله، ويمتنع عن إعطاء حق الله في أن يُعبد ويُطاع، فيكون ظالماً، قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ **ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٢-١٤].

اتباع الهوى، ومخالفة الشرع لما تهوى الأنفس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فبين أنهم لم يستجيبوا للحق بسبب الهوى، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ **وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ** وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

الحسد، وقد ضرب الله باليهود مثلاً على الحسد الموصل إلى الكفر، كانوا يعلمون أنه سيرسل نبيٌّ، ويعلمون صفاته، فلما جاء النبي محمداً ﷺ بالأوصاف التي يعلمونها؛ أنكروا ما يعلمون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وبين سبحانه أن ذلك راجع إلى مرض قلبي، فقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا **حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم** مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

بغض الله ورسوله ﷺ والمؤمنين أو كره شيء من دينه: فمن كَرِه الله وكره إرضاءه، ولم يُبالِ بغضب الله فقد فَقَدَ كل التزكية ولا قيمة لأعماله، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ **بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟** مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد: ٢٨].

ومن أحب الكافرين وأبغض المؤمنين فقد خرج عن الإيمان، فلا يهديه الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٥١]، والولاية والنصرة إنما تنشأ عن الحب القلبي، فلا بد من معالجة أسباب ذلك الحب وردها إلى الحق.

استحباب الدنيا، وذلك أن تصير الدنيا أعظم في قلب الإنسان من الله، وأهم من الآخرة، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ **ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ** ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨].

وقال رسول الله ﷺ: «يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1]، فالرغبة بمال بغير حق قد تصل بالإنسان إلى الكفر وولاء الكافرين.

قبول وساوس الشيطان والانخداع بغروره وأمانيه الباطلة:

إن من وظيفة الشيطان أن **يخدع** الإنسان **ويَغُرَّه ويُزين** له، فإذا فشل في **إقناع الإنسان بالباطل** أو **التشويش** عليه؛ فإنه لا ييأس من أن يزين له الباطل ويجمِّلَه له، ويوسوس للإنسان **بالتسويف** وتأخير التوبة، **ويغريه بالأماني** الكاذبة، **وينسيه** الحق ويشغله عنه بوساوسه، **ويخوفه** من الفقر لينشغل بالدنيا عن الآخرة.

كل ذلك يؤثر به على قلب الإنسان فيبعده عن الحق، ويضله ويصرفه عن خيره، والشيطان من خلال هذه الأمور يستطيع أن يوصل الإنسان إما إلى الكفر، وإما إلى المعصية والفسق.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، والغَرور الخادع هو الشيطان.

وقال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١١٨.

وقال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وعلم التربية يعتني بالتحصين من الشيطان ووساوسه، فمن ذلك:

١. أن يعلم الإنسان أن الشيطان عدو مبين، يتربص به الشر والسوء والإضلال، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

٢. أن ينتبه المسلم إلى خواطره، ويميز الخير والشر منها وفق علم الشريعة، فينكر الباطل والمعصية، ويمتنع عن العمل بها، كما قال النبي ﷺ: «**تعرض الفتن** على القلوب، عوداً عوداً كالحصير، فأي قلب أشربها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأي **قلب أنكرها** نكتت فيه نكتة بيضاء»[1].

٣. وكلَّما شعر المسلم بوسوسة من الشيطان؛ استعاذ بالله منه، ولجأ إلى الله لِيرُدَّ عنه كيد الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

٤. أكثر مداخل الشيطان إلى النفس إنما تدخل من شهوات النفس، فما كان للنفس فيه رغبة وشهوة؛ استطاع الشيطان أن يوسوس فيه ويزين، وأما ما كانت النفس تزهد فيه؛ فمهما وسوس الشيطان فيه فإن الإنسان لا يبالي بهذا الوسواس، ويستطيع أن يرده بسرعة وينصرف عنه، قال ابن عطاء الله السكندري: «أنت حر مما أنت منه آيس، وأنت عبد لما أنت فيه طامع، فمن زهد فيما سوى الله تحرر من الشيطان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٥].

٥. إذا جاء خاطر يُسَوِّف الخير والتوبة، فعلى المسلم أن يرفضه، وعليه أن يسارع في الخير والتوبة، ويعلم أن تأجيله إنما هو دعوة من عدوه، فلا يُطِعْه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٦. ما دام من أعمال الشيطان وأهدافه أن يدخل النسيان علينا، فعلينا أن نكون ذاكرين لله، ذاكرين

---

[1] أخرجه مسلم رقم ١٤٤ عن حذيفة ﷺ.

لأحكام الله، فنحرص أن نشغل قلوبنا وألسنتنا بذكر الله، ونحرص على الحضور والمراقبة، حتى لا ندع محلاً للشيطان، وبذلك يكون الذكر سبباً في الحفظ من الشيطان، كما أخبر النبي ﷺ، في الحديث الذي يخبر فيه عن خمسة أوامر أمر الله بها يحيى عليه الصلاة والسلام أن يأمر بها بني إسرائيل فكان منها: «وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ **الْعَبْدُ لاَ يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ اللهِ**»[1].

٧. يجب على المسلم أن يحذر من المعاصي لأنها تكون سبباً في تسلط الشيطان على الإنسان واستدراجه إلى مزيد من المعاصي والبعد عن الله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ** ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فمن أراد أن يكون محفوظاً من الشيطان فلا بد أن يكون بعيداً عن المعاصي.

٨. كثير من تزيين الشيطان وخداعه يدخل فيه إلى الإنسان من الجهل، فمن عرف حقائق الأمور وعرف أحكام الله؛ لم يكن من السهل على الشيطان أن يزين له وأن يخدعه، فاحرص على طلب العلم الذي أوجب الله علمه، فإن معصية الله قد تكون سبباً في فتنة الإنسان عن دينه، بأن يكفر أو يزداد عصياناً، قال الله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣].

خامساً: التربية والتزكية والتصوف تنقل العقائد إلى حال قلبي وسلوك عملي وذوق شعوري، وتحقق الإنسان بالمقامات القلبية السليمة:

« إن حضور العقائد في الذهن وتَذَكُّرَها والعمل على مقتضاها دائماً، يوصل إلى مقامات التزكية القلبية، ومنها:

– الإخلاص لله قائم على الحقيقة الآتية: حينما نعلم أن الله هو وحده الذي يستحق أن يعبد، وهو وحده الذي يستطيع أن ينفعنا أو يضرنا، فكيف نعمل عملاً نتوجه به لغير الإله المعبود بحق، وكيف نرجو بشيء من عملنا نفعاً ممن لا يملك النفع، فلا بد أن نتفانى في طاعة مولانا حتى لا يخطر في بالنا رياء لغيره، لأن مصالحنا كلها راجعة إلى الله.

– حب الله قائم على الحقيقة الآتية: الله تعالى هو المتصف بصفات الكمال والجمال، وهو المحسن المتفضل على جميع خلقه، فيجب أن نحبه لأجل ذلك، ولا بد أن نبني على حبه كل حب

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي في جامعه رقم ٢٨٦٣ وقال: حسن صحيح، وأخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٣٠ وابن خزيمة في صحيحه رقم ١٨٩٥ والحاكم في المستدرك رقم ١٥٣٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وكل علاقة؛ لأن مصالحنا ترجع إليه ومتوقفة على فضله، فعلاقتك الأهم هي التي يجب أن تكون أساس العلاقات الأخرى مع الخلق جميعاً، فنحب من أحب اللهُ ونواليه ونصاحبه، ونبغض من أبغض اللهُ ونتبرأ منه ونفارقه. وهذا يقتضي ذكرَه والحضور معه وتركَ معصيته.

– إن صفات الله تعالى وأسماءه هي من أعظم الحقائق التي يتوصل إليها العقل، ويدركها بنظره أو من خلال الوحي، والإيمان بها يشكل الأساس الأعظم لكل مقام قلبي من مقامات التزكية، تلك المقامات التي تظهر آثارها في عمل الإنسان، وقوله، وعبادته، وسلوكه، وخلقه، ومعاملاته.

فالإيمان بأن الله تعالى هو الملك، ويستحق أن يحكم في خلقه وعباده؛ يوجب معرفتنا بأحكام الله، ويوجب طاعتنا لله وعبادتنا له، وعدم معصيته.

والإيمان بأن الله تعالى هو الغفور والعفو والتواب والحليم؛ يقتضي التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى على الدوام والإنابة إليه.

والإيمان بأن الله تعالى هو العظيم، الجليل، الجبار، القهار، القادر على أن ينتقم ممن خالفه، يقتضي الذلة لله والخشية والخوف منه.

والإيمان بأن الله تعالى يعلم ما يفعل خلقه ويسمعهم ويبصرهم؛ يقتضي المراقبة والأدب مع الله، وأن لا نعصيه.

والإيمان بأن الله تعالى قادر على رحمة خلقه، ويعفو عنهم ويهبهم ويعطيهم؛ يقتضي الرجاء من الله، فهو الرحيم العفو الغفور الوهاب المعطي المغني.

والإيمان بحقيقة أن الله تعالى هو الوكيل والقادر والمهيمن والنافع والضار والمعطي والمانع والمغني والهادي؛ يقتضي التوكل على الله، والاعتماد عليه، والاستمداد منه وحده، وعدم الاعتماد على الأسباب.

والإيمان بأن الله تعالى هو الباقي الوارث؛ يقتضي الزهد في ما سواه من الدنيا والمال والشهوات والخلق؛ لأنهم إلى فناء، ويقتضي التعلق به وبما عنده، وأن لا نأخذ من الدنيا إلا قدر حاجتنا وحاجة من كلفنا الله به من: أهل، أو دعوة، أو جهاد، أو إقامة حكم الله، أو غير ذلك.

وهكذا فكل اسم من أسماء الله نعتقده ونقول به، يتطلب منا حالاً قلبياً يوافقه، ويؤثر في حياتنا ويوجهها، ويعطينا أوصافاً، نصير بها من أهل التزكية والصلاح، بقدر ما نعرف هذه الحقائق عن الله ونفهمها ونتذكر معناها»[1].

وكذلك إيمان المسلم بالرسول ﷺ، ومعرفته بالمعجزات الدالة على صدق الرسول وثبوت القرآن؛ تجعله حريصاً على العمل بالكتاب والسنة، والاقتداءِ برسول الله ﷺ والتخلقِ بأخلاقه والحبِّ له.

ومعرفة الإنسان بنفسه أنه ضعيف ذليل عاجز فقير، يجعله يخضع لله القوي العزيز القادر الغني، ويستمد منه سبحانه.

وإيمان المسلم بالدار الآخرة، وما فيها من قبر وحشر وجنة ونار؛ يجعله يتذكر الآخرة دائماً ويستعد لها، ويزهد في الدنيا ويرغب في الجنة ورضوان الله، ويوصله ذلك إلى الإخلاص فلا يعمل إلا عملاً يرضي الله وينفعه في آخرته، قال تعال: ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾، ولا يغتر بالدنيا، فكل نعيمها لا يساوي لحظة في الجنة، كما ورد في قول النبي ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس غمسة في النار، فيقال له: هل ذقت نعيماً قط، يقول: لا يا رب» رواه مسلم.

ومعارف المؤمن تجعله يتعامل مع الدنيا على أنها وسيلة واختبار، وهي هَيِّنَة وإلى انتهاء، فلا يغتر بها.

ـ **وقد بين والدي رحمه الله أنه في علم العقائد** عادةً تُعرَضُ مسائلُ الاعتقادِ وتُعرَض الأدلةُ عليها، ولا يشار إلى **الجانب الذوقي والعاطفي والشعوري والتحققي**، فمثلاً يُعرَض في علم العقائد أن الله عز وجل متصف بالسمع والبصر والكلام والإرادة والقدرة والحياة والعلم، ولكن أن يستشعر العبد أن الله يسمعه وأن الله يراه، وأن **يتذوق القلب** وهو يقرأ القرآن أن القرآنَ كلامُ الله، وأن يستشعر الإنسان أن كلَّ شيء مخلوقٍ هو أثرُ قدرةِ الله عز وجل.

---

[1] النظر العقلي وأثره في تزكية النفوس، معاذ سعيد حوى ، صفحة ٣٠٩-٣١٠، مجلة: إسلامية المعرفة، السنة الرابعة عشرة، العدد ٥٤، خريف ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

فمن مجالات علم التربية والتصوف كيف نوصل السالك إلى تذوق معاني العقيدة، وبعض ذلك يعتبر من الفرائض، وقد نبه النبي ﷺ إلى قضية التذوق لمعاني العقيدة، « ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً »[1]، « ثلاث من كن فيه وجد فيهن طعم الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار »[2]، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يستشعرون الآخرة، وكأنهم رأي عين، وحدث أنس أن المدينة أضاءت حينما دخلها النبي ﷺ، وأنهم أنكروا قلوبهم حينما توفي النبي ﷺ .

إن علم التصوف يتحدث عن الطريق العملي للتحقق باليقين والاطمئنان، وطرق التخلص من النفاق، ولا بد من صحبة المربي حتى يتحقق المسلم بذلك، قال تعالى: { قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم } [الحجرات: ١٤]، قد حذر النبي ﷺ ناساً من أن يكونوا ممن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه.

تجد إنساناً يحفظ صفات رسول الله ﷺ ولكنه بعيد عن الاقتداء به، وتجد إنساناً لا يعرف إلا القليل، ولكنه حريص على الاقتداء، وقد أخذ حظاً من **وراثة النبوة**، واتصف بالأمانة والتبليغ والصدق والفطانة، فمجرد العلم شيء، والتحقق أمر آخر، ينبغي أن نحرص عليه.

وجميع هذه الأذواق والشعوريات ينبغي أن تتوافق مع محكمات الكتاب والسنة، لا تخرج عنهما، ولا تناقضهما[3].

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٣) انظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى، صفحة ٥٢ -٥٦، باختصار، تحت موضوع: التصوف والجانب التحققي من علم العقائد.

المبحث الثالث

النفس ومجاهدتها

من مجالات علم التربية والتزكية والتصوف[1]، ومن معالِمِها المهمة: علاج النفس الفاجرة والأمارة بالسوء والمريضة، قال تعالى: ﴿فألهمها فجورها﴾، وقال سبحانه: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾، وقال عز وجل: ﴿في قلوبهم مرض﴾.

الروح بعد أن حَلَّتْ في الجسد وخالطته تسمى نَفْساً، وهذه المخالطة جعلت للجسد تأثيرات على الروح، وهذه التأثيرات سببها احتياجات الجسد في الأصل، لكن قد يطلب الجسد مطالب غير سوية، فيستخدم الروح في انحرافه وباطله وشهوته المحرمة وظلمه وأوهامه، فيسير الجسد بالروح إلى الهلاك والبوار، إذا لم تُضبطْ هذه النفس، وإذا لم يُصلَح القلب، ليمنع المطالب الفاسدة، ومن هنا كان لا بد من المجاهدة لهذه النفس، لتمنع الجسد من استخدام الروح في فسادها.

والروح عندما خالطت الجسد أصبح لها تطلعاتها النفسانية، ومن تطلعاتها الرغبة في الخلود الحسي أو المعنوي، وذلك الذي استغله الشيطان ليغوي آدم عليه السلام، قال تعالى: { هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى } [طه: ١٢١].

وقد جاءت شرائع الله عز وجل بمجاهدة هذه النفس حتى تستقيم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ونقطة البداية في إصلاح النفس عدم الرضا عنها وعن مطالبها الباطلة وأهوائها وميولها المخالفة لشرع الله، حتى لا تكون إلهاً من دون الله، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾، وقال سبحانه: { وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى } [النازعات: ٤١].

---

[1] انظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى، صفحة، تحت عنوان: النفس في علم التصوف، بتصرف.

قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم: «أصل كل معصية وشهوة غفلة؛ الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة؛ عدم الرضا عنها».

وأمراض النفس التي تحتاج إلى علاج ومجاهدة كثيرة، قال الإمام السُّلَمِيُّ: «وأما أخلاق النفس فمنها الكِبْر والعُجْب والفخر والخُيلاء والغِش والبُغض والحرص والأمل والحقد والحسد والضجر والجزع والهلع والطمع والجمع والمنع والجبن والجهل والكسل والبَذاء والجَفاء واتباع الهوى والازدراء والاستهزاء والتمني والترفع والحِدّة [أي الغضب والتسرع] والسَّفَه والطَّيْش والمِراء والتحكم والظلم والعداوة والمنازعة والمعاندة والمخالفة والمغالبة والمزاحمة والغيبة والبهتان والكذب والنميمة والتهويش وسوء الظن والمهاجرة واللؤم والوقاحة والغدر والخيانة والفجور والشماتة... إلى غير ذلك مما يكثر تعداده، فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها، والمجاهدة في تبديلها بأحسن منها، فمن لم يعرف ذلك لم يزدد مع مرور الأيام إلا إدباراً، فتبدل الكبر بالتواضع، والحدة بالتَّؤُدَة، والكذب بالصدق، وبالله التوفيق».

ومجاهدة النفس لا تقتصر على ترك المحرمات والمعاصي، بل تكون في احتمال أذى الخَلْق، وتكون في المباحات كالكلام والطعام واللباس والتزاوُر، بعدم التوسع فيها، وبالتزام الحدود الشرعية الواجبة والمسنونة فيها.

ومعرفة ذلك ومعرفة ما هي المجاهدة، وما هي حدودها وضوابطها، وما هي وسائلها المشروعة؟ ومتى تتحقق تزكية النفس، كل ذلك من أهم مجالات علم التربية، ومن أهم مباحث علم التزكية والتصوف.

وإذا خالف الإنسان عاداته وغَفَلاته لأجل ربه؛ فإن الله **يكرمه بقلب سليم وحال طيب وعلم لَدُنِّيٍّ وطمأنينة نفسية وسكينة قلبية،** فهذه المجاهدات هي سبب الهدايات، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:٦].

ومن جاهد عدوه ولم يجاهد نفسه؛ فهو يريد إصلاح غيره وإقامته على مراد الله، ولا يصلح نفسه، ولا يقيمها على مراد الله، قال ﷺ: « والمجاهد من جاهد نفسه في الله »[1].

والانضباط على أمر الله لا يعني أن يخرج الإنسان من شهوات نفسه كلِّها، فالإنسان مبتلى بهذه الشهوات، وقد أعطاه الشارع الكريم السبيل لتحقيق الشهوات المباحة، وفتح له منافذ للخلاص من الشهوات المحرمة، وهذا جزء من التربية، فالتربية تتفق مع الفطرة، ولا تُضادُّها، والتربية تهذب انحراف النفس برياضات ومجاهدات من خلال التَّحَكُّم بالغذاء والبعد عن مثيرات الشهوة وغير ذلك، كما تشغل النفس برسالتها وما ينفعها[2].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٦٢١، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٠٠٤ وابن حبان رقم ٤٨٦٢ والحاكم رقم ٢٤ بلفظ: «والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»، وفي رواية لابن حبان رقم ٤٦٢٤: «جاهد نفسه لله عز وجل».

(٢) انظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى.

المبحث الرابع

التكاليف العملية: العبادات

مقدمة في تكاليف الجوارح

من مجالات علم التربية والتصوف التي يعتني ببيانها: **تكاليف الجوارح**، وما أُمِرَتْ به من أعمال، وما نُهِيَتْ عنه من أعمال، كما يعتني بالسُّبُل الموصلة إلى التزام ذلك فعلاً وتركاً، ليحرص الطالب على العمل بما أُمِرَ بها، وترك ما نُهِيَ عنه.

وكثير من ذلك تبينه كتب الفقه، لكن كتب التزكية والتربية تتكلم عنه من جهة أثرِه في تزكية النفس وتطهيرها وقربها من الله، وضرورةِ الحرص على الالتزام بجميع أحكام الله في كل شيء.

وقد جمع بعض علماء التزكية أهم التكاليف التي تتعلق بالجوارح، وذكروا مع كل جارحة أهم تكاليفها[1]، مما طُلِبَ فِعلُه، ومما نهي عن فعله، فذكروا تكاليف اللسان والكلام، وتكاليف العينين والبصر، وتكاليف الأذنين والسمع، وتكاليف اليدين، وتكاليف الرجلين، وتكاليف الفرج، وتكاليف البطن، ونذكر هنا أهم الأوامر والنواهي:

الأوامر

الطهارة، الصلاة، الصيام، الحج، الزكاة، إطعام الطعام، سقي الماء، طلب الحلال، طلب العلم، الصحبة في الله، العزلة عن الفتنة، عمل الصالحات، السماحة في البيع، النكاح، العدل بين الزوجات، الضيافة، طلاقة الوجه، حفظ الأمانة، شكر المعروف، مواساة ذي القربى، إقالة النادم، الورع، الاقتصاد في الإنفاق، قيام الليل، الإقراض، سد الدين، قضاء الحوائج، إدخال السرور على المؤمنين، بناء المساجد، الاقتصاد في طلب الرزق، العتق، الصدقة، الهبة، الإعارة، كفالة اليتيم، السواك، الاستحداد، نتف الإبط، النظافة، الاقتصاد في اللباس، الحجاب للنساء.

النواهي

ترك الصلاة بلا عذر، إخراجها عن وقتها اختياراً، الصلاة إلى القبور، رفع المأموم رأسه من الركوع والسجود قبل الإمام، العبث والالتفات في الصلاة وكثرة الحركة، التغوط بالفضاء مستقبل القبلة

---

(1) انظر: كتاب فصول في الإمرة والأمير، للوالد سعيد حوى، نقلاً عن كتاب بدائع السلك وطبائع الملك، لابن الأزرق.

ومستدبرها، الفطر في رمضان بلا عذر، قبلة الصائم بشهوة، وصال الصائم، منع الزكاة عند وجوبها، ترك الحج مع القدرة، الدياثة على الأهل، القيادة على الأجنبية، السحر، الكهانة، التنجيم، ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كثرة الضحك بلا سبب، الضحك لخروج الريح، الهجر فوق ثلاث بلا عذر، الخلوة بالأجنبية، تمنع الزوجة عن زوجها بلا سبب، البيع على بيع أخيه والسوم والخطبة، ما لم يأذن فيه، بيع حاضر لباد، الاحتكار، كشف العورة بلا حاجة، الغش، الخديعة، الخلابة، بيع المسلم المصحف لكافر، سوء العشرة مع الوالدين والزوجة والصاحب، إذاية الجيران، إتْباع الصدقة بالمن والأذى، الخيانة والتجسس، تتبع عورات المسلمين، تشبه الرجل بالمرأة والعكس، الإلحاد في الحرم، ترك قراءة القرآن، نسيانه بلا عذر، سفر المرأة بلا زوج أو محرَم، التطاول في البنيان، التدابر، التباغض، فساد ذات البين، اقتناء الكلب بلا مسوغ شرعي، إخافة أهل المدينة المنورة، البصاق في المسجد، إضاعة الأهل، إضاعة المال، لباس الرجل للحرير، النوم على البطن، وصال السكوت، الحداد على ميت فوق ثلاثة أيام إلا للزوجة، تفضيل الوالد بعض أولاده على بعض في الهبة، تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة، ترك النار في البيت عند النوم، تعذيب الحيوان.

العبادات

ويقصد بها هنا **العبادات الخاصة** كقول الشهادتين والوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وتلاوة القرآن والذكر والدعاء والتفكر، وإلا فإن مفهوم العبادة يطلق على كل عمل وافق شرع الله بنية خالصة لله.

وهذه العبادات لا يمكن أن توجَد وتقوم إلا بعمل الجسد والجوارح، لذلك يسميها بعض المعاصرين: التزكيةُ العملية.

وعلم التربية والتزكية والتصوف لا يعتني بالعبادات من جهة أحكامها وفرائضها وشرائطها وسننها وهيئاتها، فذلك من علم الفقه، وإنما يعتني بعدة أمور:

١. بأهميتها وثوابها.

٢. والترغيب بها وبعث الهمة إلى القيام بها.

٣. وملإ الأوقات بها.

٤. والحث على أدائها على أحسن حال وأكمله فقهياً وأعظمه اتباعاً وثواباً.

٥. والتنبيه إلى مشاركة العقل والقلب فيها، بالحضور والتدبر والخشوع، بحيث لا تكون أشكالاً

ورسوماً، وإنما لها روح ومعنى ومقاصد.

٦. والتوجه بها إلى الله وحده، والتقرب بها إليه.

٧. واستحضار أسرارها، وتحقيقها عند أدائها.

المطلب الأول

اهتمام علم التربية بالعبادات

١. الأعمال الصالحة هي أهم وسائل التزكية العملية التي يعيش المسلم حياته معها، وبقدر ما يكثر منها بقدر ما يكون مزكياً لنفسه، وينعكس أثرها على سلوكه الأخلاقي والاجتماعي والسياسي وغير ذلك، بشرط أن يأتي بها على وجهها الذي شرعه الله ويخلص فيها لله.

ويهتم علماء التربية والتصوف بالوجه الباطن والأحكام القلبية التي ترافق العبادات، **فيبينون** أن الخشوع هو روح الصلاة، وأن الصلاةَ تذللٌ لله وعبوديةٌ، وأن فيها مناجاةً لله، وأن الصيام تجرد عن شهوات النفس.

٢. لكل عمل صالح أَمَرَنا الله به أو نَدَبَنا إليه أثرٌ في تزكية النفس وتصفيتها، فكل العبادات والطاعات تؤدي إلى الصلاح والتقوى، قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ٢١]، فهذه الآية تدل على أن العبادات جميعاً لها أثرها في إيجاد التقوى في النفوس.

ولكل عبادة أثرها الخاص، فالصلاة فيها ذكر وخضوع، والزكاة فيها إحسان وزهد، والصوم فيه مجاهدة للشهوات، والحج فيه ذكر وشكر واستسلام، والقرآن فيه علم وموعظة، والذكر فيه حضور وتعظيم، والتفكر فيه مراجعة للنفس ومحاسبة، والدعاء فيه تذلل وافتقار، والمسلم والسالك يحتاج إلى كل ذلك؛ ليكون صالحاً، كما يحتاج إلى طاعة الله في جانب المعاملات والأخلاق، وفيما يُصلِح أمر الأمة، والقيام بكل حكم شرعي له أثره الطيب ومشاركته في إصلاح النفس.

قال ابن عطاء الله مبيناً حكمة من حِكَم تعدد الطاعات وتنوعها في الشريعة وتحديد أوقات لبعضها: "لما علم الحق منك وجود الملل لون لك الطاعات، وعلم منك وجود الشَّرَهِ فحَجَرَها عليك في بعض الأوقات" كمنع الصلاة عند طلوع الشمس ومنع الصوم أيام العيد والتشريق.

وبين فضل الله علينا في أنه لم يوجب علينا من العبادات أكثر مما أوجبَ، فقال: "علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها" أي ثوابها وأنوارها.

٣. كل عمل صالح يطهر الإنسان من ذنوبه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود:

١١٤]، فوجود الحسنات سبب في طرد السيئات والتخلص منها، ذلك أن الإنسان حينما يحرص على الخير وينشغل به لا يبقى في قلبه وعمله مكان للشر، لذلك قيل: من لم تشغله الطاعة شغلته المعصية، فالنيّات الحسنة تطرد النيات السيئة، والعمل الصالح يطرد العمل الطالح، والخُلق الممدوح يطرد الخُلق المذموم، فإذا أردت أيها المسلم أن تزكي نفسك وتتخلص من شهوة وسيئة؛ فعليك أن تكثر من العمل الصالح، لتنال أنواره وبركته، حتى يقتلع أثر السيئة من قلبك ونفسك.

وكل عمل صالح يزيد الإنسان إقبالاً إلى العمل الصالح، كما أن كل معصية تزيد توجه الإنسان نحو المعاصي، فهذه سنة الله في عباده، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[الصف: ٥].

٤. الله تعالى هو الحاكم علينا، وقد حكم علينا أن نعمل أشياء وفرضها علينا، فلا بد لأحدنا أن يأتيها، ولا يجوز لنا أن نتأخر عنها، إلا حيث أجاز لنا تركها في عذر أو ضرورة أو نحوهما.

وجعل الله تعالى أعمالاً أخرى نوافل وزيادات على الفريضة، لا يعاقبنا على تقصيرنا فيها، ولكنه يسألنا عن الفرائض التي أوجبها علينا، فمن واجب المسلم أن يهتم بالفرائض ويحافظ عليها ويعتني بها أكثر من النوافل، ويَحذرَ من تركها أو التقصير فيها أو نسيانها.

وقد حذَّرنا النبي ﷺ من تضييع الفرائض، قال ﷺ: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، **وفرض لكم فرائض فلا تضيِّعوها**، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء غير نسيان من ربكم، ولكن رحمة منه لكم، فاقبلوها ولا تبحثوا فيها»[1].

وقد بيَّن الله لنا أن الفرائض مُقَدَّمَةٌ على غيرها وأحب إلى الله من النوافل، فالفرائض هي من أعظم ما نتقرب به إلى الله بعد الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، **وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[2]، بين هذا الحديث أن الفرائض والنوافل تورِث محبة الله وولايته وإكرامه، والله لا يحب إلا من زكت نفسه وطهرت.

---

(١) حديث حسن، أخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٧١١٤ عن أبي ثعلبة الخشني ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦١٣٧ عن أبي هريرة ﷺ، وتتمة الحديث: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مَساءَتَه» وانظر في شرحه: ابن حجر، فتح الباري: ١١/ ٣٤١.

كما بين الحديث أن أثر الفرائض في التزكية أكبر فهي الأحب إلى الله، ولا معنى للإتيان بالنوافل دون الإتيان بالفرائض، كمن يقوم الليل ولا يصلي الفجر أصلاً، فماذا ينفعه ذلك؟ ومن يفطر في رمضان بغير عذر ولا مرض؛ لم يعوض أجر هذا اليوم ولو صام الدهر كله[1].

ولما كانت الفريضة أهم وأعظم كان أجرها أعظم، فهي تتضمن أجر النافلة وزيادة قال النبي ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة؛ كان كقيام نصف ليلة، ومن صلى الفجر في جماعة؛ كان كقيام ليلة»[2].

فمن واجب المسلم طالب التزكية أن ينظم أعماله وعباداته بحيث يجعل اهتمامه بالنوافل من وراء الفرائض، ولا يغتر بكثرة النوافل وهو يقصِّر في الفرائض.

ومن مظاهر اهتمامنا بالفريضة:

أ. أن نتعلم أحكامها.

ب. وأن نحافظ عليها.

ج. وأن نُتقنها، بحيث نؤديها على وجهها الأحسن.

٥. لما كانت الفرائض مقدمة على النوافل عند الله فليس من الصدق ولا من التزكية أن يقدم الإنسان نافلة على فريضة، بل ليس من الصدق ولا من التزكية أن يقدم فرض الكفاية على فرض العين أيضاً.

أ. فلو أن مسلماً يجهل بعض أحكام الفقه التي تلزمه في عباداته والتي يجب عليه تعلُّمها؛ لو أنه اشتغل بتعلُّم القراءات العشر، لم يكن صادقاً، وواجبه أن يبدأ بفرض العين وهو تعلم تلك الأحكام، وعلم القراءات من الفروض الكفائية، فإذا وجد من يتقنه من المسلمين فقد سقط الفرض عن الباقين، فيكون تعلمه من باب المندوب، وسواء كان فَرْضَ كفايةٍ أو مندوباً فلا يجوز أن يقدَّم على فرض العين.

ب. ولو أن مسلماً اشتغل بالعلم الذي لا يجب عليه تعلمه، فتوسع في العلم ليكون عالماً، وهو يعلم أن قلبَه غيرُ سليمٍ ونفسَه تحتاج إلى تزكية، فإنه يكون بذلك غير صادق، ومن واجبه أن يبدأ بتزكية نفسه ويجتهد بالأعمال التي تطهِّر قلبَه ونفسَه، حتى لا يكون ممن قال الله فيهم: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ

---

(١) وقد روى البخاري في هذا المعنى حديثاً معلقاً؛ قال ابن حجر في فتح الباري ج: ٤ ص: ١٦١: «قوله: ويذكر عن أبي هريرة رَفَعَه: (مَن أفطر يوماً من رمضان بغير عذر ولا مرض؛ لم يَقْضِه صيامُ الدهر وإن صامه)، وصله أصحاب السنن الأربعة وصححه ابن خزيمة...» أقول: وليس معنى الحديث أنه لا يجب عليه قضاؤه، وإنما معناه أنه لو صام الدهر كله لم يحصِّل مِثْلَ أجر الفريضة حين أدائها في وقتها.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن عثمان بن عفان ﷺ رقم ١٤٧٣.

أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، ثم بعد أن يأخذ الحد الأدنى من التزكية والصلاح؛ إن شاء أن يزداد في العلم الذي ينفع به غيره فذلك واجب أو مندوب.

ج. ولو أن امرأة اشتغلت بحفظ القرآن أو بطلب العلم المندوب مما لا يجب عليها تعلمه وجوباً، وقدمت ذلك على طاعة زوجها وإعفافه؛ كانت مسيئة غير صادقة مع الله، أما إذا لم يكن متعارضاً مع طاعة الزوج وإعفافه فذلك طيب مندوب.

د. ولو أن وَلَداً كان يقرأ القرآن فطلبَه أحدُ والديه لقضاء حاجة لهما، وجب عليه أن يترك قراءة القرآن لأن بر الوالدين فرض، وقراءة القرآن إما أن تكون واجبة أو مندوبة، ويمكنه أن يعوِّضها في وقت آخر، فليس من التزكية أن يرفض طاعتهما بحجة أنه يقرأ القرآن.

هـ. ولو أن رجلاً حج حجة الفريضة، وكان غنياً فحدثته نفسه أن يحج حجاً مرفَّهاً بمبلغ كبير، وكان مِن حوله طالبُ علم شرعي لا يجد من ينفق عليه، أو فقيرٌ محتاج، أو مريض لا يملك علاجاً ودواءً، أو داعيةٌ إلى الله يحتاج إلى مال ليخرج به للدعوة، أو مجاهدٌ يحتاج إلى مال يستعين به على الجهاد، فليس من التزكية أن يحج وينفق المال الكثير، بل الواجب عليه أن يقدم تلك الأمور على حجة النافلة والإنفاق فيها.

٦. يمكن للإنسان أن يقتصر على الفرائض ويكون ناجياً عند الله بشرط أن يأتي بها على وجهها الكامل، عن طلحة بن عبيد الله يقول: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يُفْقَهُ ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع» قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان» قال: هل علي غيره؟ قال: «لا إلا أن تطوع» قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا إلا أن تطوع» قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**»[1].

ولا يفهم من هذا الحديث أنه يحث على الاقتصار على الفرائض، وإنما يبين أنها كافية وحدها للنجاة.

ولما كان الإنسان يُفَرِّطُ ويُقَصِّرُ في فرائضه، ويأتي بها على وجه دون الكمال المطلوب؛ كان لا بد مِن مُكَمِّلاتٍ لنواقصها، فشرع الله لنا السنن والنوافل لتكمِّلها، قال ﷺ: «أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، قال: يقول ربنا عز وجل للملائكة وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها، فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: **انظروا هل لعبدي من تطوع**، فإن كان له

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٦.

تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك»[1].

ولما كان الإنسان لا يضمن لنفسه قبول الأعمال فرائضِها ونوافلِها؛ كان لا بد أن يجتهد أقصى جهده ليحاول الوصول إلى رضا الله وجنته، عن عائشة رضي الله عنها زوجِ النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون؛ وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات[2].

ثم إن أحدنا لا ينبغي أن يركن إلى الاقتصار على الفرائض وترك المحرمات، فإنه ولو ترك المحرمات وأتى بالفرائض على وجهها الأكمل، أفلا يحب أن يكون عبداً شكوراً؟ ألا يحب أن يكون متقرباً إلى الله؟ ألا يحب أن يكون من أحباب الله وخاصة أوليائه؟ والنوافل بعد الفرائض هي سبب في محبة الله للعبد، كما بين الله تعالى في الحديث القدسي السابق.

فلا ينبغي لطالب التزكية أن يكتفي بالقليل في هدفه وعمله، ولا يسعى في تزكية نفسه ليحصِّل الزحزحةَ عن النار فحسب، بل يرغب أن يكون من أهل المقامات العالية والدرجات الأقرب ويرغب بالمعالي والأهداف السامية.

٧. لما كانت الطاعات من الفرائض والنوافل تحتاج إلى علم صار طلب علم الفقه الذي تُعرَف به الفرائض والنوافل؛ صار من الطاعات، وما كان من الطاعات فرضاً فتعلمه فرض، وما كان نفلاً فتعلمه نفل مندوب.

ومع عناية الصوفية وأهل التربية بالفرائض العينية والكفائية والنوافل، فإن لهم اهتماماً خاصاً بالصلاة وقيام الليل والذكر[3]، فهما من المعالم الأساسية الكبرى في التربية، ونبين فيما يأتي ذلك، وسيتضح

---

(١) أخرجه الحاكم رقم ٩٦٥، وصححه، وروى نحوه أحمد رقم ٩٤٩٠، والترمذي رقم ٤١٣ وقال: حسن غريب، وأبو داود رقم ٨٦٤، والنسائي رقم ٣٢٥، قال ابن عبد البر في التمهيد ج ٢٤ ص ٨١: «أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون ذلك، والله أعلم، فيمن سها عن فريضة، فلم يأت بها، أو لم يحسن ركوعها، ولم يَدْرِ قَدْرَ ذلك، وأما مَن تعمَّد تركَها أو نَسيَ ثم ذَكَرَها، فلم يأت بها عامداً، واشتغل بالتطوع عن أداء فرضه وهو ذاكر له؛ فلا تكمل له فريضته تلك من تطوعه، والله أعلم».

(٢) أخرجه الترمذي ٣١٧٥ وهذا لفظه، وأخرجه ابن ماجة والحاكم.

(٣) ذكر والدي رحمه الله في كتاب تربيتنا الروحية، أن بين الصلاة والأذكار تكاملاً، فلا ذكر بدون صلاة، والصلاة بدون أذكار يحيا بها القلب وترتقي بها الروح لا تكون خاشعة، والأذكار إذا لم تكن جزءاً من سير صحيح إلى الله عز وجل لا تؤدي الحكمة

من خلال ذلك لماذا اهتم أهل التربية بهما بشكل خاص.

المطلب الثاني

الصلاة وقيام الليل

مقدمة في أهمية الصلاة لتزكية النفس:

١. بين الله تعالى أن الصلاة تطهير النفس من الذنوب وتبعدها عن الوقوع فيها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٢. وبين أن الغاية من الصلاة أن يتذكر الإنسان فيها ربه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤].

٣. وبين النبي ﷺ أثر الصلاة في تزكية النفس وإصلاحها، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوَضوئه[1] وحاجته، فقال لي: سل[2]، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أوَ غيرَ ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأَعِنِّي على **نفسك** بكثرة السجود»[3]، قوله: «أَعِنِّي على نفسك» يشير إلى أن الصلاة والسجود تهذِّب النفس وتعين على إصلاحها.

٤. وقال ﷺ مبيناً أثر الصلاة في تطهير الإنسان من الذنوب: «أَرأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْراً بِباب أَحَدِكم يغْتَسِلُ مِنْه كُلَّ يَوْمٍ خَمْس مرَّاتٍ، هلْ يبْقى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ؟» قالُوا: لا يبْقَى مِنْ درنِهِ شَيْء، قَال: «فذلكَ مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ، يمْحُو الله بهِنَّ الخطَايا»[4].

٥. والصلاة من أخص صفات المؤمن ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ *.... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٩]، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

الكاملة منها، ومِن ثَمَّ ولِقِلَّة السير الحق إلى الله عز وجل ضاع علم الخشوع الذي ذكر رسول الله ﷺ أنه أول علم يرفع من الأرض، ومن ثم ندرك أهمية علم التصوف في الحياة الإسلامية عامة.

(١) الوَضوء: الماء الذي يُتَوَضَّأُ به.

(٢) أي اطلب مني ما تشاء.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٤٨٩، وفي رواية أخرى له: «أعني على ذلك».

(٤) أخرجه البخاري رقم ٥٠٥، ومسلم رقم ٦٦٧، واللفظ لمسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٦. وقد بين النبي ﷺ أن تارك الصلاة قريب من الكفر[١]، فقال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[٢]، ومن ترك شيئاً من الصلوات الخمس فيجب عليه أن يتوب ويقضي ما فاته[٣].

٧. ومن تهاون بالصلاة فسيكون أكثر تهاوناً بما دونها من الفرائض والنوافل والقربات، لذلك بين الله تعالى أن تارك الصلاة تجتمع فيه عدة صفات توجب له النار، أعاذنا الله منها، قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٦].

وبين النبي ﷺ أن فالصلاة مرآة لحالتك خارج صلاتك، وهي الميزان لتزكية نفسك، فاجعلها محل اهتمامك الأعظم، قال ﷺ: «أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاةُ، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله»[٤].

٨. ومع حرص المؤمن على أحكام الصلاة الظاهرة؛ ينبغي أن يهتم بالحضور والخشوع فهو أهم ما يعطي التزكية والعبودية والفلاح، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، وإنما يؤجر المصلي على قدر حضوره، فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليصلي الصلاة ولعله لا يكون له من صلاته إلا عُشْرها أو تُسعها أو ثُمنها أو سبعها أو سدسها ...»[٥].

والخشوع هو الذي يعطي الصلاة قيمتها ويحقق المقصد منها.

---

(١) والمعتمد في المذاهب الأربعة أنه يكون كافراً إذا أنكر فرض الصلاة، أما إذا اعترف بأنها فرض لكنه تهاون في أدائها وتكاسل عنها فإنه يكون فاسقاً، ويُسمَّى الفِسْقُ كُفْراً عملياً، ويمكن أن يفهم الحديث على ظاهره؛ بأنه إذا ترك الصلاة صار قريباً من الكفر، فمن ترك الصلاة يخشى عليه أن يصير كافراً.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٨٢ عن جابر رضي الله عنه.

(٣) وهو قول المذاهب الأربعة، فيجب عليه أن يقضي كل ما فاته ولو كان عدة سنوات، قدر استطاعته، وفي أقرب فرصة.

(٤) حديث حسن، أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ١٨٥٩ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) حديث صحيح، أخرجه أحمد ٤/ ٣١٩ وأبو داود رقم ٧٩٦ والنسائي رقم ٦١١ وابن حبان ١٨٨٩، عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

والصلوات المفروضة إذا كانت خاشعة فهي سبب في مغفرة الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «ما مِن امْرِيءٍ مُسْلِمٍ تحضُرُهُ صلاةٌ مَكتُوبةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، **وَخُشوعَهَا**، وَرُكُوعَها، إلاَّ كانت كَفَّارةً لما قَبْلَهَا مِنْ الذنُوبِ ما لم تُؤْتَ كَبِيرةٌ، وَذلكَ الدَّهْرَ كلَّهُ»[1].

والصلاة الخاشعة هي من أعظم أسباب دخول الجنة: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، **مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ**؛ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[2].

والحضور والخشوع يكونان في ثلاثة جوانب في الصلاة:

الأول: أن تتذكر أنك مع الله مقبل عليه ومتوجهٌ إليه، فإنك إنما تصلي إليه، فكيف تنسى من تقف بين يديه، قال تعالى: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال رسول الله ﷺ: «فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى»[3].

لو أنك كنت في زيارة ملك من ملوك الدنيا أتنسى وأنت واقف بين يديه أنك أمامه؟ فكيف تتجاهل ملك الملوك في صلاتك، وتنسى أنك تعبده وتكلمه وتتقرب إليه وتتذلل بين يديه.

والذي يكون حاضراً منتبهاً مع من يجالسه، قد يكون معظماً له متواضعاً له، وقد لا يكون، ومن كان حاضراً مع الله ينبغي أن يجمع إلى حضوره معنى الخشوع، بتعظيمه لقدر الله، وهيبته من الله، وتواضعه له، وحبه له.

ولا يتم الخشوعُ والحضورُ مع الله إلا بتفريغ القلب مما سوى الله، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، **وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لله**، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[4].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٢٨، عن عثمانَ بنِ عفان ﷺ.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ٢٣٤ عن عقبة بن عامر ﷺ .

(٣) أخرجه البخاري رقم ٣٩٨، عن ابن عمر ﷺ.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ٨٣٢، عن عَمْرو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ ﷺ، وقد ذكر النبي ﷺ قبل الصلاة إحسان الوضوء.

الثاني: تدبر ما تقول في الصلاة، فلا بد من الانتباه في الصلاة إلى معاني التكبير والقرآن الذي نقرؤه والتسبيح والتشهد وغير ذلك، وهذا من أعظم ما يعطي الحضور والخشوع.

فالصلاة مناجاة بين العبد وربه، فما نقرؤه وما نسبحه وتكبيرنا خطاب ومناجاة مع الله، قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه»(١).

وقد علمنا النبي ﷺ نموذجاً من هذه المناجاة فقال: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدَّني عبدي، وقال مرة: فوَّض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»(٢).

وإذا استعجل المسلم في صلاته فإنه لا يُحسِن الخشوع والتدبر، لذلك نهينا عن العجلة في الصلاة، وأُمِرْنا بإطالةُ القيام في الصلاة، قال النبي ﷺ: «أفضل الصلاة طول القنوت»(٣).

الثالث: استحضار معاني هيئات الصلاة، وذلك بتذكر معنى القيام بين يدي الله والركوع والسجود له والجلوس، فهذه الهيئات والأعمال لم يشرعها الله لنا عبثاً، وإنما لتذكرنا بخضوعنا لله وتذللنا بين يديه.

٩. من مظاهر الحرص على الصلاة التي تزيد المسلم تزكية وتطهيراً وأجراً وقرباً من الله:

ـ الحرص على **الوضوء** وإتقانه وإسباغه، فإنه «لا تقبل صلاة بغير طهور»(٤)، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات» قالوا:

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٩٧، وأخرج أحمد رقم ٥٣٤٩ «إن المصلي يناجي ربه عز وجل **فلينظر أحدكم بما يناجي ربه**» وبمعناه عند ابن خزيمة ٤٧٤.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٣٩٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٧٥٦ عن جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٢٤، عن ابن عمر رضي الله عنه، ونحوه عند أحمد في المسند ٢/ ١٩ رقم ٤٧٠٠ وابن حبان رقم ١٧٠٥.

بلى يا رسول الله، قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»(١).

وحسنُ الوضوء والحرصُ على السنن والذهابُ إلى المسجد وانتظارُ الصلاة؛ كلها أمور تمهد للخشوع في صلاة الفريضة، فيَسْكُنُ من خلالها الفكر والقلب، وينقطع ما كان يفكر به من أمر دنياه.

ـ الحرص على **صلاة الفريضة في وقتها، وأول وقتها**(٢).

ـ الحرص على **صلاة الجماعة**، فإنها أجمع للقلب وأخشع، وأبعد عن السرعة في أداء الصلاة، وأعظم أجراً، قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال رسولنا ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ(٣) بسبع وعشرين درجة»(٤).

ـ **صلاة الجمعة وخُطبتها**، فقد أمر الله بها في كتابه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩]، وقد حذرنا النبي ﷺ من التخلف عن الجمعة من غير عذر، فقال: «لينتهين أقوام عن وَدْعِهِم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونُنَّ من الغافلين»(٥).

ـ **صلاة ركعتين إذا دخل المسجد**، قال ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥١.

(٢) أخرج البخاري رقم ٥٠٤ ومسلم ٨٥ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال: حدثني بهن ولو استزدته لزادني. وروى ابن خزيمة رقم ٣٢٧ الحديث السابق بلفظ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة في أول وقتها»، وأخرج الترمذي رقم ١٧٠ وأبو داود رقم ٤٢٦ عن أم فروة وكانت ممن بايعت النبي ﷺ قالت: سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لأول وقتها».

(٣) أي الواحد منفرداً.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦١٩ ومسلم رقم ٦٥٠ عن ابن عمر ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٨٦٥ عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم.

ركعتين»[1].

ـ الحرص على **السنن الرواتب**، قال ﷺ: «من صلى في يوم ثنتي عشرة سجدة تطوعاً بني له بيت في الجنة»[2].

ـ **صلاة الوتر**، وقد عدَّها بعض العلماء واجبةً لكثرة ما شدد فيها النبي ﷺ ولحرصه عليها، وقد أمر بها النبي ﷺ، فقال: «أوتروا قبل أن تصبحوا»[3]، وقال رسول الله ﷺ: «من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل، فإن صلاة آخر الليل مشهودة، وذلك أفضل»[4].

ـ **صلاة الضحى**، وقد ندب إليها النبي ﷺ فقال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحدِكُمْ صَدَقَةٌ: فكُلُّ تَسْبِيحةٍ صدقَةٌ، وكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وكُلُّ تَكْبِيرةٍ صدقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالمعْرُوفِ صَدقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنكَرِ صدقَةٌ، وَيُجْزِيءُ مِنْ ذلكَ ركْعتَانِ يَرْكَعُهُما منَ الضُّحَى»[5].

ـ **قيام الليل**، وذلك يبدأ من بعد صلاة العشاء إلى أذان الفجر الثاني، قال ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى»[6].

وقد لازم النبي ﷺ القيام ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وحث النبي ﷺ كثيراً على قيام الليل، فقال: «وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[7].

وقال ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأْب الصالحين قبلكم، وهو قُرْبَةٌ إلى ربكم، ومَكْفَرَة

---

(١) أخرجه البخاري رقم ١١١٠ عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٧٢٨، عنْ أُمِّ المؤمِنِينَ أُمِّ حبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنتِ أَبِي سُفيانَ ﷺ زوج النبي ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٧٥٤ عن أبي سعيد ﷺ.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٧٥٥ عن جابر ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٧٢٠ عن أبي ذر ﷺ.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٩٤٦ عن عبد الله بن عمر ﷺ ونحوه مسلم رقم ٧٤٩.

(٧) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ رقم ١١٦٣.

للسيئات، ومَنْهاةٌ للإثم»[1].

وإنما كان لقيام الليل أهميته العظمى، لأن الإنسان يخلو فيه ـ في الغالب ـ عن الأعمال التي تشغله وتشغل فكره، كما يكون بعيداً عن الناس والخلطة بهم، وجَوُّ الليل والظلمة يساعد بطبيعته على الخشوع، لذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، فما تُنْشِئُه في الليل من العبادة هو أعظم أثراً وأجمل قولاً.

وقد تجد كثيراً منا يخشع في قيام الليل، ولا يخشع في صلاة الفريضة، وخشوعنا في صلاة الفريضة هو الأولى بالاهتمام، لأن الفريضة أعظم عند الله من النافلة، ولكن حرص الإنسان على قيام الليل والخشوع فيه مما يعلّم الإنسان الخشوع، فيساعده على الخشوع في الفريضة وغيرها.

فليكن لك شيء من القيام، ولو أن تصلي ركعتين قبل أن تنام، أو ركعتين قبل أذان الفجر، ثم حاول أن تُنَمِّي ذلك وتزيدَه، وتطيلَ الصلاة والقراءة، وتطيلَ السجود، وتُكثِرَ فيه من الدعاء مع التسبيح، وتعظِّم الله في الركوع.

ومن صَعُب عليه إطالة القيام والركوع، كما كان يفعل النبي ﷺ، فليكثر من الركعات، قال ﷺ: «اعلم أنك لن تسجد لله سجدة إلا رفع الله لك بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»[2].

وخير القيام ما كان في آخر الليل «يتنَزَّل[3] ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[4]، فاحرص على القيام في آخر الليل بالصلاة والدعاء والاستغفار والذكر، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وينبغي على طالب التزكية أن يحرص على قيام الليل، فلا يفوِّته مهما كان الأمر، فإن فاته لعذر حرص على تعويضه، فقد كان رسول الله ﷺ «إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره؛

---

(١) حديث صحيح، عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، أخرجه الترمذي رقم ٣٥٤٩ وابن خزيمة رقم ١١٣٥ والحاكم رقم ١١٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٢١٩٤، والنسائي في السنن الكبرى نحوه رقم ٨٦٩٨.

(٣) وفي رواية «ينزل».

(٤) أخرجه البخاري رقم ٧٠٥٦ ومسلم رقم ٧٥٨، عن أبي هريرة ﷺ.

صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة»[1].

فقد عامل النافلة معاملة الواجب، فكان يقضيها إذا فاتت، وهذا أمر مهم لأهل التزكية، لأن الإنسان ما لم يعامل نوافله معاملة الواجب؛ فإنه يتكاسل ويسوِّف، أما إذا حرص عليها كحرصه على الواجبات فإن النفس لا تحدثه بالتهاون فيها، ولا يجد الشيطان إليه سبيلاً، لما يعلم من حرصه عليها، فإنها لو فاتته فإنه يعوِّضها.

ـ **قيام ليلة القدر**، وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان من كل سنة، على قول جمهور العلماء، وقد بينت الأحاديث الصحيحة أنها في الوتر من الأيام العشرة الأخيرة من رمضان.

وقد حث الله تعالى على قيامها، إذ قال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] قال العلماء: أي العبادة فيها خير من عبادة ألف شهر، وقال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، وأهل التزكية يحرصون على مثل هذه الساعات المباركة، فإن آثارها كبيرة في تزكية النفس ومغفرة الذنوب وإقبال القلب على الله.

المطلب الثالث

ذكر الله

أهميته وأثره ودَوْرُه التربوي

الله تعالى أمرنا بالذكر الكثير، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، وأوصى ﷺ بعض أصحابه فقال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[2]، وكذلك كان فعل نبينا ﷺ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»[3].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٧٤٦ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٣٣٥٧ وقال: حسن غريب من هذا الوجه، وابن حبان رقم ٨١٤، والحاكم رقم ١٨٢٢ وصحح إسناده، عن عبد الله بن بسر ﷺ، وأخرجه أحمد ٤/ ١٩٠ والبيهقي في سننه الكبرى رقم ٦٣١٨ بلفظ: «بذكر الله».

(٣) أخرجه مسلم رقم ٣٧٣ وذكره البخاري تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها في كتاب الأذان، قبل حديث ٦٠٨.

أهمية الذكر[١]:

١ . الذكر عمل يُتَقَرَّب به إلى الله، والعمل إذا كثر اتصف به صاحبه، وأئمة التربية والتزكية ينظرون إلى الذكر هكذا على أنه صفة من صفات المسلم الملازمة له، تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

٢ . إن أعظم حقيقة في حياة الإنسان: هي أن الله موجود، وأنه معنا حيثما كنا يسمعنا ويرانا ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: ٤] ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فأن يكون الإنسان ذاكراً لله متذكراً لأعظم حقيقة في الحياة هو الوضع الطبيعي والمنطقي للعبد.

وحينما يتذكر العبد ربه لا يتذكره كما يتذكر المخلوق، وإنما يرافق ذلك أن يتذكر صفة الألوهية والربوبية والعظمة لله، فينتبه الذاكر أنه عبد الله، فيتحقق بالذكر معنى العبودية لله بالحضور مع صفات الله.

٣. ذكر العبد لربه هو الدليل على صحة تفكير الإنسان وهو الدليل على حياة قلبه، لذلك قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»[٢]، والذكر هنا أعم مِن ذِكر اللسان، وإنما هو التذكر والتعلق بالله سبحانه وبأمره، سواء ذكر بلسانه مع ذلك أو لم يذكر، ويدخل في الذكر هنا الصلاةُ وتلاوةُ القرآن وطاعةُ الله بكل أشكالها.

٤ . الذكر حالة قلبية، قبل أن يكون حالة لسانية، فلا ينبغي أن يكون الذكر باللسان فحسب، وإنما المهم ذكر القلب، وهو الذي له الأثر الأعظم، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ومما يدلك على عظيم أهمية الذكر أنه جاء فيه عشرات الآيات ومئات الأحاديث[٣].

من ثمرات الذكر وآثارِه في التربية وتزكية النفس:

---

(١) انظر مزيد تفصيل في هذا الباب: كتاب التزكية على منهاج النبوة ج٣، التزكية العملية، معاذ حوى.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٤ عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وأخرجه مسلم عنه رقم ٧٧٩ بلفظ: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه؛ مثل الحي والميت».

(٣) انظر كتاب الأذكار للإمام النووي رحمه الله.

١ . يحصل به ذكر الله للعبد ومجالسته له، وذلك موجب لتزكية العبد وإصلاحه، قال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال ﷺ: «يقُولُ الله تَعالى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عبدي بي، وأنا مَعهُ إذا ذَكَرَني، فَإن ذَكرَني في نَفْسهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ، ذكَرتُهُ في ملإٍ خَيْرٍ منْهُمْ»[1]، وما أعظم أن يذكرنا الله تعالى بجلاله وعظمته، فذلك يكون سبباً في إصلاح الله لنا وهدايتنا.

٢ . الذاكر ينشغل بالله عن التفكير في حاجات نفسه، فيقضي الله حوائجه ويغنيه عن أن يطلبها، كما قال الله تعالى فيما يرويه عنه النبي ﷺ: «من شغله قراءة القرآن وذكري عن مسألتي؛ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[2].

٣. الذكر سبيل السَّبْق في كل شيء، فمن طلب رتبة السابقين المقربين فعليه بالذكر قال ﷺ: «**سبق المفردون،** قيل: وما المفردون يا رسول الله، قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[3]، وفي رواية زاد: «يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خِفافاً»[4].

٤ . الذكر من أعظم أسباب تحصيل الإخلاص، ومن حصل الإخلاص فقد حصل أساس التزكية ومعظمها، قال ﷺ: «ألا أنبئكم بخيرِ أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعِها في درجاتكم وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والوَرِق[5]، وخيرٍ لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى»[6]، وقد قدم هنا الذكر على الجهاد والزكاة، لأن ذكر الله تعالى يصنع الإخلاص، والأعمال ومنها الزكاة والجهاد تحتاج إلى إخلاص.

٥. ذكر الله تعالى يستجلب الخشية لله، وإذا وجدت الخشية لله تأدب العبد من ربه فأقام أحكامه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ

---

[1] أخرجه البخاري رقم ٦٩٧٠ ومسلم رقم ٢٦٧٥، عنْ أبي هُريرةَ ﷺ.

[2] أخرجه الترمذي رقم ٢٩٢٦ عن أبي سعيد وقال: حسن غريب.

[3] أخرجه مسلم رقم ٢٦٧٦، عن أبي هريرة ﷺ.

[4] أخرج الزيادة: الترمذي رقم ٣٥٩٦، وقال: حسن غريب.

[5] يعني الفضة.

[6] أخرجه مالك في موطئه رقم ٤٩٢ والترمذي رقم ٣٣٧٧ والحاكم رقم ١٨٢٥ وصحح إسناده، عن أبي الدرداء ﷺ.

ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقد ذكر النبي ﷺ من السبعة التي يظلهم الله في ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه»[١].

ويحرص المسلم على هذا النوع من الذكر، الذي ذكره الحديث، وهو ذكر الله في خلوة، فهو أدعى للحضور والتركيز والإخلاص والخشوع، وأبعدُ عن التشويش والشواغل والالتفات.

٦. الذكر يعالج أمراض القلوب وضعف الإيمان، كما قال رسول الله ﷺ: «جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ»[٢].

٧. من شغل لسانه بالذكر كان ذلك صارفاً له عن الكلام اللهو واللغو والحرام كالغيبة، فاغتنم وقته وطهر لسانه.

الوِرْد اليومي العامّ

يعتني أهل التربية والسلوك بأذكار الصباح والمساء، وهي ما يسمونه الوِرْد العام[٣]، فهو الحد الأدنى من القرآن والدعاء والذكر، الذي ينبغي أن يهتم به الطالب، ويؤديه في كل صباح ومساء، طول عمره.

وهو مما شرعه الله الإسلام لنا، وحثنا عليه، ليكون بركة يومنا، وسبباً في الحفظ من الشياطين، ومُعَوِّذاً من الشرور، وسبباً في الترقي والقرب من الله.

إن أفضل ما يجعله المسلم لنفسه وِرْداً؛ هو ما جعله الشرع له وِرْداً، أي ما أمره به بعدد معين وفي وقت معين، كفرائض الصلاة التي حُدِّدَتْ بوقت مُعين وحَدٍّ مُعين، وسننها الرواتب، وأذكار ما بعد الصلاة.

ومن ذلك: الأذكار التي حُدِّدت لنا في الصباح والمساء.

إنه لا بد للمسلم من غذاء روحي يومي، هذا الغذاء يتمثل بالقيام بالفرائض والواجبات

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٢٩ ومسلم رقم ١٠٣١، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٨٦٩٥ والحاكم رقم ٧٦٥٧ وصححه، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) الورد هو ما رتبه السالك على نفسه أو طلبه منه شيخه، من أنواع الطاعات والعبادات والأذكار، ولكل ورد وارد، وهو الثمرة التي يكرم الله عز وجل قلب المسلم بها من أنوار وفهوم وقرب، وكلمة الوِرْدِ قد وردت في حديث صحيح.

اليومية، والمداومة على ما يمكن من المندوبات بالقدر المستطاع، الذي يعطي القلب احتياجاته من الغذاء والدواء، والذي يكون به المسلم في ترقٍّ دائم، وهذا الورد ينبغي أن يلاحَظ فيه أن يَجعل له حداً أدنى لا بد أن يؤديه، ثم بعد ذلك إن وجد فراغاً أو إقبالاً من النفس زاد، وإذا رأى من نفسه كسلاً أو مللاً تصرف معها بما يحسن من سياسة حكيمة للنفس، وإذا غلبته نفسه فكسلت لسبب من الأسباب؛ فإنه إن استطاع أن يعوض ذلك عوَّضَ، وإلا استأنف من جديد في أول لحظة تفيء نفسه، فتعود إلى ما رتبه لها من أوراد يومية[1].

والوِرْدُ العامُّ الذي يكاد يتفق عليه أهل السلوك والتربية هو:

قراءة **سورة الفاتحة** ثلاثاً أو أكثر من ذلك[2].

قراءة **آية الكرسي** ثلاثاً.

وقد ورد الحث على قراءتها صباحاً ومساءً[3]، وأن من قرأها **غدوة** أجير من الجن حتى يمسي، وإذا قرأها حين **يمسي** أُجِيْرَ منهم حتى يصبح[4].

قراءة **سورة الإخلاص والفلق والناس**، ثلاثاً.

عن عبد الله بن خبيب ﷺ قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه فقال: «قل: فلم أقل شيئاً ثم قال: قل فلم أقل شيئاً، ثم قال: قل فقلت يا رسول الله وما

---

(١) تربيتنا الروحية، في كلامه عن الأوراد اليومية.

(٢) إن بيان النبي ﷺ أن الفاتحة أعظمُ سورة؛ ندبٌ إلى الإكثار منها، روى البخاري رقم ٤٢٠٤ عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]» ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي **أعظم السور في القرآن** قبل أن تخرج من المسجد»، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»، وروى مسلم رقم ٨٠٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلَّم وقال: أبشر بنورين أوتيتَهما لم يؤتهما نبي قبلك؛ **فاتحةُ الكتاب** وخواتيمُ سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته».

(٣) حديث حسن، أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم ٨٠١٧ عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) حديث حسن، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم ٥٤١ والحاكم في المستدرك رقم ٢٠٦٤، عن أبيّ بن كعب ﷺ.

أقول؟ قال: «**قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات** تكفيك من كل شيء»[1].

والاستغفار مئة مرة.

والصلاة على النبي ﷺ مئة[2].

والتهليل مئة.

في كل **صباح ومساء**.

ويستحب أن يكون مع الورد العام: الأذكار **والأدعية المأثورة** في الصباح والمساء، وأهمها:

عن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يقول في **صباح** كل يوم **ومساء** كل ليلة: **بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات** فيضره شيء»[3].

عن عبد الله بن غنام البياضي الصحابي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين **يصبح**: «**اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر**» فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين **يمسي** فقد أدى شكر ليلته[4].

عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه رضي الله عنهما أن النبي ﷺ يقول إذا **أصبح** وإذا **أمسى**:

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٢٧١٦ وأبو داود رقم ٥٠٨٢ والنسائي رقم ٧٨٦٠، ونحوه الترمذي رقم ٣٥٧٥.

(٢) وقد وردت نصوص صريحة في السنة تأمر بالاستغفار والتهليل والتسبيح مائة في الصباح ومائة في المساء، ومما يستأنس به لندب الصلاة على النبي ﷺ مثل ذلك قول النبي ﷺ: « من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ومن صلى علي عشراً صلى الله عليه بها مائة مرة، ومن صلى علي مائة كتب الله بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار وأسكنه الله يوم القيامة مع الشهداء »، أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس ﷺ. وعن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة»، حديث حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٢٠: أخرجه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٤٤٦ وأبو داود رقم ٥٠٨٨ والترمذي رقم ٣٣٨٨ والنسائي رقم ١٠١٧٨ والحاكم رقم ١٨٩٥.

(٤) حديث حسن، أخرجه أبو داود رقم ٥٠٧٣ عن ابن غنام ﷺ، والنسائي رقم ٩٨٣٥ دون الجملة الأخيرة، ومثله ابن حبان رقم ٨٦١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

«أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»(١).

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أمسى قال: «**أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» قال فيهن: «**له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ربي أسالك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر**»، وإذا **أصبح** قال ذلك أيضاً: «**أصبحنا وأصبح الملك لله**»(٢).

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيه: يا أبت إني أسمعك تدعو كل غداة «**اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت**» تعيدها **ثلاثاً** حين **تصبح** وثلاثاً حين **تمسي**، وتقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت**» تعيدها حين **تصبح ثلاثاً وثلاثاً** حين **تمسي**، قال: نعم يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يدعو بهن، فأحب أن أَسْتَنَّ بسنته»(٣).

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من قال حين **يمسي: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) ثلاث** مرات؛ لم تضره حية»(٤).

عن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَدَعُ هَؤُلاَءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ **يُصْبِحُ** وَحِينَ **يُمْسِي**: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِى دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(٥).

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٥٤٠٠ ونحوه النسائي رقم ١٠١٧٥.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٧٢٣.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد ٥/ ٤٢، ونحوه أبو داود ٥٠٩٠ والنسائي ١٠٤٠٧ والبخاري في الأدب المفرد ٧٠١.

(٤) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان رقم ١٠٢٢، ونحوه أحمد ٣/٤٤٨، وروى مسلم نحوه رقم ٢٧٠٩ من غير أن يقول: حين يمسي، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم ٥٢٣ وفي الكبير ١٩/ ١٢٤، وفيه أن يقولها صباحاً.

(٥) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٤٧٨٥، ونحوه أبو داود رقم ٥٠٧٤ وابن حبان رقم ٩٦١ والحاكم رقم ١٩٠٢. روعاتي:

عن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: (**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**) قال: ومن قالها من **النهار** موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها **من الليل** وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[1].

دروة تدريبية على الإكثار من الذكر

من الأوراد التي يعتني بها أهل التربية والسلوك ويوصون بها الطلاب والسالكين؛ ما يعد **دورة تدريبية** على الذكر والحضور فيه، فينصح بها المبتدئ ومن كان غافلاً عن الذكر، لِيَتَعَوَّدَ من خلالها على دوام الذكر وكثرته التي أمرنا الله بها، ولِيُعَوِّدَ نفسه على الحضور والمراقبة والتركيز الذهني عند الذكر، وليستفيد من بركة معاني الأذكار المختلفة وآثارها.

ـ حتى يتعود الإنسان على كثرة الذكر؛ فلا بد أن يبدأ بداية قوية في ذلك، فأول ذلك أن يعرف أهمية الذكر ليرغب بالإكثار منه، فيبدأ بدورة يجتهد من خلالها أن ينهي عدداً كبيراً من الأذكار خلال فترة قليلة، قدر استطاعته، مخلصاً في ذلك لله، طالباً قربه ومرضاته وجنته[2].

ـ أهم الأذكار التي وردت في الكتاب والسنة هي:

الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، والتهليل: لا إله إلا الله، والتسبيح: سبحان الله، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، والحمد لله، والتكبير: الله أكبر، والحسبلة: حسبي الله ونعم الوكيل، والحوقلة: لا حول ولا قوة إلا بالله[3].

أي ما يخيفني. أغتال من تحتي: أي أن أهلك بالخسف ونحوه.

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٩٤٧.

(٢) قال والدي رحمه الله: "فإن استطاع أن يتفرغ لهذه الدورة بما لا يضيع عملاً ولا واجباً كان بها، وإلا فليفعل ما استطاع بما لا يضيع عياله ولا عمله الذي يكسب منه قُوْتَه ولا واجباته اليومية، وإن استطاع أن يربط بين الدورة وبين بعض الشهور كرمضان أو الأشهر الحرم أو العشر الأول من ذي الحجة أو غير ذلك مما ورد فيه نصوص تدل على خصوصيته كان ذلك، وإلا فمتى تيسر"، تربيتنا الروحية.

(٣) وقد وردت أدلة كثيرة في هذه الأذكار وفضيلتها، انظر: التزكية على منهاج النبوة، ج٣ التزكية العملية، معاذ سعيد حوى.

ـ يجعل الطالب هدفه أن يذكر كل ذكر من هذه الأذكار عدداً كبيراً، كعشرة آلاف مثلاً أو سبعة آلاف أو خمسة آلاف أو أي عدد كبير، وليس العدد مقصوداً لذاته، فإنه ليس محدداً في السنة، وإنما هو تقدير اجتهاديٌّ، لأجل التدرُّب، والمقصود منه الكثرة[1]، فلو اختار الإنسان أي عدد كبير فلا إشكال.

ـ يبدأ الطالب بالاستغفار مثلاً، فيستغل كل وقت من فراغه، وكل وقت يمكن أن يذكر فيه، فيستغفر ويعد عشرة آلاف مثلاً، سواء استغرقت معه يوماً أو أسبوعاً أو غير ذلك بحسب فراغه واستطاعته، حتى إذا أنهاها بدأ بالصلاة على النبي ﷺ عشرة آلاف، وهكذا حتى ينهي هذه الأذكار العشرة، فلا يكاد ينهيها حتى يكون قد تعود على الذكر، وظهرت عليه بعض ثمرات الذكر وآثاره من الطمأنينة والإقبال على الله، وكلما كانت المدة أقصر؛ كان أثر الذكر أقوى وأظهر، وكان التعود على الذكر أكبر.

ـ من المهم جداً أن يحرص الطالب خلال هذه الدورة على الحضور في الذكر.

وعليك أيها السالك أن تجتهد في الذكر ولو لم تجد الحضور، فإنه مع المثابرة والدوام سيكرمك الله بفهم معاني الأذكار والحضور مع الله والاستغراق في الذكر، كما قال ابن عطاء الله السكندري: "لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز".

ومن المفيد جداً أن يُكرِّر المسلم مثلَ هذه الدورة كلَّ سنة مرة أو أكثر[2].

الإكثار من ذكر الله

بعد أن ينهي السالك هذه الألوف من الذكر؛ يحرص بعد ذلك أن يكون ذاكراً على الدوام.

---

(١) ونحن مأمورون بالإكثار من الذكر دائماً، قال تعالى: ﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وما هذه الدورة إلا بداية للتعود على هذا الذكر الكثير.

(٢) وانظر كتاب: تربيتنا الروحية، ورسالة: غذاء العبودية، كلاهما لوالدي سعيد حوى.

وإذا أراد المسلم أن يكون أكثر ذكراً، فيمكنه أن يكثر من الذكر بلا عدد ولا تحديد وقت، وذلك جائز ومشروع، لكنه يُستحسن ويُسَنُّ أن يُلزِم المسلمُ نفسَه بأعداد يحرص عليها ويداوم عليها ويكررها في كل يوم وفي وقت معين، من الأذكار المشروعة المسنونة التي أَمَرَنا بها الشرع ولم يحدد لنا عدداً فيها ولا وقتاً لها، قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»[1].

فطيب أن يجعل المسلم لنفسه ألف استغفار، أو ألف صلاة على النبي ﷺ، أو ألف تهليلة، كل يوم، أو يفعل ذلك كله كل يوم.

وقد يجعل بعضهم لنفسه مئة مرة أو أكثر: من التسبيح[2] والحمد والتكبير والحوقلة والحسبلة.

ويمكن أن يكثر من التهليل ألوفاً في كل يوم، أو بلا تحديد عدد، لأنه أفضل الذكر.

وكل إنسان يحدد لنفسه ما يستطيع، مما لا يرهقه، ومما لا يُضيِّعُ واجباته وسننه الأخرى، مُراعياً قدرته وأوقاته وأشغاله، قال ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون»[3].

وقد روي أن أبا هريرة ﷺ كان يسبِّح في اليوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة[4].

مجالس الذكر

إن من أهم ما يعتني به أهل التربية والسلوك مجالس الذكر، والاجتماع عليه، وذلك طريقة نبوية، مشت عليها طرق التربية جميعاً.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٥٢٣ ومسلم نحوه رقم ٧٨٣، عن عائشة رضي الله عنها، وفي حديث مسلم قال: «وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته».

(٢) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين **يصبح** وحين **يمسي سبحان الله وبحمده، مئة مرة** لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثلما قال أو زاد عليه» أخرجه مسلم رقم ٢٦٩٢ والترمذي رقم ٣٤٦٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٥٢٣ ومسلم رقم ٧٨٢ عن عائشة رضي الله عنها وروي نحوه عن أبي هريرة ﷺ في الصحيحين.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم ٢٦٧٣٣. وروى البيهقي شعب الإيمان رقم ٧١٠ أن قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ فِي مَوْكِبِهِ كان يُسَبِّحُ اللهَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ، وروى رقم ٧٠٨ أن امْرَأَةً كانت فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ تُسَبِّحُ فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ، فَمَاتَتْ فَلَمَّا بُلِغَ بِهَا الْقَبْرُ أُخِذَتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِي الرِّجَالِ.

لقد كانت مجالس النبي ﷺ مجالس علم وذكر لله تعالى، وكان يكثر من الذكر في مجالسه، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إِنْ كُنا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة»(1).

وثبت أن بعض أصحابه ﷺ كانوا يتداعون إلى الاجتماع على الذكر، فكان معاذ يقول لبعض أصحابه: اجلس بنا نؤمن ساعة(2)، وروي عن آخرين قولهم: تعال بنا نؤمن ساعة، فيجلسون يذكرون الله تعالى.

وإذا كان الواحد منا يجلس إلى الطاعة والذكر فيجد ضعفاً ونعاساً وخواطر كثيرة، فإن الاجتماع على الذكر له بركته ونوره وأجره، فقد بين النبي ﷺ أن فيه من الرحمة والمغفرة والسكينة وحضور الملائكة ما يدفع المؤمن إلى الحرص عليه(3)، فقال ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»(4).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهْوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ(5)، قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ مَا رَأَوْكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَباً، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ:

---

(1) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٤٧٢٦ والترمذي رقم ٣٤٣٤ وأبو داود رقم ١٥١٦، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم ٦١٨ وقال: «الرحيم» بدل «الغفور».

(2) أخرجه البخاري تعليقاً في بداية كتاب الإيمان من صحيحه، وأخرجه ابن أبي شيبة رقم ٣٠٣٦٣ قال الراوي: يعني نذكر الله.

(3) مع التنبيه إلى وجوب خلو مثل هذه المجالس من البدع والمخالفات.

(4) أخرجه مسلم رقم ٢٧٠٠ عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

(5) في رواية مسلم: يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك.

مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ، لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[١].

فدل الحديث على ندب الاجتماع على الذكر من ثلاثة أوجه: أنه سبب في حضور ملائكةٍ خصَّصَهم اللهُ لمجالسِ الذكر، ولو كانت مجالس الذكر غير مشروعة لما خصص الله لها ذلك، وأن الاجتماع على الذكر سبب في المغفرة، وأن مجالسة أهل الذكر سبب في نفي الشقاء، فمن يجالسهم لا يشقى، فكيف بهم هُمْ، فالحديث يحثُّنا على مجالستهم، وعلى أن نكون منهم.

وقال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قلت [القائل أبو هريرة]: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال المساجد، قلت: وما الرتع يا رسول الله؟ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[٢].

وقال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قال: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»[٣].

وقد حث النبي ﷺ على مجالس الذكر في وقتين مباركين، فقال ﷺ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى **من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس** أحب إلي من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله **من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس** أحب إلي من أن أعتق أربعة»[٤].

ولا حرج في مجالس الذكر أن يكون الذكر جماعياً[٥].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٥ ومسلم ٢٦٨٩ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٥٠٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٥١٠، عن أنس بن مالك ﷺ.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أبو داود برقم ٣٦٦٧، عن أنس ﷺ.

(٥) وانظر في ذلك رسالة للإمام السيوطي رحمه الله في جواز الجهر بالذكر والاجتماع عليه: «**نتيجة الفكْر في الجهر بالذكْر**».

أذكار وأدعية في المناسبات المختلفة

يحرص المسلم السالك إلى الله على **أدعية المناسبات، فيحفظها ويحافظ** عليها، كدعاء دخول المسجد والبيت والخلاء وعند النوم واللباس وغير ذلك، ومنها:

دعاء دخول المسجد: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: **اللهم افتح لي أبواب رحمتك**، وإذا خرج فليقل: **اللهم إني أسألك من فضلك** »[1].

دعاء الخروج من المسجد: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « وإذا خرج [أي من المسجد] **فليسلم على النبي** ﷺ وليقل: **اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم** »[2].

ويقول **قبل النوم**: «باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بها تحفظ به عبادك الصالحين»[3].

ويقول عند الاستيقاظ من النوم: «الحَمْدُ لله الذِي أحْيَانا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وإلَيْهِ النَشُور»[4].

ويقول عند لبس الثوب: «الحَمْدُ لله الذِي كَساني هذا ورَزَقَنِيه، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنّي ولا قُوةٍ»[5].

ويقول عند الخروج من المنزل: «بسم الله، توكَّلْتُ على الله، لا حَوْلَ ولا قُوةَ إلا بالله»[6]، «اللهُمَ إني أعُوذُ بِكَ أن أَضلَّ أوْ أُضَلَّ، أَوْ أزلَّ أو أُزلَّ، أوْ أظلِم أوْ أُظْلَم، أوْ أَجْهَلَ أوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»[7].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٧١٣ عن أبي حميد أو عن أبي أسيد.

(٢) حديث صحيح، أخرجه ابن ماجه رقم ٧٧٣، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ونحوه ابن حبان رقم ٢٠٥٠.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٩٦١ ونحوه مسلم رقم ٢٧١٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٦٩٥٩ عن حذيفة رضي الله عنه ومسلم رقم ٢٧١١ عن البراء رضي الله عنه.

(٥) حديث حسن، أخرجه أبو داود رقم ٤٠٢٣ و الحاكم رقم ١٨٧٠ وصححه.

(٦) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٣٤٢٦ وأبو داود رقم ٥٠٩٥ والنسائي رقم ٩٩١٧ وابن حبان رقم ٨٢٢، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٧) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٥٠٩٤، وروى نحوه الترمذي رقم ٣٤٢٧ والنسائي رقم ٩٩١٤، وأحمد رقم ٢٦٧٤٧، والحاكم رقم ١٩٠٧، عن أم سلمة رضي الله عنها.

ويقول عند الدخول إلى المنزل: «اللهم إني أسألك خير الْمَوْلَج وخير الْمَخْرَج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا»، ثم ليسلم على أهله[1].

الدعاء عند الفراغ من الطعام: قال رسول الله ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: (الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة)؛ غفر له ما تقدم من ذنبه»[2].

دعاء دخول الخلاء أو الكنيف: «اللهُمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ والخبائِثِ»[3].

دعاء الخروج من الخلاء: «غُفْرانَكَ»[4].

الدعاء قبل إتيان الزوجة: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا»[5].

كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[6].

كما يحرص المسلم على حفظ أدعية الوضوء والصلاة والحج وغيرها، والدعاء بها في مواضعها.

المطلب الرابع

أسرار العبادات

أولاً: شرع الله تعالى العبادات لمقاصد وحِكَمٍ، فمن أدى العبادات ولم يحقق مقاصدها فإنه يغش نفسه، ولا تتحقق تربية النفس والتزكية والترقي إلا بتحقيق تلك المقاصد.

وأهل التربية يعتنون بهذا الجانب، فهو من مجالات علم التربية المهمة، وبعضهم يسميه: أسرار العبادات.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم،٥٠٩٦ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه، أخرجه أبو داود رقم ٤٠٢٣، والترمذي رقم ٣٤٥٤، والحاكم رقم ١٨٧٠.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٥٩٦٣ ومسلم رقم ٣٧٥، عن أنس بن مالك رضي الله عنه. ومعنى الخبُث: ذكور الشياطين، والخبائث إناثها، وقُرِئت الخبْث بالسكون: بمعنى النجاسات والقاذورات.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٥٢٦١ والترمذي رقم ٧ وأبو داود رقم ٣٠ والنسائي رقم ٩٩٠٧ وابن حبان رقم ١٤٤٤ عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري رقم ١٤١ ومسلم رقم ١٤٣٤، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أن من قال ذلك فإن قضي بينهما ولد لم يضره الشيطان.

(٦) أخرجه الترمذي ٣٤٣٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه وأن من قال ذلك غفر له ما كان في مجلسه ذلك، وأخرجه نحوه أبو داود رقم ٤٨٥٧ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وأخرج نحوه النسائي رقم ١٠٢٥٧ والحاكم رقم ١٩٧٠ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه وصححه.

إن كتب علم الفقه تبين أحكام العبادات، فتبين مثلاً شروط الصلاة وأركانها وواجباتها وسننها وآدابها ومكروهاتها ومفسداتها، ولكنها لا تتحدث عن المعاني الباطنة القلبية التي ينبغي أن ترافقها كالخشوع مثلاً، والطريق إليه والعوامل المؤدية إليه، وعلم التصوف والتربية هو الذي يعتني بهذا الجانب، وعن الإخلاص لله في عبادته، وعن حلاوة الطاعة وأن تكون قرة عينك، وعن المعرفة الذوقية والشعور بعظمة الله وحبه حين أداء العبادات.

ومن هنا كان علم التصوف مكملاً لا بد منه لعلم الفقه وأعماله، ومحققاً لمقاصده.

وكما لا يجوز أن نلغي الجانب القلبي من عباداتنا؛ كذلك لا يجوز أن نلغي الجانب الظاهر المتمثل بأحكام الفقه.

ثانياً: وقد نبهت نصوص الشريعة في الكتاب والسنة إلى تلك الأسرار والحكم، فمن ذلك:

ذَكَرَ االله عز وجل الحكمة في الأمر بالصلاة فقال: {وأقم الصلاة لذكري}، وذكر أثرها فقال: {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر}، وقال ﷺ: «والصلاة نور»[1].

وقد «كان رسول الله ﷺ إذا صلى يُسمَع من جوفه أَزِيزٌ كأزيز المِرْجَل»[2]، وذلك من قوة الخشوع، فتلك حالة قلبية تدل على أن الصلاة لم تكن مجرد حركات وكلمات، بل كان لها روح وخشوع وأسرار قلبية تحقق بها النبي ﷺ، وعلينا أن نسعى للتحقق بها، كما نحرص أن نقتدي به في كل شؤونه ﷺ.

وذكر الله تعالى حكمة الصوم فقال:{لعلكم تتقون}، وقال: {ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون}، وبين النبي ﷺ أن الصيام ليس مجرد قضية جوع وعطش، وبين سر الصيام وروحه، فقال ﷺ: «الصيام نصف الصبر»[3].

وسمى الله الزكاة والصدقة إحساناً، فبين أن حكمتها رعاية حاجة الآخرين، لا التكبر والتمنن عليهم، وأنها لتذكرنا أننا مستخلفون في الأرض لا نملك ما فيها، فعلينا أن نؤدي حقوق

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٢٣ عن أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٣) أخرجه أحمد رقم ٢٣١٤٨ والترمذي رقم ٣٥١٩ وحسَّنَه.

الله لعباده، وبين النبي ﷺ أن الصدقة برهان[1]، فهي دليل على زهدك في الدنيا وخضوعك لأحكام الله.

وجعل الله تعالى الحج ذكراً لله، وشكراً على نعمة الأنعام[2]، قال سبحانه: {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام}، وقال ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾.

والحج تدريب على حسن الخلق وترك الجدال والسيئات، ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والحج قصد إلى الله بزيارة بيته الحرام، قال عز وجل: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال رسول الله ﷺ: «الحجاج والعمار وفد الله، إن دعَوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم»[3].

وبين الله تعالى أن المقصود من تلاوة القرآن زيادة الإيمان بوجود التدبر معها، فقال سبحانه: ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾، وقال سبحانه: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، فلا يجوز شرعاً أن يتعمد المسلم قراءة القرآن بغير تدبُّر وتفهُّم.

والتدبر تركيز الذهن وجمع الفكر والتفهم والاستيعاب، ويشمل فهم كلمات القرآن، وفهم العبارات والآيات، وفهم الموضوعات، وفهم السور، وإدراك مقاصدها.

قال ابن عباس لرجل أخبره أن سريع القراءة للقرآن يقرؤه في ثلاثة أيام، فقال ابن عباس: «لأَن أقرأ البقرة في ليلة أتدبرها وأرتلها؛ أحب إلى أن أقرأه كما تقرأ»[4]، وقال عبد الله بن مسعود:

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٢٣ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) الأنعام هي: الإبل والبقر والغنم والمعز.

(٣) حديث حسن، أخرجه ابن ماجة ٢٨٩٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد ورد أن الحاج والمعتمر والغازي وفد الله، أخرجه النسائي رقم ٣٦٠٤ وابن خزيمة رقم ٢٥١١ وابن حبان رقم ٣٦٩٢ عن أبي هريرة، وأخرجه ابن حبان رقم ٤٦١٣ عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ٢٠٤٠.

«لا تهذّوا القرآن هذَّ الشِّعر[1]، لا تنثروه نثر الدقل[2]، وقفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب»[3] وقال: «ولا يكن هَمُّ أحدكم آخر السورة»[4]، فالقرآن يحرك أحوال القلوب من خوف ورجاء وحب لله ورضىً وتسليم وشكر وصبر وتوكل وإخلاص وغير ذلك.

قال أبي: " إن مجموع العبادات المفروضة والمسنونة ومجموع الأدعية والأذكار تعمق معرفة الله عز وجل في القلب، كما أنها تؤدي واجبات الشكر له جل جلاله وأن القرآن هو المذكر بالله عز وجل، وهو المعرف عليه وهو المعلم لنا في كل شيء، ومن ثم كان ذكراً خالصاً، وعلينا أن نعطي أرواحنا حقوقها من هذا كله، لكي نكون ذاكرين لله حقاً عارفين حقاً عبيداً له حقاً"[5].

وبين النبي ﷺ أن «الدعاء هو العبادة»[6]، فكل عبادة قد يقوم بها العبد وهو غافل عن معنى العبودية لله فيها، لكن الدعاء لا يخلو عادة من معنى العبودية، لما فيه من افتقار إلى الله وتذللٍ، وشعورٍ بالحاجة والاستكانة لله، فالعبودية فيه ظاهرة واضحة.

ونبهنا الله إلى حِكَم التفكر، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فتفكرهم عَرَّفَهم بصفات الله وعظمته، وذَكَّرهم بمآلهم، فكانوا أعظم تنزيهاً لله وذكراً وعملاً وإعداداً للآخرة وتوقياً للعذاب، والمسلم كلما زاد تفكره؛ كان ذلك أدعى إلى قربه من الله واستقامته، فبالتفكر يتذكر اللهَ وصفاته وعظمته وآخرته.

وقد تكلم كثير من علماء التصوف عن أسرار العبادات وحِكَمِها، فمن أولئك الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، والإمام محمد مهدي بهاء الدين الصيادي الرواس (ت

---

(١) أي لا تقرؤوه كمن يقرأ الشِّعر.

(٢) أي لا تسرعوا في القراءة كأنكم تتخلصون من الآيات وترمونها، كما يرمي الرجل التمر الرديء لينزل عنه السوس الذي فيه.

(٣) شعب الإيمان ٢٠٤١.

(٤) شعب الإيمان ٢٠٤٢، ومعناه لا يكن مستعجلاً ينتظر أن ينهي آخر السورة.

(٥) تربيتنا الروحية.

(٦) أخرجه الترمذي رقم ٢٩٦٩ وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود رقم ١٤٧٩، وابن حبان رقم ٨٩٠، والحاكم ١٨٠٢ عن النعمان بن بشير ﷺ، وفي حديث آخر عند الترمذي ٣٣٧١ عن أنس بن مالك ﷺ: «الدعاء مخ العبادة».

١٢٨٧هـ) في كتابه مراحل السالكين، وأبو الحسن الندوي (ت ١٩٩٩م) في كتابه الأركان الأربعة.

ثالثاً: يجب مع الحرص على معرفة أسرار الشريعة وتحقيقِ مقاصد الأعمال؛ أن نحذر من الفهم الخاطئ والتطبيق المنحرف والابتداع في الدين[١].

فمن أهم مجالات التربية والتصوف أن يعتني المسلم بالتحقق بما تحقق به رسول الله ﷺ أفضل ما يستطيع، فالرسول ﷺ يمثل الكمال المطلوب منا، وهو قد تحقق بالقرآن والسنة كلها، علماً وعملاً وحالاً، فكان خلقه القرآنَ كما وصفته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وواجب الصوفي والسالك وطالب التربية أن يجعل هذا الكمال هدفاً له، فيسارع إلى فهم النصوص ويعمل للتحقق بها، في الأقوال والأفعال والأحوال القلبية.

وقد حرص أئمة التصوف على تسجيل تلك الحالات القلبية والتنبيه إليها في كتبهم، ليبقى الإسلام حياً، ولا يكون مجرد رسوم وأشكال وحركات، ومن اقتصر في فهم الدين على المظاهر، فلم يعرف حقيقة الإيمان وحقيقة التقوى وحقيقة الإحسان وحقيقة الإخبات والصبر والرضا والتسليم والتوكل والمحبة وغيرها؛ فإنه لا يكون مطبقاً للإسلام الذي جاء به النبي ﷺ على حقيقته وكماله، ولا يكون الإسلام حياً في نفسه.

وأنت تبحث عن هذا الجانب القلبي وعن أسرار العبادات ستجد من تكلم في هذا الشأن وليس من أهله، وستجد من تكلم فيه فحرَّف النصوص وتكلف، ولقد حذر النبي ﷺ من تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين، وبين أن الله تعالى يُسَخِّرُ لهذا الدين مَن يَنْفِي هذه الأمور، فعلينا أن نعتمد كلام أئمة التصوف المشهود لهم بالعلم والاستقامة في هذا الشأن، ونحذر من الدخول في طريق الباطنية، وطرق الجهل والهوى، وطريق البدعة والأدعياء والجهال.
وقد حذر من ذلك سيدنا معاذ بن جبل ﷺ فقال: « إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ، حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ ، وَالرَّجُلُ ، وَالْمَرْأَةُ ، وَالصَّغِيرُ ، وَالْكَبِيرُ ، وَالْعَبْدُ ، وَالْحُرُّ ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لاَ يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ ، فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلاَلَةٌ ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ »، ثم قال: « اجْتَنِبْ مِنْ كَلاَمِ

(١) انظر كتاب تربيتنا الروحية، سعيد حوى.

الْحَكِيمِ الْمُشَبِّهَاتِ، الَّتِي يُقَالُ لَهَا مَا هَذِهِ؟ ، وَلاَ يُثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا»[1].

(١) حديث صحيح من كلام معاذ ﵁، أخرجه أبو داود رقم ٤٦١١، ونحوه الحاكم رقم ٨٤٢٢. وفي رواية بلفظ: الْمُشْتَهِرَاتِ، مكان المشبهات.

المبحث الخامس

ترك المعاصي

من مجالات التربية المهمة تطهير النفس من المعاصي، كبائرها وصغائرها.

ومن آمن بالله واليوم الآخر حق الإيمان؛ لا يقترب من المعاصي، فهو يخشى الله ويخشى حسابه وعقابه، وعلم التربية يربي على ذلك، وينمي ذلك الإيمان، ويكرر المواعظ، ويدل على الأعمال والبيئة المناسبة التي تعين على التخلص من المعاصي، ويعتني بوقاية الإنسان من العصيان قبل الوقوع به.

وفيما يأتي بيان للمسائل المهمة التي يعتني بها علم التربية والتزكية والتصوف لحماية المسلم من المعاصي، وما نذكره في المطالب الخمسة الأولى كله من المعالم الكبرى للتربية:

المطلب الأول

خطورة الذنوب ووجوب الحذر منها

١. إن من أعظم أسباب تزكية النفس: ترك المعاصي، ذلك أن وجود أي معصية عند الإنسان يحول بينه وبين الصفاء والنقاء والتزكية، ويجعله مقيداً، قال تعالى: ﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ [البقرة: ٨١]، فالخطيئة قد تحيط بالإنسان وتقيده وتقيد حاله وتأسره على حالة غير مرضية.

٢. والمعصية تفتح للشيطان سبيلاً للإفساد والإضلال والإغواء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فبعض المعاصي التي يكسبها الإنسان تكون سبباً في تسلط الشيطان عليه فيقوده إلى مزيد من العصيان.

٣. وما يقدم الإنسان من الذنوب سبب في المصائب، ومن أعظم المصائب أن يُترك الإنسان ليقع في الذنوب فلا يُحفظ منها، يقول الله تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [النساء: ٦٢].

٤. ومن سلك طريق الزيغ والانحراف والمعصية؛ تركه الله لنفسه وزَيْغِه فازْداد زَيْغاً

وعصياناً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، فالسيئة والمعصية تجر إلى مزيد من المعاصي والسيئات، لأنها تحرف قلب العاصي عن الحق، فيَستسهل المعصية، وتَضعُف همته ومجاهدته وصبره عن المعاصي، إذ يُظْلِمُ القلبُ من الذنوب، قال الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

٥. والمعصية قد تكون سبباً في فتنة الإنسان عن دينه، فيهلك، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

٦. إن المسلم حينما يرتكب معصية صغيرة أو كبيرة فإنه إما أن يكون مستهيناً بحكم الله، غير معترف به، فيكون **كافراً**، وقد حذر الله مِن التجرؤ على أحكامه والكذب فيها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۞ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

وإما أن يكون غافلاً قد غيَّب الحقائق الإيمانية عندما رضي بالمعصية وعَمِلَها، فيكون **فاسقاً**، وقد نبه النبي ﷺ على ذلك فقال: «لاَ يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَقْتُلُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ»[1]، وليس مقصودُ الحديث نفيَ الإيمان عن مرتكب الكبيرة، فهناك أدلة كثيرة تدل على أن المسلم يبقى مؤمناً رغم معصيته، ولكن المقصود أن المعصية لا تقع من الإنسان إلا في حالة ضعف الإيمان أو غيابه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ينزع منه نور الإيمان في الزنا»[2].

٧. وقد حذرنا الله من أن يستدرجنا الشيطان من الصغائر إلى الكبائر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

٨. ووجود الذنب عند الإنسان يجعل منه ملوثاً، ومثل الإنسان في ذلك كمثل كأس امتلأ

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦٤٢٤ ومسلم رقم ٥٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزادا في روايات: «والتوبة معروضة بعد».

(٢) رواه البخاري تعليقاً في عنوان قبل حديث رقم ٦٣٩٠.

بالماء فلو وضعت فيه نقطة بول واحدة، أليست تنجسه، صحيح أن نجاسته ليست مثل نجاسة كأس امتلأ كله بالبول، لكنهما في النتيجة نجسان، ولا يمكن أن تطلق على أي منهما اسم الطهارة، والإنسان ما دام عنده عيب واحد أو ذنب واحد؛ فهو يحتاج إلى تزكية وتطهير، وذنبه يلوِّثُ حاله ويؤثر فيه ويعكر حاله، وقد يفسد أمره كله.

٩. وإذا ترك المسلم المعاصي وجد إقبالاً على الطاعة والعبادة، قال النبي ﷺ: «اتق المحارم تكن أعبد الناس»[(١)]، فإذا ابتعد الإنسان عن كل ما نهى الله عنه؛ سيكون أقرب إلى الله، وسيجد نفسه عابداً، بل سيكون أكثر الناسِ عبادةً، وسيجد إقبالاً تلقائياً على الله وعلى طاعته.

وقد فهم بعض السلف هذا المعنى فقالوا: (إذا أردت أن تقوم الليل وتصوم النهار فلم تستطع فانظر في ذنوبك؛ فإنما هي التي قيدتك).

١٠. قد تغرينا المعاصي في الدنيا لما فيها من لذات وشهوات، ولكن المعصية وإن كانت لذة في الدنيا فهي في حقيقتها عذاب في الآخرة وحرمان من الجنة، ولا سيما حينما تصل بالإنسان إلى حد التمرد على الله وأحكامه وحدوده، فعندها تستوجب الخلود في النار، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، والعذاب الخطير يجب أن يحذر الإنسان من كل ما يوصل إليه من كفر أو معصية، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

المطلب الثاني

الوقاية من المعاصي والذنوب

١. إذا علم المسلم ما ذكرناه آنفاً، فعِلْمُ ذلك من أعظم ما يحجزه عن المعصية، لأنه يكون قد تصور التصور الصحيح عن المعصية، فيَنْفِر منها ويحذر ويُعرِض عنها.

٢. يكفي أن يتذكر الإنسان أن لله عليه حقَّ الأمر والنهي والحكم؛ ليترك المعصية، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال تعالى:

---

(١) جزء من حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٨٠٨١ والترمذي رقم ٢٣٠٥ عن أبي هريرة ﷺ.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٣. حتى يكون المسلم بعيداً عن المعصية كل البعد؛ فقد حرم الله الوسائل المؤدية إلى المعاصي، فمثلاً: حرم الله الزنا، وحرم ما يمكن أن يؤدي إليه، كالنظر إلى النساء، والخلوة بهن، والكلام الفاتن منهن، وإظهار المفاتن بعدم الحجاب الشرعي.

٤. عدَّ بعض العلماء كل معصية يمكن أن تؤدي إلى الكبائر، عدُّوها من الكبائر بالنظر إلى مآلها ونتيجتها.

ولا ينبغي للمسلم أن يقول هذه معصية من الصغائر، فيستهين فيها، وإنما ينظر إلى جلال الله الذي عصاه.

ومَن داوم على الصغيرة فقد تجَرّأَ على أحكام الله، فتكون كبيرة من هذا الوجه، فليس من شأن المؤمن أن يصرَّ على العصيان والتمرد على الله ولو في الصغائر، قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[آل عمران: ١٣٥].

٥. شرَع الله تعالى ما يعيننا على ترك المعصية، إذ ما حرّم شيئاً ـ في الغالب ـ إلا وقد أباح شيئاً من جنسه، يستغني به الإنسان عن الوقوع في الحرام، فمثلاً حرم الله الزنا، وأباح الزواج، حرم الخمر والخنزير وبعض الأطعمة والأشربة، وأباح لنا أصنافاً كثيرة، حرم علينا الربا، وأباح التجارة وأسباباً كثيرة للتملك الحلال، وهكذا، فخذ من الحلال واستغن به عن الحرام.

٦. شرَّع الله تعالى من العقوبات في الدنيا ما يزجر عن إتيان الكبائر، ويُطَهِّر منها مَن وَقَعَ فيها، فكتب علينا إقامة الحدود في الزنا والسرقة والقذف والخمر ونحوها، وكتب علينا القصاص في القتل، وفتح باب التعزير للتأديب ومنع انتشار المعاصي والفساد.

٧. وقد أخبرنا الله تعالى ورسوله ﷺ بعقوبات الآخرة، وبالعقوبات الربانية التي تحل بالعاصي في الدنيا، تذكيراً لنا، ليحجزنا ذلك عن التجرؤ على المعاصي، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

٨. والعاقل لا يؤثر لذة فانية منقطعة صغيرة على لذة باقية دائمة كبيرة، والعاقل لا يأخذ لذة تستوجب له عقاباً كبيراً، عندما يكون ألم العقوبة أكبر من ألم ترك اللذة الدنيوية، قال تعالى: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٧].

٩ . تبدأ المعصية بالخاطر الذي يدعو النفس إليها، فإذا انتبه المسلم إلى هذا الخاطر ورفض ما يدعو إليه كان في حفظ ووقاية من المعصية، وإن استحسن ما يدعوه إليه أو لم يرفضه؛ دخل تزيين الشيطان للشهوة والمعصية في القلب فقاده بذلك إلى المعصية ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [النمل: ٢٤].

فطريق الحفظ من المعصية ردُّ الخاطر الذي يدعو إليها، قال ﷺ: «تُعرض الفتن [أي المعاصي والسوء والباطل والكفر] على القلوب عَـُوداً عوداً كالحصير [أي مرة بعد مرة]، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء [أي تقبَّلَها ولم ينكرها، فتدخل الظلمة في القلب بذلك قبل أن يفعل المعصية]، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء»[(١)].

١٠ . إن الإنسان إذا أحب معصية أو شهوة قد يدفعه ذلك إلى إدعاء أنها حلال، وإباحة الحرام أخطر من الوقوع في الحرام، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، فإذا ابتلي أحدنا بمعصية فلا ينبغي أن يتجرأ على تغيير أحكام الله ليهوِّن على نفسه معصيته، بل عليه أن يبذل جهده في التخلص من المعصية.

١١ . كثرة ذكر الله من أعظم أسباب الحفظ من المعصية، إذ يتذكر المسلم عظمة الله، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقد بين النبي ﷺ أن الذكر واقٍ من الشيطان والمعاصي، حينما روى لنا ﷺ ما أمر الله به نبيَّ الله يحيى بنَ زكريا عليهما الصلاة والسلام أن يأمر به قومه فكان من ذلك قوله: «وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ كَثِيراً، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعاً فِى أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْناً حَصِيناً فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ١٤٤.

الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِى ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1].

١٢. من واجب المسلم أن يعرِف المعاصي، ويتعلم أحكام دينه، فمَن جَهِلَ المعصيةَ لن يحرص على تجنبها، فيعمل العمل وهو يظنه صحيحاً وإذا به معصية لله، ومن جَهِلَ المعصيةَ سَهُلَ على الشيطان أن يدفعه إليها وأن يزينها له.

١٣. من أهم أسباب الوقاية من الوقوع في الذنب: صحبة الصالحين، والبيئة الصالحة، كبيئة المسجد والعلم وأهله، ينشغل فيها العبد بالطاعة، والصالحون ينبهون الإنسان إلى خطر المعصية؛ فلا ينخدع بزينتها ولذتها.

المطلب الثالث

كيف نتخلص من المعاصي والشهوات

من ابتلي بمعصية أو أكثر فعليه أن يجتهد في التخلص منها والتطهر من آثارها، وذلك يكون بما يأتي:

١. أن يعلم العبد المذنب سعة رحمة الله وعفوِه، وقبولَه لتوبة التائبين، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وقال ﷺ: «لَلَّـهُ أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»[2]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠].

٢. إذا راقب المسلم خاطر المعصية، وكلما دعته نفسه أو شيطانه إلى معصية أنكر ذلك بقلبه ورفضها، فيكون ذلك سبباً في طهارته وحفظه من الذنب، قال ﷺ: «تُعرض الفتن على القلوب ... **وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء**»، ثم بين أن هذا الإنكار يصل بالمسلم إلى أن يُحفظ من المعاصي والفتن «حتى لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض»[3].

٣. على المسلم المبادرةُ إلى الاستغفار، عند ورود الخاطر الذي يدعو إلى المعصية، ومباشرة

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٧٦٣٣ ونحوه الترمذي رقم ٣١٠٢ والحاكم رقم ١٤٨١ وابن خزيمة رقم ١٧٨٩.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٩٥٠ عن أنس ﷺ، ونحوه عند مسلم ٢٧٤٧.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ١٤٤.

عند المعصية إذا وقعت منه، ليمحو الذنب وأثره عن القلب، قال ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[1].

٤. لا ينبغي لمن ابتلي بمعصية أن يركن إليها ويستسلم لفعلها، بل عليه أن يجاهد نفسه، فيقاوم رغبة النفس بها، ومن طلب الصبر من الله واستعان به أعانه الله، قال ﷺ: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يُصبره الله»[2]، وهذه المجاهدة هي أعظم سبيل للنجاح والاستقامة والهداية، قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا[3] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٥. إذا كان للمعصية أو الشهوة أسباب تدفع إليها وتذكِّرُ بها؛ فعلى المسلم أن يقطع هذه الأسباب ويجفف منابع تلك الشهوة، قال ﷺ: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

٦. إنَّ فِعل الطاعات والأعمال الصالحة يساعد على ترك المعاصي، ويمحو أثرها وإثمها، ويقوي وجهة الإنسان نحو الخير والحق والطاعة، قال النبي ﷺ: «وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فكلما كَثُرَتِ الحسناتُ صَرَفَتِ السيئاتِ.

وقد أعلمنا النبي ﷺ أن الوضوء يكفر الله تعالى به الذنوب فتتساقط مع الماء المتساقط من

---

(١) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٣٣٤ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه رقم ٤٢٤٤، وابن حبان رقم ٩٣٠، والحاكم في المستدرك رقم ٦ وصححه، يَرْوونه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ١٤٠٠ ومسلم رقم ١٠٥٣، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) والجهاد هنا يشمل جهاد النفس ومعاصيها، وجهاد الشيطان، وجهاد العدو الكافر والمنافق، كما بين المفسرون.

(٤) أخرجه البخاري رقم ١٠ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٥) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٢١٣٩٢ والترمذي رقم ١٩٨٧ وقال: حسن صحيح، عن أبي ذر رضي الله عنه.

الوضوء، وأعلمنا أن الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة؛ كفارة لما بينهما، وأن الصدقة كفارة للذنوب، وأن الحج تكفر به الذنوب فيعود أحدنا كيوم ولدته أمه[1]، قال رسول الله ﷺ قال: «الصَّلواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إِلى الجُمُعَةِ، كفَّارةٌ لما بَيْنهُنَّ، ما لم تُغش الكبَائِرُ»[2].

٧. من أهم الأسباب التي تعين على ترك الذنوب: اتخاذ الصحبة الصالحة، والحرص على البيئة الصالحة كبيئة المسجد والعلم وأهله، فالصحبة كما تمنع الوقوع في الذنوب أيضاً هي علاج للخروج من الذنوب.

٨. إن خروج الشهوة من القلب والتخلص التام من المعصية لا يتم ـ غالباً ـ إلا بأحد أمرين: غَلَبة الحب لله والشوق إليه، أو غلبة الخوف من الله والهيبة منه، كما قال الصالحون: لا يُخرِج الشهوة من القلب إلا شوق مُقْلِقٌ أو خوف مزعج.

فزد معرفتك بالله لتزداد حباً وخشية، قال ﷺ: «والله لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[3].

المطلب الرابع

أخطر الذنوب: الكبائر

حذرنا الله تعالى ونبيه ﷺ من أخطر الذنوب، وهي الكبائر، وقال سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فصاحب الكبيرة مهدد أن يُدَقَّق عليه الحساب، وأن لا يكون مُدْخَلُه كريماً، ومن تركها فهو موعود بمغفرة ذنوبه الصغائر.

والذنوب الكبائر: هي ما توعَّد الله عليه بالعذاب أو باللعنة أو بالغضب، أو جعل عليه

---

(١) وكل ذلك ورد في أحاديث صحيحة.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٣٣، عن أبي هريرة ﷺ، وفي رواية: «ورمضان إلى مضان».

(٣) أخرجه الترمذي رقم ٢٣١٢ وقال: غريب حسن، ونحوه أحمد رقم ٢١٥٥٥ عن أبي ذر ﷺ، وأخرج العبارة الأولى البخاري رقم ٤٣٤٥ ومسلم رقم ٢٣٥٩ عن أنس بن مالك ﷺ.

عذاباً وحدّاً من الحدود في الدنيا، ليكون كفارة له.

وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[1].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «سألت النبي ﷺ: أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أيّ؟ قال: وأن تقتل ولدك، تخاف أن يَطْعَمَ معك، قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تزاني حَلِيلَةَ جارِك»[2].

والكبائر لا تختص بما ذكر في هذه النصوص، فالقرآن الكريم والسنة النبوية تَوَعَّدا على كثير من المعاصي أو جَعَلا لها حَدّاً، كالسرقة وشرب الخمر والحِرابة وغير ذلك.

وليس من شأن المؤمن أن يقع في كبائر الذنوب، فالله سبحانه وصف المؤمنين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢]، فيجب أن نكون على أشد الحذر من الوقوع في هذه الذنوب الكبيرة، ومِنْ حَذَرِنا منها أن نحذر من الصغائر التي تؤدي إليها، وإذا وقع أحدنا في كبيرة وجبت المسارعة إلى التوبة والكفارة.

ومن كبائر الذنوب: ترك فرائض الطاعات، فليس للمؤمن أن يتخلف عن شيء مما فرضه الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

المطلب الخامس

أكثر الذنوب وقوعاً: ذنوب الكلام والمال والشهوات

ـ الذنوب كلها خطيرة، وكلها تفسد قلب الإنسان، وكلها يجب التطهر منها، وتستوجب

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٦١٥ ومسلم رقم ٨٩ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٢٠٧ ومسلم رقم ٨٦.

العقوبة إن لم يَعْفُ اللهُ عنها، لكن حينما ننظر إلى الواقع نجد أن وقوع المسلمين في الذنوب الكبيرة والصغيرة يكاد يكون قليلاً إلا في ثلاثة ذنوب.

فقليل مِن المسلمين مَن يشرب الخمر، وأقل من ذلك من يسرق، وأقل من ذلك من يقتل، وقليل من المسلمين من يتعامل بالسحر، ونادرٌ من المسلمين من يلبس خاتم ذهب، ونادرٌ من المسلمين من يتغوط في طريق الناس، وهكذا.

ولكن كثيراً مِن المسلمين مَن يقع في معاصي اللسان، وكثير مِن المسلمين مَن يقع في الشهوات والنظر إلى ما يحرم النظر إليه، وكثير من المسلمين من يُصِيبُ من المال الحرام، ونكاد نجد أكثر المسلمين اليوم يقعون في هذه الذنوب في كل يوم مرات، وكثير منهم يقع في هذه الذنوب ولا يبالي، فتُشَكِّلُ هذه الذنوب أهم ما يفسد حال الإنسان مع الله، وأهم ما يقيده عن طاعته، وأهم ما يُدَسِّيه ويُبعِدُه عن التزكية.

لذلك نبهنا النبي ﷺ إلى هذه الذنوب، ونبهنا إلى أنها هي الأكثر وقوعاً بين الذنوب، فقد سُئِلَ عن أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: «**الفَمُ وَالفَرْجُ**»[1]، ولما كانت أكثر ذنوب الناس في هذين الذنبين فمَن تخلَّص منهما صارَ حاله صالحاً، وكأنه تخلص من الذنوب كلها، وصار أهلاً لدخول الجنة لذلك قال ﷺ: «مَن تَوَكَّل لي ما بين رِجْلَيْه وما بين لَحْيَيْهِ توكَّلْتُ له بالجنة»[2].

ولما كان أكثر الناس يقعون في معاصي اللسان بين ساعة وأخرى؛ فقد حذر النبي ﷺ من ذنوب اللسان؛ وكأنه لا شيء غيرها يُدْخِلُ النارَ، وبيَّن أن السبيل لصلاح حال الإنسان أن يترك ذنوب الكلام، فقال ﷺ بعد أن ذكر أهم أبواب الخير لمعاذ بن جبل ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، **وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ**

---

(1) أخرجه الترمذي رقم ٢٠٠٤ عن أبي هُريرة ﷺ وقال: صحيح غريب، وأخرجه ابن حبان والحاكم وصحح إسناده وزادا: «الأجوفان».

(2) أخرجه البخاري رقم ٦٨٠٧ عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»[1].

والنظر إلى ما حرم الله من أخطر الذنوب وأكثرها في هذا الزمان، والنظر المحرم وما يتبعه من شهوات من أخطر الذنوب على قلب الإنسان، لأن الإنسان إذا تعلق بالشهوات غَفِل عن ذكر الله وأحكامه، وانشغل عن واجباته، وفَسَدَ حالُه، قال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[2].

وأما الذنب الثالث فقد لا يكون كثيراً في الأزمان السابقة من تاريخ المسلمين، لكنه صار اليوم كثيراً، كما أخبر النبي ﷺ، فقال: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أَمِنْ حلالٍ أَمْ مِنْ حرام»[3].

وهذه الذنوب الثلاثة هي في الغالب التي تصنع الغفلة القلبية أو تساعد عليها، وبسبب من هذه الذنوب تنشأ الأخلاق الفاسدة التي تكثر في المجتمعات كالظلم والغش والسرقة والرشوة والكذب والبخل والفواحش.

فإذا كنا نسعى لإصلاح المسلم والمجتمع المسلم يجب أن نعطي اهتماماً كبيراً للتوعية من خطر هذه الذنوب أكثر من غيرها، سعياً للتخلص منها، فإذا تطهرنا منها نكاد نكون قد تخلصنا من ذنوبنا جميعاً، فيصبح المجتمع مؤهلاً للهداية والولاية، ويصير نموذجاً جميلاً راقياً، مرغوباً يصلح لأن يقتدى به.

ـ إصلاح الكلام مع تقوى القلب مفتاح من مفاتيح تزكية النفس:

أمرنا الله تعالى بإصلاح اللسان والكلام، وبين أن للشيطان مدخلاً إلى الإنسان بسبب الكلام الباطل والسيء، فقال سبحانه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي ٢٥٤١ وقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم ٣٥٤٨ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٤٨٠٨ ومسلم رقم ٢٧٤١، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٩٧٧، عن أبي هريرة ﷺ.

وحذرنا النبي ﷺ أن الإنسان قد يتكلم بالكلمة ولا ينتبه إليها فتكون سبباً في عذابه، قال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يَزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق»[1].

وإصلاح الكلام سبيل لإصلاح النفس كلها، فقد تكفل الله تعالى لمن يتقي الله ويُصلِحُ لسانه أن يُصْلِحَ له سائر أعماله، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، فقوله: ﴿ يُصْلِحْ ﴾ جوابُ شرطٍ متضمَّن من معنى الكلام السابق: أي إن تتقوا الله وتقولوا القولَ السديدَ يُصلِحْ لكم أعمالكم.

وشأن المؤمن والمحسن أن ينشغل بالكلام الطيب والذكر والقرآن والعلم عن معاصي اللسان، حتى إنه لا يقبل على نفسه أن يتكلم كلاماً لا معنى له ولا فائدة منه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].

وما حَرُمَ كلامُه حَرُمَ سماعُه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥].

وواجب المسلم أن يشغل نفسه بما هو نافع، ولا يكون نافعاً إلا أن يكون ذكراً لله وما يلتحق بالذكر، كما قال ﷺ: « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالماً أو متعلماً ».

المطلب السادس

جملة من الرذائل والمعاصي والكبائر التي حذّر منها الإسلام ونهى عنها[2]

- الشرك بالله: وهو أشدها خطراً، ولا يعدله شيء، وفي ذلك قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٤٨].

- قتل النفس بغير حق: قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٩٣].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٦١١٢ ومسلم رقم ٢٩٨٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا المطلب منقول من كتاب: مبادئ الإسلام، محمد سعيد حوى.

– عقوق الوالدين: وهو من أكبر الكبائر، قال النبي ﷺ : « ألا أخبركم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين »، وكان متكئاً فجلس فقال: « ألا وقول الزور » فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[1].

– الكذب: قال تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠].

– الزنا: قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً، يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

– قذف المحصنات المؤمنات، ومثله: قذف المحصنين من المؤمنين، أي اتهام ذوي الاستقامة والعفة بالزنا أو الفواحش كذباً أو بلا دليل صحيح، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ٢٣].

– أكل الربا: قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

– الفرار من الزحف: وهو الهروب من ساحة المعركة العادلة بلا عذر، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٦].

– أكل مال اليتيم: قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [النساء: ١٠].

– اليمين الغموس: وهو أن يُقْسِم ويَحْلِفَ على شيء يعلم أنه كاذب فيه، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

---

(١) أخرجه البخاري، ٥٩١٨، ومسلم نحوه ٨٧.

- كتمان الشهادة: لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

- شرب الخمر، والقمارُ: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

- ترك الصلاة: قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٣].

- نقض العهد وقطيعة الرحم: لقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

- السحر: قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

- آفات اللسان: من غيبة ونميمة وكذب وشتم ولعن وسخرية وخداع، وما يسبق الغيبة من سوء الظن وتجسس، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

المبحث السادس

الأخلاق والآداب

القِيَم والأخلاق والآداب والفضائل من مجالات التربية المهمة.

وفيما يأتي نبين بمقدمة أهمية الأخلاق والآداب، ثم نذكر نماذج منها، من أهم ما ينبغي على المسلم أن يتحقق به، وعلى المربي أن يغرسه ويرسخه عند السالك.

مدح الله نبيه ﷺ بأخلاقه ليكون قدوة لنا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وشهد له ﷺ بها أصحابه المقربون، فقال أنس بن مالك ﷺ: « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً »[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: « فإن خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ »[٢].

ومن لم يكن صاحب أدبٍ ظاهرٍ مع الخَلْق؛ فذلك دليلُ نقصٍ في إيمانه، كما قال ﷺ : « أَكْمَلُ المُؤمِنِينَ إِيماناً أَحسَنُهُم خُلُقاً، وخيارُكُم خِيارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ »[٣].

قال الإمام ابن البنا السرقسطي رحمه الله[٤]:

وَلِلطَّرِيقِ ظاهِرٌ وَباطِنْ ... يُعْرَفُ مِنهُ صِحَّةُ البَواطِنْ

ظاهِرُهُ الآدابُ والأَخْلاقُ ... مَعَ كُلِّ خَلْقٍ مَا لَهُ خَلاقُ[٥]

فطالب التربية والصوفي والسالك إلى الله يَقْوَى سُلوكُه بخُلُقِه، فالخُلُق جزء مهم من السلوك إلى الله، بل ربما يَنال بِحُسْنِ الخُلُق ما لا يناله بالعبادات، كما قال ﷺ : « إن الرجلَ لَيُدْرِكُ بحُسنِ خلُقه درجةَ الصائم القائم »[١]، قال الجنيد: طريقتنا كلها آداب.

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٨٥٠ ومسلم رقم ٦٥٩ و ٢١٥٠، عن أنس ﷺ .

(٢) أخرجه مسلم رقم ٧٤٦.

(٣) حديث صحيح، أخرجه عن أبي هريرة ﷺ أحمد في مسنده رقم ١٠١١٠، والترمذي رقم ١١٦٢، وابن حبان رقم ٤١٧٦، ولفظ أحمد وابن حبان: لنسائكم، بدل: لنسائهم.

(٤) في بداية المبحث الخامس من الفصل الثالث من منظومة المباحث الأصلية، وهو في الأدب عند الصوفية.

(٥) ما له خَلاق: أي ليس له نصيب من الخير.

والأدب **الظاهر** هو الأدب مع الناس، وهو الذي يُعرَفُ **بالأخلاق** والآداب، ويدخل فيه: **الصدقُ ، والأمانة ، والعدل ، والتواضع ، والعفة ، والكرم ، والصبر ، والرحمة ، والحياء ، والشجاعة.**

ويدخل فيه آداب الأخوة وحقوقها وآداب البر والصلة وآدابُ اللباس والطعام والنوم والاستئذان وآداب الطريق والسفر وآداب التعامل المالي، وغيرها.

والصوفي يتأدب مع كل إنسان، حتى مع مَن لا نصيب له من الخير، كما أمر الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهذه نماذج من الأخلاق والآداب التي طالبنا بها الإسلام[٢] والتي هي مجال مهم من مجالات علم التربية والتزكية، أن نتحقق بها:

- الصدق: قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠]، وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقاً، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا »[٣]، والصدق يشمل الصدق مع الله، ومع الآخر، أياً كان، ومع النفس.

- الصبر: ومنه صبرٌ على الطاعة، وصبر على البلاء، وصبر عن المعصية، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ -

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٧٩٨، عن عائشةَ رضيَ الله عنها، وأخرجه أحمد رقم ٢٤٦٣٩ بلفظ: « ... درجات قائم الليل جائع النهار ».

(٢) انظر: مبادئ الإسلام، محمد حوى، ١٣٥-١٤٠.

(٣) صحيح البخاري، ٦٠٩٤، وصحيح مسلم، ٦٨٠٣.

مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاَةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا »[1]. يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب

- الحلم واللين والرفق والأناة: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: « لاَ تَغْضَبْ »، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: « لاَ تَغْضَبْ »[2]. و عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِلأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: « إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ »[3]، و عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ »[4].

ومن اللين أن يستغني المربي عن الضرب بحسن التربية، «ما ضرب النبي ﷺ امرأة ولا طفلاً ولا خادماً».

- الأمر بأداء الأمانة: ﴿ إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

- تحريم الظلم والبخل: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: « اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »[5].

ومن الظلم القتلُ بغير حق، قال ﷺ: « مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا »[6].

- التواضع: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال رسول الله ﷺ: « وَإِنَّ اللهَّ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ »[7].

---

(١) صحيح مسلم، ٥٥٦.

(٢) صحيح البخاري، ٦١١٦.

(٣) صحيح مسلم ٢٥.

(٤) صحيح البخاري ٦٩٢٧ ومسلم ٧٧.

(٥) صحيح مسلم، ٦٧٤١.

(٦) صحيح البخاري، ٣١٦٦، عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه.

(٧) صحيح مسلم، ٧٣٨٩.

ومن التواضع أن يحترم المسلم أئمة الاجتهاد، فلا يجزم بصوابه إذا اجتهد، ويَحتَمِل الخطأ، قال ﷺ : «وإذا استنزلوك على حكم الله، فلا تقبل، فإنك لا تدري أتحكم بحكم الله أم بحكمك»[1].

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي هو أسرع سبيل للإصلاح: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِّ وَالْوَاقِعِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا »[2].

- الإصلاح بين الناس: ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِّ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء: ١١٤].

- الوحدة وترك التفرق وأسبابِه: قال تعالى: ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾، وقال ﷺ : « ولا تباغضوا ولا تدابروا »، وقال ﷺ: « اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا »[3].

- برّ الوالدين وصلة الأرحام: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُّ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٢١]، وقال ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ إنما الواصل من وصل من قطعه».

- ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم وخفض الجناح لهم: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨].

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) صحيح البخاري، ٢٤٩٣.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

- حق الجار والإحسان إليه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال ﷺ : «والله لا يؤمن . . من لا يأمن جاره بوائقه».

- إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ : قال تعالى: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ [الشورى:٢٣].

- البر والمعروف للجميع، وتمني الخير لهم: قال تعالى: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:٧- ٨].

- القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاقِ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ [الفرقان: ٦٧].

- المحافظة على خصال الفطرة؛ أي تلك القضايا التي لا بد أن يراعيها كل إنسان سوي، وكلها يدعو إلى مزيد من الطهارة والنظافة والتجمل، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ »، قَالَ زَكَرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ - وهو أحد رواة الحديث: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ، زَادَ قُتَيْبَةُ، قَالَ وَكِيعٌ: « انْتِقَاصُ الْمَاءِ: يَعْنِي الِاسْتِنْجَاءَ »[1]، وذكر في حديث آخر من الفطرة: الخِتانُ[2].

(١) صحيح مسلم ٥٦، ومعنى الاستحداد: استعمال آلة الحلاقة لإزالة شعر العانة، واستنشاق الماء: إدخال الماء في الأنف، والمضمضة: إدخال الماء إلى الفم وتحريكه فيه، ومعنى البراجم: غسل الفراغات التي تكون في عُقد الأصابع، وانتقاص الماء: أن يتطهر بعد قضاء الحاجة.

(٢) أخرجه البخاري ٥٨٨٩، ومسلم ٤٩، عن أبي هريرة ﷺ.

ومن الأخلاق التي يعتني بها أهل التربية والسلوك، بتربية طلابهم عليها:

١. يحفظون حُرْمة الشيوخ والمربين والعلماء والأولياء والزُّهاد والعُباد والكبار، ويتأدبون معهم، ويحسنون الظن فيهم، قال ﷺ: « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرفَ كَبِيرِنَا »(١)، وقال ﷺ: « ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويَرحم صغيرنا، ويَعرِف لِعالِمنا حقَّه »(٢)، وقال ﷺ: «قوموا إلى سيدكم سعد»(٣)، ومن هذه الحُرمَةِ أن نَرُدَّ الأمر إلى أهل الاختصاص، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣].

٢. لا يتكلمون كلاماً ولا يتصرفون تصرفاً يؤذي الناس ويُوغِر صدورهم ويُؤلِمُ قلوبهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال ﷺ: « إياكم والظَّنَّ، فإن الظن أكذبُ الحديث، ولا تَحَسَّسُوا، ولا تَجَسَّسُوا(٤)، ولا تناجشوا(٥)، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا(٦)، وكونوا عباد الله إخواناً »(٧)، « ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام »(٨).

وقال ﷺ: « ولْيَأْتِ إلى الناسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه »(٩).

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١٩٢١ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال حديث حسن صحيح، وأخرجه بمعناه أحمد رقم ٧٠٧٣ وأبو داود ٤٩٤٣ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والحاكم ٧٣٥٣ عن أبي هريرة ﷺ، وبعضهم بلفظ: « حَقَّ كَبِيرِنَا ».

(٢) حديث حسن، أخرجه أحمد رقم ٢٢٨٠٧ عن عبادة بن الصامت ﷺ، وأخرجه الحاكم رقم ٤٢١ بلفظ: « ليس منا ... ».

(٣) عن أبي سعيد الخدري ﷺ يقول: « نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد، فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد قال ﷺ للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم ». جزء من حديث، أخرجه البخاري رقم ٣٨٩٥، وقد كان سعدٌ مصاباً، فأمر النبي ﷺ أصحابه بأن يقوموا ليعاونوه واحتراماً له.

(٤) (التحسس): قال الخطابي عن أصل كلمة التحسس: « وَأَصْل هَذِهِ الْكَلِمَة الَّتِي بِالْمُهْمَلَةِ مِنْ الْحَاسَّة إِحْدَى الْحَوَاسّ الْخَمْس، وَبِالْجِيمِ [أي التجسس] مِنْ الْجَسّ بِمَعْنَى اِخْتِبَار الشَّيْء بِالْيَدِ وَهِيَ إِحْدَى الْحَوَاسّ، فَتَكُون الَّتِي بِالْحَاءِ أَعَمَّ »، وقال بعض العلماء: هما بمعنى واحد، فتكون للتأكيد، وقيلَ: بِالْجِيمِ الْبَحْث عَنْ عَوْرَاتهمْ، وَبِالْحَاءِ اسْتِمَاع حَدِيث الْقَوْم.

(٥) (النَّجَش): أَنْ يزِيدَ فِي ثَمنِ سلْعةٍ يُنَادِي عَلَيْهَا فِي السُّوقِ ونحْوِهِ، ولا رَغْبَةَ لَه فِي شِرائهَا، بَلْ يقْصِد أَنْ يَغُرَّ غَيْرهُ، وهَذا حرامٌ، والمال الذي يحصله لنفسه أو يوفره على غيره بالنجش؛ مال حرام.

(٦) (التدابر): أن يُدِيْرُ الإنسان دُبَرَه لأخيه؛ وهو كناية عن الإعراض والاحتقار والمُعاداة.

(٧) أخرجه البخاري رقم ٥٧١٩ ومسلم رقم ٢٥٦٣، عن أبي هريرة ﷺ، وزاد مسلم: « ولا تنافسوا ».

(٨) أخرجه البخاري رقم ٥٧١٨ ومسلم رقم ٢٥٥٩، عن أنس بن مالك ﷺ.

(٩) أخرجه مسلم، ومعناه: فليتصرف مع الناس كما يحب أن يتصرف الناس معه، حُسْنَ ظَنٍّ، واحتراماً، وإكراماً.

٣. يسارعون إلى القيام بالواجبات، ولا يتأخرون عن المندوبات، من الأعمال والعبادات والمعاملات، ويؤدونها على حقها وكمالها، ويتعاونون فيها.

٤. يخدمون مشايخهم وإخوانهم، ولا يتكبرون عن الخدمة والمعاونة، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢]، وقال ﷺ : « من كان في حاجة أخيه؛ كان الله في حاجته »[١]، فمن مشى في قضاء حوائج إخوانه؛ أعانه الله تعالى وسهل له قضاء حوائجه، وقال ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد »[٢]، وقال ﷺ : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »[٣].

٥. يحترمون المسلمين ممن مضى من السلف، فلا يخوضون فيهم، ولا يذكرونهم بِشَرٍّ، قال ﷺ : « لا تَسُبُّوا الأمواتَ، فَإِنَّهُمْ قد أَفْضَوْا إلى ما قَدَّموا »[٤]، وقال ﷺ: « لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذهباً؛ ما بَلَغَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه »[٥]، ويحترمون كل مسلم، لما عنده من الإيمان والتوحيد، وتزداد حرمةُ كلِّ أحدٍ بحسب صلاحه وطاعته وبُعْدِه عن المعصية.

٦. يعدلون ولا يظلمون، ولا يأكلون حق غيرهم، يعدلون في المعاملة والتصرف والمال والكلام والشهادة، ويُنصِفون ولا يَحيفون ولا يَمِيلون، ولا يتعصبون لمن يحبون، ولا يدافعون عن باطل، ولا يَتهمون بالشك مَن لا يُحبون، ولا يبخسون الناس أشياءهم.

٧. ينصر أحدهم أخاه في الحق، ويكون عوناً في الدفاع عنه وفي تحصيل حقوقه، وينصره برده إلى الحق، قال ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »[٦].

---

(١) سبق تخريجه آنفاً.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٦٦٥ ومسلم رقم ٢٥٨٦، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٦٩٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري رقم ١٣٢٩ عن عائِشةَ رضي اللهَّ عنها.

(٥) أخرجه البخاري رقم ٣٤٧٠ ومسلم رقم ٢٥٤٠ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري رقم ٢٣١٢ وأخرج مسلم نحوه رقم ٢٥٨٤ وفيه: « إن كان ظالما فلينهه فإنه له نصر ».

المبحث السابع

الأسرة والمجتمع والبشرية

تمهيد:

من مجالات التربية تربية الأسرة وإصلاحها بتربية الأبناء وتزكية الزوجين لتكون الأسرة سعيدة فاعلة حاملة لرسالة الإسلام في الحياة ومطبقة لها، وذلك هو أساس صلاح المجتمع.

ومن مجالات التربية إصلاح الحالة الاقتصادية للأفراد والمجتمع والدولة، بحيث يكون الفرد مرتاحاً مكتفياً لا يضطر إلى عمل يرهقه ولا يكون على حساب واجباته وعباداته وصِلاته، وتكون الدولة في غنى عن غيرها.

ومن مجالات التربية إصلاح الحالة السياسية، بحيث يكون الحاكم عادلاً وعاملاً لمصلحة شعبه، ويعينه الشعب على ذلك.

ومن مجالات التربية فيما يتعلق بالتعامل مع مكوِّنات المجتمع:

حقوق الأخوة الإسلامية، وواجباتها وآداب التعامل بينهم، وقد أشرنا إليها مختصراً في الآداب.

وللتواصل الاجتماعي مع المسلمين آداب، ودراسة ذلك والتحقق به من مجالات علم التربية والتزكية والتصوف، ويدخل في ذلك ترك الأذى للمسلمين، معنوياً وحسياً، والتحقق بالوحدة والتناصح وآداب الصحبة.

ويدخل في تربية الأسرة: بر الوالدين وبر الأبناء وحسن العشرة بين الزوجين وصلة الرحم.

ويدخل في آداب التعامل في المجتمع: معاملة الجار، وآداب التواصل، والزيارة والضيافة والمجالسة والحديث وآداب التواصل الاجتماعي الإلكتروني المعاصر

ويدخل فيها: آداب المسلمين في المساجد، والآداب المرتبطة بحالة الموت

ومن مجالات علم التربية: الآداب المَعاشِيَّة، ويدخل فيها: آداب الطعام والشراب، وآداب النوم والاستيقاظ، وآداب دخول البيتِ والاستئذان وآداب الخروج، وآداب الرياضة واللعب، وآداب الطريق والركوب والمشي، وآداب السفر، وآداب التعامل مع الحيوان والنبات والجماد

والآلات. وكل ذلك مما يعتني به علم التربية ويجتهد المربي في إيصاله إلى الطالب، ويحثه على التحقق بآدابه الراقية.

ومن الآداب المعاشية: آداب المظهر والزينة، ومنها: النظافة والطهارة وآداب الفطرة، وزينة الجسم والكحل والعطر والشَّعر، وزينةُ اللباسِ والحُلِيِّ وآدابُها، ومنها قضية ترتيب الأشياء لتنتظم الحياة وتظهر جميلة.

ومن مجالات علم التربية في المجتمع: قضية التعامل مع أهل المنكر والمعصية والفساد والخطأ، وما هي أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما هي آداب التعامل مع أهل المنكر.

ومن مجالات علم التربية قضية التعامل مع غير المسلمين، وما هي أخلاقيات ذلك وآدابه، ويدخل في ذلك موضوعات مهمة كالدعوة إلى دين الله، وفهم قضية حرية الاعتقاد، والتعايش، والمواطنة، والجزية، والجهاد في سبيل الله، وآداب التعامل في ذلك كلِّه.

وفيما يأتي نبين بعض المعالم المهمة في هذا المجال باختصار:

المطلب الأول

الإنسانية والمجتمع

من مقاصد الإسلام العظيمة حفظُ الإنسان بكل كينوناته وعلاقاته، والارتقاءُ به إلى أسمى مكانة؛ سمواً في المشاعر والقيم والعلاقات والفكرة، وتمتين النسيج الاجتماعي للأمة، فمن أسس المنهاج الإنساني والاجتماعي في الإسلام[1]:

١. عدم إغفال معنى الإخاء الإنساني، والذي يدفع المسلم ليحرص على هداية كل إنسان، ويجعل المسلمَ يمنعُ الظلمَ عن كل إنسان، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال عز وجل: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

(١) انظر: مبادئ الإسلام، محمد حوى، صفحة ١٤٢ -١٤٨.

أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهَّ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ؛ إِلاَّ بِالتَّقْوَى »[1].

٢. نَظَّم الإسلام العلاقة بين مختلف دوائر الإنسانية؛ المسلمين وغير المسلمين، فأباح العلاقات التي تنفع الناس، ولا تضر بالمبادئ والمسلمين، وشرّع بين المسلمين الأحكامَ التي ترسخ العلاقات الإيجابية والإنسانية، وتؤكد التكافل، مثل أحكام الزكاة والصدقات وأحكام النفقة الواجبة للأقارب، ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَّ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي القُرْبَى وَالْجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَّ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء: ٣٦]، وحثّ على إطعام الطعام وخاصة في أيام الشدة، ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١١-١٦].

وجعل للفقراء حقوقاً أصيلة في أموال الأغنياء، وشرّع الأحكام التي تؤكد على تداول المال وعدم كَنْزِه، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ »، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِى فَضْلٍ[2].

٣. خطبة حجة الوداع، التي ألقاها النبي ﷺ على أعظم جمع للمسلمين في أواخر أيامه ﷺ، بين فيها جملة من المعاني الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية والتوجيهات السياسية، فكان مما قاله ﷺ: « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِى بَنِي سَعْدٍ، فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ،

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥ / ٤١٦)، وهو حديث صحيح.

(٢) صحيح مسلم، ٤٦١٤.

وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، فَاتَّقُوا اللهَّ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهَّ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهَّ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضرباً غير مبرّح[1]، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابَ اللهَّ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّى؛ فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ » قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: « اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ »[2].

٤. إن العناية العظيمة والشاملة للأسرة وتربيتها في الإسلام هو الطريق لإصلاح المجتمع وعلاقاته فالأسرة أساس تكوين المجتمع، إن أُصْلِحَتْ صَلَحَ.

المطلب الثاني

تربية الأبناء

قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم: ٦].

تربية الأبناء مهمة عظيمة شريفة، لها أثرها الكبير في المجتمع وإصلاحه وهدايته.

والمقدمة الأولى لتربية الأولاد هي الزواج الصحيح، وحسن الاختيار من الخاطبين.

وأعظم علامة على نجاح الوالدين في تربية الأبناء أن يصلوا إلى إقناعهم بأن التدين والخضوع لله؛ هو منهج الحياة، في العبادة والتعامل والأخلاق.

ويحتاج الوالدان ومُرَبِّي الأولادِ إلى جملة من الأخلاق حتى ينجح في تربية الطفل، فيحتاج إلى الصدق، والتواضع، والصبر واللين، مع الحزم، ويحتاج إلى الرحمة، والعدل، والكرم والإحسان، وسلامة الصدر، وحسن الظن، وخلق العَفْو، والسماحة، والعفة، والوفاء، والحكمة.

ومن أهم قواعد تربية الأبناء والأطفال: استعمال الكلام اللطيف والقول الحسن، والتعامل برحمة واحترام للطفل وحب وتَوَدُّد، وتوجيه الطفل إلى استخدام عقله باستثارة التفكير

---

(١) أي إن الضرب تأديبي، وله شروطه وأسبابه.

(٢) أخرجه مسلم عن جابر ﷺ.

لديه، واتباع أسلوب الإقناع العقلي والشرعي، مع التعليم لما يحتاجونه في حياتهم ودينهم ولآخرتهم، وعدمُ الاقتصارِ على أسلوب التلقين، والبعدُ عن أسلوب الإجبار، والحرص على التذكير بتكرار المعاني المهمة لغرسها عند الأبناء، وأن تراعى حاجة الطفل إلى اللعب والترويح بالمباحات، وأن يكون ذلك منضبطاً نافعاً، وتحبيب الصحبة الصالحة للطفل وتهيئة الرفقة الصالحة والبيئة المستقيمة له، والانتباه إلى حالات الطفل النفسية ومشكلاته، ومراعاة التَّدَرُّجِ في معاني التربية وتَنَوُّعِ طبيعةِ التعامل بحسب اختلاف الأعمار.

من معالم التربية الكبرى

أهم ما نربي عليه الأبناء

لقد لخص القرآن الكريم أهم المعاني والأمور التي نبربي عليه أبناءنا في قصة لقمان، وهي:

١. **التربية على توحيد الله تعالى، وعدم الشرك به،** قال تعالى: ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يَعِظُه: **يا بني لا تشرك بالله** إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان: ١٣]، فالإيمان بالله وتوحيده؛ هو أهمُّ وأوَّلُ ما نربي عليه، فنذكر أبناءنا بأنه لا يجوز لأحد أن يعبد إلا الله، فهو الخالق وهو الإله ا لمعبود وحده، ونذكرهم بأن يجعلوا الحكم لله في كل أمر، لأنه ليس للمملوك أن يتصرف في ملك سيده ومالكه إلا بإذنه، ونربيهم أن القدوة الذي يمثل أحكام الله، هو رسول الله ﷺ، وأن القرآن ينقل لنا أهم أحكام الله، ونربيهم على حب الله وحب رسوله ﷺ وحب القرآن والصالحين.

ومن ذلك نربي الأبناء على تعظيم الله وتعظيم الرسول ﷺ وتعظيم شأن الدين والإيمان والسُّنَّة وأحكام الشريعة الله، ونذكرهم بالحساب والجنة والنار، ونعرفهم بالحياة والكون والدنيا، فالحياة لها رسالة هي إرضاء الله تعالى وطاعته، والكون مسخر للإنسان ليستعمله كما أمره الله، والدنيا محلٌّ للاختبار وطريقٌ للآخرة، نأخذ منها حاجاتنا، ثم ننشغل بآخرتنا.

٢. **التربية على بر الوالدين،** قال تعالى: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

٣. **التربية على صحبة الصالحين**، قال تعالى: ﴿ واتبع سبيل من أناب إليَّ ﴾ [لقمان: ١٥]، فنحبب إليهم العلماءَ والأولياء، وصحبتَهم وطلبَ العلم عليهم، وأخذَ منهج أهل السنة عنهم، باتباع الكتاب والسنة، بفهم أئمة الاجتهاد وعلماء الأمة المقبولين.

٤. **التربية على الانتباه إلى رقابة الله وقدرتِه**، قال تعالى ذاكراً وصية لقمان: ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان: ١٦]، فإذا ربينا الولد أن الله يراه ويسمعه ويراقبه ويحصي أعماله، وغرسنا ذلك فيه؛ فإن ذلك يجعله مستقيماً، حريصاً على طاعة الله، حَذِراً من معصيته، ويَبقَى ضميرُه حيّاً، وينمو عنده الوازع الديني والأخروي.

٥. **التربية على الصلاة والمحافظة عليها**، قال تعالى ذاكراً قول لقمان لولده: ﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ [لقمان: ١٧]، فإن اهتم بها كان مهتماً بغيرها، وإن ضَيَّعها فكيف نرجو منه أن يحافظ على غيرها، وعلى المربي أن يقنع الولد بأهميةِ الصلاة، ووجوبِ المحافظة عليها، وثوابها عند الله، وعقاب تاركها، وأن يعلمه الخشوع فيها والحرص على الجماعة في المسجد.

ومثل ذلك نرغبهم بالفرائض والطاعات ونعرفهم بها، ونعلمهم قراءة القرآن الكريم بإتقان، ونحبب إليهم حفظه، ونحذرهم من المعاصي والكبائر، ونبين لهم خطورتها، ولا سيما الكذب والشهوات.

٦. **التربية على الأمر بالمعروف وإنكار المنكر**، قال الله تعالى: ﴿ وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر ﴾ [لقمان: ١٧]، والولد إذا أَمَر بالمعروف فإنه يكون أحرص على الإتيان به، وإذا نهى عن المنكر فإنه يكون أحرص على تركه.

٧. **التربية على خُلُق الصبر والتَّحمُّل وتَوقُّعِ البلاء**، قال تعالى: ﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ [لقمان: ١٧]، فذلك هو الأساس لحسن المعاملة مع الناس.

٨. **التربية على خلق التواضع**، قال تعالى في وصية لقمان: ﴿ ولا تُصعِّر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ [لقمان: ١٨]، والتواضع ينشأ عنه

العدل، فمن تواضع لا يظلم ولا يعتدي، لأنه لا يرى نفسه فوق الآخرين، وينشأ عن التواضع الصبر والمسامحة والتعاون والخدمة والحياء.

٩. **التربية على النظر إلى المقاصد والأهداف النافعة، وعدم التلهي عنها**، قال تعالى: ﴿ واقصد في مشيك ﴾ [لقمان: ١٩]، والآية كما تعني التواضع في المشي؛ تعني تربية الولد على أن يمضي لأموره المهمة وما يُطلبُ منه مِن غير أن يلتفت ويتلهى، فيكون نظره دائماً إلى هدفه، فيكون ذا همة ونشاط، يبحث عما يُصلِح حياتَه وسلوكَه، ويحرص على حمل رسالته، ليكون مُنتِجاً ونافعاً لنفسه وأمته، وليكون قادراً **التضحية لأجل الدين**، ببذل النفس والوقت والمال له، والعملِ لنصرته والدعوةِ إليه، والجهادِ في سبيل الله.

ونربي البنات أن الحجاب فرض الله، ليمنع انشغال الإنسان بشهوته الحيوانية المحرمة عن رسالة الحياة وواجباتها.

١٠. **التربية على خفض الصوت**، قال تعالى: ﴿ واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ [لقمان: ١٩]، فلا يؤذي بصوته أحداً.

فهذه إرشادات قرآنية في تربية الأبناء، جاءت على لسان لقمان الحكيم، فأخبرنا بها القرآن تعليماً بأهميتها، فمن نجح فيها نجح في جميع مناحي التربية للأبناء بإذن الله.

المطلب الثالث

تربية الزوجين على حسن العشرة

ـ شرع الله الزواج ليكون سبيل تحقيق خُلُقٍ مِن أسمى الأخلاق، وهو العفة، حيث يقضي الإنسان شهوته وحاجته بما يكفيه، ويَعِفُّ عن نساء الناس، وقد كمّل الله هذا التشريع بأن أوجب على النساء الحجاب وعلى الرجال غض البصر، وحَرَّمَ الخلوة والخلطة اللتين تفتحان باب الفتنة، وحرَّم الزنا، ليعيش الإنسان لأهدافه السامية التي خُلِق لها، ولا يَنشغل بالشهوات عما خُلِق له، ويجد في الزواج المباح ما يقضي حاجته الجسدية والنفسانية من الشهوة، كما أن الزواج وما يترتب عليه من تناسل سبب في بقاء النوع الإنساني.

وجعل الله تعالى الأسرة التي تنشأ بالتزاوج هي الرابط والنَّسيجُ يَرعى فيه القرابةُ بعضهم بعضاً، ويتكافلون فيه ويتعاطفون، إضافة إلى التعاطف الإيماني في المجتمع المسلم كلِّه.

ـ إن الإسلام أراد للزوجين حياة السعادة والتعاون والتفاهم والمودة والتراحم والبناء، فأوجب الله على الزوجين حسن العشرة فيما بينهما، من حسن الكلمة والبسمة، وإعفاف كلٍّ من الزوجين للآخر بقضاء شهوته بالحلال، والتعاون على حاجات الحياة وضرورياتها، والتعاون والتكامل بين الزوجين على تربية الأبناء، وهذه التربية هي الأساس لبناء مجتمع أخلاقيٍّ حضاريٍّ مؤمنٍ متراحمٍ مثقَّفٍ بَنّاءٍ متكاملٍ. ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾

وشرع الإسلام للأسرة وما يتفرع منها من عشيرة قوانين تضبط العلاقات، فأوجب تربيةً ورعايةً وتعاوناً ونفقة وحضانة وصلةَ رحمٍ وميراثاً وغير ذلك.

وشرع الله تعالى الزواج ليكون سبباً في **إيجاد الأسر** واستمرار النوع الإنساني، وليكون سبباً في **تحصين الزوجين** من الفاحشة والحرام، فيجب أن تحقق العلاقة الزوجية هذين المقصدين، فأوجب الله حُسْن العِشرة وحسن المعاملة في العلاقة بين الزوجين، ليكون أهل البيت المسلم في سعادة وتراحم وحب، وحتى في حالة عدم الحب؛ فلا بد من الاحترام المتبادل، ولا بد أن يُعطِي كلٌّ واحد منهما صاحبَه حقوقه بالحد الأدنى.

وعندئذ يستطيع الزوجان القيام بطاعة الله وعبادته والدعوة إلى دينه، مع تحقيق التربية للأبناء، ولا يتحقق ذلك إلا بخُلُق رفيع من الطرفين.

من المعالم الكبرى للتربية

آداب المعاملة والعشرة بين الزوجين

١ . من أدب الزوجين: **بناء الزوجية على مبدإٍ صحيح ومقصد صحيح**، والوصول إلى ذلك **بطريق صحيح**، قال رسول الله ﷺ : « إذا خطب إليكم من ترْضون دينه وخُلُقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض »[١].

---

[١] حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ١٠٨٤ عن أبي هريرة ﷺ.

وقال ﷺ: « تُنكَحُ المرأةُ لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك »[1].

٢. من أدب الزوجين: **حسن التعامل مع مسألة الإمارة والإدارة في البيت،** فقد جعلها الله للزوج، قال تعالى: ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ [النساء: ٣٤]، والقِوامة تعني أن يحسن الإدارة للبيت ويتولى شؤونه من غير تقصير ولا إساءة، وتعني الإحسان ورعاية المصلحة وحفظ الرعية، وليست القِوامَة تسلُّطاً وتكبراً وإساءةً واستعباداً واستغلالاً.

ومجال القوامة في الأمور المباحة، فأما ما أوجبه الله فهو واجب لا ينتظر أمر الزوج، وأما ما حرمه الله فأمر الزوج به لا يجعله مباحاً ولا واجباً.

وللزوجة أن تبدي رأيها ومشورتها، لكن إذا قرر الزوج قراراً فعليها أن تعمل به، ما دام لا يخالف أمر الله، وعلى الزوج أن يحاور زوجته، ويتفاهم معها، ويتعقل آراءها، وهي كذلك، ولا ينبغي لأحدهما أن يحتقر الآخر وعقله ورأيه.

٣. من أدب الزوجين: **أن يعرف كل واحد منهما وظيفته،** فيكمل أحدهما الآخر.

ومن **وظيفة الزوج**: طلبُ الرزق والإنفاقُ على الزوجة، وفقاً لطبيعته الخَلْقية والعقلانية، ومن **وظيفة الزوجة** قضاءُ حوائج الزوج في البيت، ورعايةُ الأسرة والأبناء، وإدخالُ السرور والسكينة على أهل البيت، وفقاً لطبيعة المرأة الخَلْقية والعاطفية.

٤. من واجب الزوجين: **أن يقضي كل واحد منهما حاجة الآخر من الشهوة،** فيعفه ويحصنه، قال تعالى: ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ [النساء: ١٩]، وقال ﷺ: « وإن لزوجك عليك حقاً »[2]، وقال ﷺ: « إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتجبه، وإن كانت على التَّنُّور »[3].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٨٠٢ ومسلم رقم ١٤٦٦ عن أبي هريرة ﷺ، وقوله: (تربت يداك): عبارة استعملها العرب بمعنى: حَظِيتَ بشيء عظيم.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري رقم ١٨٧٤ ومسلم رقم ١١٥٩، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ١١٦٠ وابن حبان رقم ٤١٦٥ والبيهقي رقم ١٤٤٨٧ عن قيس بن طلق عن أبيه ﷺ.

وقد بين النبي ﷺ أن الزوجة الصالحة هي أجمل شيء في الدنيا وأعظم لذة فيها، فقال: « الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[1]، والمرأة الصالحة لا تصنع علاقة شهوانية إلا بالحلال والزواج، وهي تعف زوجها وتسعده وتدخل السرور عليه بتَجَمُّلِها وبكلامها الطيب وبحسن معاملتها وبطاعتها له، روي أن النبي ﷺ قال: « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته »[2].

٥. من أدب الزوجة وواجبها: أن تكون **مطيعة لزوجها،** فتفعل ما يأمرها به ما لم يأمرها بحرام، وما لم يكلفها ما لا تطيق، وتكون ليِّنة مِطواعة لزوجها، لا تعاند ولا تنكِّد.

ولا ينبغي للزوج أن يأمر الزوجة بمعصية، قال ﷺ: « لا طاعة لمخلوق في معصية الله »[3].

٦. من واجب الزوجين: **أن يحفظ كل منها مال الآخر، وأسراره وسمعته وعرضه،** وذلك من دواعي الودّ والمحبة ودوام الزوجية وسعادة الحياة.

والزوج يحفظ مال زوجته، ولا تمتد يده إليه، إلا بإذنها، مهراً كان أو ميراثاً أو غيره، قال تعالى: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾.

٧. ومن أدب الزوجين: **أن لا يتصرف أحدهما تصرفاً يثير الشك عند الآخر،** فالشك يَذْهَبُ بحسن الظن، ويُفسد العلاقة، ويعكر القلوب، وعندئذ تكون كالإناء إذا انكسر أو انشعر لا يَجبُرُه شيء.

٨. ومن أدب الزوجين: **أن لا يتطاول أحدهما على الآخر بلسانه وكلامه؛** بالسب والشتم، قال ﷺ: « ولا تضربِ الوجه، ولا تقبِّح[4]، ولا تهجر إلا في البيت »[5].

---

(1) أخرجه مسلم رقم ١٤٦٧، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) حديث حسن، يشهد لمعانيه نصوص كثيرة، أخرجه أبو داود في سننه رقم ١٦٦٤ والحاكم رقم ١٤٨٧ والبيهقي في السنن الكبرى رقم ٧٠٢٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونحوه ابن ماجه رقم ١٨٥٧ عن أبي أمامة ﷺ.

(3) حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ١٠٩٥ عن علي ﷺ، وبمعناه في مسلم ١٨٤٠ عن علي ﷺ، ورقم ١٨٣٩ والترمذي رقم ١٧٠٧ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(4) (ولا تقبح): أي لا تقول لها: قبحك الله.

(5) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٢١٤٢ والنسائي رقم ٩١٧١، ونحوه عن أحمد ج ٥ ص ٣.

٩. ومن أدب الزوجين: **أن لا تمتد يد أحدهما إلى الآخر بالأذى والضرب،** قال رسولُ الله ﷺ: « لاَ تَضْرِبُوا إِمَاءَ الله » فَجاءَ عُمَرُ ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فَقَالَ: ذَئِرْنَ[1] النِّساءُ عَلَى أَزْواجهنَّ، فَرَخَّصَ في ضَرْبهِنَّ فَأَطاف بِآلِ رسولِ الله ﷺ نِساءٌ كَثِيرٌ يَشْكونَ أَزْواجهُنَّ، فقال رسول الله ﷺ: « لَقَدْ أَطَافَ بآلِ بَيْت مُحَمَّدٍ نِساءٌ كَثير يشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ، لَيْسَ أُولئِك بخيارِكُمْ »[2].

١٠. ومن أدب الزوجين: **أن لا يفرض أحدهما على الآخر ضيوفاً عليه في بيته يكرههم** بغير إذنه ورضاه، قال ﷺ: « ولكم عليهنّ ألا يوطِئْنَ فُرُشَكم أحداً تكرَهونه »[3].

١١. من حسن المعاملة والمعاشرة بين الزوجين: **عدم النشوز من أحدهما،** ونشوز المرأة هو خروجها عن طاعة زوجها ومنعه من التمتع بها وخروجها من بيتها بغير إذنه وبغير سبب شرعي مقبول، ونشوز الزوج هو خروجه عن حد المعاملة الجائزة شرعاً مع زوجته، وإعراضه عن أداء حقوقها، فكأنه خرج عن طاعتها وما يجب لها، ونشز عن طريقه المرسوم له وخَرَج، قال تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ﴾ [النساء: ١٢٨].

١٢. ومن آداب الزوجية: **أن يعدل الزوج بين الزوجات،** و**الموازنة السليمة الحكيمة بين إرضاء الزوج والزوجة وبين إرضاء الآباء والأمهات والأهل،** وفق العلم والحكمة والمصلحة، وإذا حصل طلاق بين الزوجين فلا يسيء أحدهما للآخر ولا يشهر به.

المطلب الرابع

الإصلاح الاقتصادي

شرع الإسلام أحكاماً فقهية في المعاملات المالية، من التزم بها حقق مقاصدها الأخلاقية، وفي علم التربية والتزكية يعتني المربون ببيان الجانب الأخلاقي لهذه المعاملات، ليحرص المسلم عليه، ولا تكون معاملاته خالية من الحالة القلبية السليمة معها.

---

(١) (ذئرن): أي اجْتَرَأْنَ وتَطاوَلْنَ وعَصَيْنَ.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٢١٤٦ والحاكم رقم ٢٧٦٥.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٢١٨ عن جابر ﷺ.

وهذا مجال مهم من مجالات التربية والتزكية والتصوف، وهو يتكامل مع اعتقاد المسلم وتصوراته حول المال والدنيا، ويتكامل مع حالة المسلم القلبية من الزهد، ويتكامل مع حالة المسلم الأخلاقية السلوكية من الإحسان والكرم والإيثار، كما لا يتحقق مقصود هذا المجال إلا بدراسة الجانب الفقهي تطبيقه.

ولما كانت المعاملات المالية تدور يومياً بين المجتمع، فإن هذا المجال لا يختص بالفرد وعلاقته مع نفسه، بل هو مجال له تأثيره على المجتمع كله، وصلاح هذا الجانب له أثره الكبير في صلاح المجتمع وتزكيته.

وعلى الدولة أن تُلزِم الناسَ بالأحكام الشرعية في المعاملات، والآداب الأخلاقية المقصودة منها، ليتم الإصلاح الاقتصادي، ولا يتم ذلك إلا بتحقيق العدل والأحكام التي تَضْمن تحقيق العدل، فإذا التزم المسؤولون بذلك تحقق الإصلاح الاقتصادي في المجتمع والدولة، وكان رحمة وسعادة ورفاهية للشعب.

وإلى بيان أهم آداب التعامل المالي.

من المعالم الكبرى في التربية للمجتمع

آداب المسلم في المعاملات المالية

أمرنا الله تعالى بآداب وسلوكيات في المعاملات المالية، مَن تأدَّب بها يتحقق بأخلاق محمودة، ويحقق المصالح التي لأجلها شرعت أحكام المعاملات، ومن أهم ذلك:

١ . **النية الصالحة في طلب المال،** قال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى »[1]، فينوي المسلم في عمله وكسبه للمال إعفافَ نفسِه عن الحرام، وعن ذُلِّ السؤال، وينوي في إنفاقه على نفسه التقوي على طاعة الله، وينوي القيام بالحقوق التي أوجبها الله عليه، فينفق على عياله ويصل رحمه، ويزكي ماله ويتصدق، وينوي أن يبذل من ماله لتحقيق فروض الكفايات، التي

(١) أخرجه البخاري رقم ١، ومسلم رقم ١٩٠٧ عن عمر بن الخطاب ﷺ، ولفظ مسلم: بالنية.

تنصر الحق وأهله، وتحمي الأمة وترفع شأنها، وينوي مساعدة الباحثين عن عملٍ، بتوفير فرص عمل لهم، من خلال أعماله وأمواله.

٢. وحينما يُعطِي المالَ؛ يُقدِّمه **بنية طيبة ونفس طيبة، تنطوي على احترام الناس وإكرامهم وحب الإحسان إليهم،** قال ﷺ : « أيها الناس؛ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً »(١).

٣. **الالتزام بأحكام الله، والاكتفاء بالحلال والطيبات، وترك الحرام والخبائث،** فلا يطمع في مال أو تجارة حرمها الله، ولا يطمع بزيادة ماله بالربا والرشوة، والغش والتدليس، والغرر والاحتكار، ولا يقامر، ولا يأكل دَيْناً، ولا يستعمل ماله في الإفساد وتجارة الشهوات أو المخدرات، ولا يتاجر بالمحرمات كالخمر والميتة ولحم الخنزير، قال تعالى: ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٤. أمرنا الله عز وجل ورسولُه ﷺ **بالصدق** في كل أمر، وخص المعاملات المالية بالتنبيه، فحرم علينا الحلف الكاذب على السلعة وترويجها، قال ﷺ : « التّاجرُ الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء »(٢).

٥. يلتزم المسلم **بالعقد والعهد والوعد** في المعاملة، ويلتزم بما يترتب على العقود من حقوق تجاه الآخرين؛ من نَقْلٍ لِمبيعٍ، أو تمكينٍ مِن منفعةٍ، أو قيام بعمل، أو دفع لثمن أو أجرة، أو غير ذلك، قال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾، وقال ﷺ: « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، **وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمِن خان** »(٣).

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم رقم ١٠١٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث حسنه بعض العلماء، أخرجه الترمذي رقم ١٢٠٩ والدارقطني رقم ١٨ والدارمي رقم ٢٥٤٢، والحاكم رقم ٢١٤٢ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٣٣ ومسلم رقم ٥٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٦. حرم الله **التحايل للوصول إلى المال الحرام**، أو التحايل لتضييع حقوق الآخرين، فالتحايل نوع من الكذب والتزوير، وواجب المسلم أن لا تكون له نية خبيثة ولا قصد فاسد، قال النبي ﷺ: « بيعُ المسلم لا داءَ ولا خِبْثَةَ ولا غائلةَ[1] »[2].

٧. ومن أدب المسلم في المعاملات المالية: **أداء حقوق الله**، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، ومن حقوق الله: الزكاة المفروضة.

٨. ومن أدب المسلم في المعاملات المالية: **أداء حقوق الناس**، سواءاً أكانت أجورًا للعاملين، أم كانت أثماناً أو ديوناً للآخرين، أم كانت ميراثاً، أم كانت مهراً، أو غير ذلك، قال ﷺ : « أَعْطُوا الأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ »[3]، وقال ﷺ : « مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ »[4].

٩. ومن أدب المسلم في معاملاته المالية: **النُّصْح**، فقد أمر النبي ﷺ بالنصح لكل مسلم[5]، فواجب المسلم أن ينصح أخاه فلا يغشه في أي أمر، ومن ذلك المعاملات، فلا يجوز أن يغشه في وصف السلعة، أو في سعرها، أو في نفعها وجَدْواها.

١٠. ومن أدب المسلم في المعاملات المالية: **ترك الغرر**، وهو الشيء الذي يحتمل أكثر من احتمال، كبيع المعدوم، وبيع المجهول، وبيع المنابذة، وبيع ما لا يقدر البائع على تسليمه، وبيع ما لم يملكه البائع، أو لم يتم ملكه له، « نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة[6]، وعن بيع الغرر »[1].

---

(١) قوله: (لا داء): أي لا عيب ولا غش، فلا يخفي عنه عيوباً باطنة أو ظاهرة، (ولا خبثة): أي لا يكون البيع في ما هو خبيث محرم غير مشروع، (ولا غائلة): لا خيانة ولا كذب ولا احتيال.

(٢) حديث حسن، أخرجه البخاري تعليقاً قبل رقم ١٩٧٣ وأخرجه الترمذي رقم ١٢١٦ وابن ماجه رقم ٢٢٥١ عن العَدّاء بن خالد بن هَوْذَة.

(٣) حديث حسن، أخرجه ابن ماجه، رقم ٢٤٤٣ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، والبيهقي في السنن الكبرى رقم ١١٤٣٤عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري رقم ٢١٦٦ ومسلم رقم ١٥٦٤، عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: « بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة **والنصح لكل مسلم** » أخرجه البخاري رقم ٥٧ ومسلم رقم ٥٦.

(٦) (بيع الحصاة): أن يرمي حصاة نحو سلع متفاوتة القيمة، والسلعة التي تصيبها الحصاة؛ تلزمه بالسعر المحدد مسبقاً، ويسمى بيع المنابذة.

١١. ومن أدب المسلم: ترك **الخِداع والغش**، كإخفاء العيب في المبيع، أو يُظهِر ما كان من البضاعة جيداً، ويخفي ما كان منها رديئاً، قال ﷺ: « مَن غَشَّ فليس مِني »[٢]، ومن الخداع: بيع التناجس، وهو طريق للتوصل إلى مال حرام بالباطل، قال رسول الله ﷺ: « ولا تناجَشُوا[٣] »[٤].

١٢. ومن أدب المسلم في المعاملات المالية: أن لا يأكل مالاً بغير سبب شرعي، **فالقمار والميسر واليانصيب وطرق النصب والاحتيال ليست سبيلاً إلى تملك الأموال**، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾، والميسر هو القمار، وقال ﷺ : « ومن قال لصاحبه: تَعالَ أُقامِرْك فَلْيَتَصَدَّق »[٥].

١٣. ومن أداب المسلم في المعاملات: **عدم الاستغلال**، فالمسلم يعامل الناس بالإنصاف والمداراة والترفق، **فلا يستغل** جهل جاهل، أو عجلة مستعجل، أو اضطرار مضطر، قال تعالى: ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ [هود: ٨٥][٦]، ولا يحتكر المسلم طعاماً أو سلعة يحتاجها الناس، قال ﷺ : « لا يحتكر إلا خاطئ »[٧]، ولا يتصرف المسلم تصرفاً تجارياً يكون سبباً في الغلاء على الناس، قال ﷺ : « **لا تَلَقَّوا الرُّكبان، ولا يَبِعْ حاضِرٌ لِبادٍ** »[٨].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٥١٣ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٠٢ والترمذي رقم ١٣١٥ والحاكم رقم ٢١٥٥ وابن حبان رقم ٤٩٠٥، وفي روايات: « منا » بدل « مني »، وفي روايات « ليس منّا من غشَّ »، وبعض الروايات لم تذكر القصة، انظر: مسلم رقم ١٠١ وأبو داود رقم ٣٤٥٢، وابن ماجه ٢٢٢٤.

(٣) (النَّجَش): أَنْ يزِيدَ فِي ثَمنِ سلْعةٍ يُنَادِي عَلَيْهَا فِي السُّوقِ ونحْوِهِ، ولا رَغْبَةَ لَه فِي شِرائِهَا، بَلْ يقْصِد أَنْ يَغُرَّ غَيْرَهُ، وهَذا حرامٌ، والمال الذي يحصله لنفسه أو يوفره على غيره بالنجش؛ مال حرام.

(٤) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) جزء من حديث، أخرجه البخاري رقم ٤٥٧٩ ومسلم رقم ١٦٤٧ عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) وقد ضعف المحدثون حديثاً أن النبي ﷺ نهى عن بيع المضطر، والفقهاء يعملون به، والآية المذكورة تشهد لصحة معناه.

(٧) صحيح مسلم كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات رقم ١٦٠٥. عن معمر بن عبد الله ﷺ

(٨) أخرجه البخاري رقم ٢٠٥٠ ومسلم رقم ١٥٢١، وأبو داود رقم ٣٤٣٩، وابن ماجه رقم ٢١٧٧، عن ابن عباس رضي الله عنهما. نهى ﷺ عن التلقي، حيث يخرج التاجر إلى طريق المزارعين قبل أن يصلوا إلى المدينة، فيتلقاهم ويشتري التاجرُ الحاضرُ السلعةَ أو الثمارَ لنفسه من المزارع البادي، مستغلاً جهله بالسعر، لعدم وصوله إلى السوق، فيَغْبُنَه، ويأخذ السلعة بسعر رخيص، ثم هو يبيع السلعة بأي سعر شاء لأهل الحاضرة؛ مستغلاً حاجتهم إليها، وجهلهم بقيمتها، فيغلي عليهم.

١٤. من أدب المسلم في المعاملات المالية: **إقامة العدل، وترك الظلم**، وهذا مقصد من مقاصد التشريع الإسلامي في جميع أحكام المعاملات المالية وغيرها، قال تعالى: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل: ٩٠]، وقد حُرِّم الله كل ما فيه ظلم وتعدٍّ، ومن ذلك: **الرشوة**، قال ﷺ: « لعن الله الراشي والمرتشي »، ومن ذلك: **عدم إعطاء العامل والأجير والموظف ما يقضي حوائجه**، وعدم معاملته معاملة إنسانية كريمة[1]، قال ﷺ: « فَمَنْ جَعَلَ اللهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ؛ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ يُكَلِّفُهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ »[2].

١٥. ومن أدب المسلم في المعاملات: **ترك الربا**، فالربا ظلم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ **لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، والربا من

وكذلك حينما يصير الحاضر سمساراً للبادي، فلا يشتري لنفسه، لكنه يبيع للمزارع سلعته على مهل، فيتحكم في السعر، فيغلي على أهل الحاضرة، ويزيد أجرته في سعر السلعة، بدلاً من أن يبيعها المزارع البادي بأرخص من ذلك، لأنه يرغب بالإسراع في الرجوع إلى باديته أو بستانه.

(١) في زماننا نجد بعض العمّال يستغرق العمل أوقاتهم وجهدهم، بحيث لا يستطيع العامل أن يرى أهله، أو يصل رحمه أو يصلي في جماعة أو يقوم شيئاً من الليل، وربما يمضي سنوات بعيداً عن زوجته وأولاده، وإذا رآهم لم يستطع أن يقوم بحقهم من العطف والتربية والمؤانسة والمداعبة.

نجد عمالاً كالعبيد لصاحب العمل، لا شغل له إلا ما يطلب منه مديره، يعيش في غرفة صغيرة ينام فيها، لا يعرف معنى الحياة، ولا مقصودها، منهك في عمله، مشغول فكره بمشاغل العمل سواء كان في داومه أم خارجه، يعيش أسوأ مما كان يعيش العبيد، جهده لغيره، وكسبه لغيره، وما يأخذه من المال، لا يُسعِدُه، ولا يتيح له وقتاً لعبادة أو مشاركات اجتماعية، ولا ليذوق زينة الله التي أخرج لعباده، فلا يعرف طعم النعم، كل ذلك عَكَّره أو أفسده العمل مع هذه الحالة.

يبادره المرض وهو في شبابه من ضغط العمل وإرهاقه النفسي والجسدي، بذل حياته لمخلوق غيره، ولم يَجْنِ من العمل وراتبه شيئاً إلا القهر والذل والهوان والاستعباد والمرض والعزلة عن الأهل والمجتمع وملاحقة هموم صاحب العمل وتَحَمُّلِها عنه، ويعمل ليموت، يعمل ليقتله العمل، يستميت لترتقي مرتبته في العمل؛ لعله يرتاح قليلاً ويتفرغ لأبنائه شيئاً ما، فإذا حصَّل الترقيةَ زاد همُّه، وثَقُلَ حِملُه، وذهبت بقية وقته.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٧٠٣ ومسلم نحوه رقم ١٦٦١ عن أبي ذر ﷺ.

الكبائر، كما أخبر النبي ﷺ، ولعن ﷺ من يشارك في عملية الربا، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، ومُوْكِلَه[1] وكاتبه وشاهديه وقال: « هم سواء »[2].

ومَن عَلِم أضرار الربا[3] وتدميره للمجتمعات أخلاقياً ومالياً؛ لا يستغرب أن يجد في الإسلام عشرات الأحاديث تُحَرِّم الرِّبا وتُحَرِّم الوسائلَ والحِيَلَ المؤدية إليه.

فمن أضرار الربا الخُلُقية والاجتماعية:

١. ظلم صاحب المال المقرض للمقترض ﴿ لا تظلمون ولا تظلمون ﴾، وهو يولد العداوة والبغضاء بين المجتمع، ويؤدي إلى تفكك الروابط وإلى الحقد والحسد.

٢. تصير نفوس المرابين أنانية تعبد المال وتتكالب على جمعه، وتفقد الإنسانية والشفقة والرحمة للفقراء والمحتاجين والعمال.

٣. الربا يؤدي إلى عدم وجود القرض الحسن، فتموت روح التعاون والإحسان، وتتحول الروابط الاجتماعية إلى مالية مادية بحتة، بعيدةً عن منطق الإنسانية.

ومن أضرار الربا الاقتصادية، والتي لها انعكاسها الخطير على المجتمع:

٤. يزيد فقر المقترضين إلى فقرهم، فلا يتخلصون طول حياتهم من شَرَكِ الربا والمُرابِين، فيصير الناس عُمّالاً وأجراءَ بلا مقابل عند المرابي، إذ قد لا يربحُ المستقرِضُ بعد جهده وتعبه؛ مقدارَ ما يأخذه المرابي وهو قاعد بلا جهد ولا تعب، وذلك يجعل حياة المقترض تعيسة بائسة، لا أمل فيها.

٥. يجعل المال متداولاً بين طائفة خاصة من المجتمع، ويؤدي هذا إلى وجود الطبقات، وتذهب الطبقة الوسطى، وتزداد الحاجة والفقر والإرهاق، وتكون أموال الأمة قد تركزت كلها بيد المرابين، حتى يصبح كل شيء ملكاً لهم، ويتحكمون بأرزاق الناس ومعايشهم، ويوجهون سياسات البلاد كما يشاؤون.

---

(١) (آكل الربا): هو الذي يُقرِض المال ثم يأخذ الزيادة، (ومُوْكِله): أي معطيه، الدافع.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٥٩٨.

(٣) انظر كتاب: تحريم الربا في الإسلام والديانتين اليهودية والمسيحية، للدكتور محمد رامز عبد الفتاح العزيزي، ٢٩١-٢٩٦.

٦. **ومن أضرار الربا الإنتاجي**: الربا يمنع الأغنياء من الاشتغال بالمكاسب، لأن صاحب المال إذا تمكن بواسطة وضع ماله في البنوك من الحصول على الفائدة الربوية؛ لم يغامر في أي مشروع حقيقي نافع للأمة من تجارة أو صناعة أو زراعة، فيقعد والمال يأتيه، فيعيش عالة على غيره، فيكون غير مُنتِج، ولا يهمه التفكير في الإنتاج والنفع.

٧. **ومن أضرار الربا على مستوى الدولة**: تعامل الدولة بالربا يجعلها تحت سيطرة أعدائها، من خلال القروض الربوية التي تفرض بها الدول والجهات المقرِضة سيطرة وتحكماً اقتصادياً، يؤدي إلى التحكم بالسياسات، وفَرْضِ الإرادات.

١٦. من أدب المسلم في تعامله المالي مع الآخرين: **التسامح والتكافل والتعاون**:

فلا يكون المسلم أنانياً لا يبالي بالآخرين وحاجاتهم، بل هو إنساني يشعر بآلام الآخرين واحتياجاتهم، قال ﷺ: « إن الأشعريين إذا أَرْمَلوا[1] في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم في المدينة؛ جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم »[2].

فالمسلم فرد بين مجتمع، يحتاجهم ويحتاجونه، يتكاتفون ويواسي بعضهم بعضاً، ويحمل هَمَّ الأمة، فيشارك بماله في تأدية الحقوق العامة للمسلمين ونصرتهم وعونهم.

والدولة من خلال بيت مال المسلمين تقوم بالكفالة العامة، بقدر ما تملك خزائنها من مال، فتكفل كل من يحتاج، ممن لا مال عنده، ولا عمل له، ولا يجد من يسد حاجته، ولا من ينفق عليه، تكفلهم في الطعام والشراب واللباس والمسكن والطبابة والتعليم وغير ذلك من ضروريات الحياة، كما تتولى شؤون العجزة وذوي العاهات والإعاقات وإيواءهم، عند عدم وجود من يتولاهم من أقاربهم.

ومجتمع هذا شأنه لا يحتاج إلى شركات تأمين، هدفها المال أولاً، وليس التكافل والتراحم.

---

(١) (أرملوا): أي لم يبق معهم طعام.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٢٣٥٤ ومسلم رقم ٢٥٠٠ عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

١٧. من أدب المسلم في التعامل مع المال والممتلكات: **الاعتدال، وترشيد الإنفاق، وتوفير الطاقات، وعدالة التوزيع لها، وحسن الانتفاع منها والاستمتاع بها،** فلا إسراف ولا تبذير ولا هدر للطاقات والأموال، ولا محاباة ولا طبقية.

فالمال ملكك، لكن الموارد ملك للجميع، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، وقال النبي ﷺ: « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مَخِيْلَةٍ »[١] [٢].

المطلب الخامس

من معالم التربية الكبرى في المال

الاعتدال في اللباس والطعام

ومن أهم المعالم التي يعتني التصوف في التربية عليها فيما يتعلق بالحالة الاقتصادية والمالية للفرد وتنعكس على المجتمع بشكل كبير؛ قضية الطعام واللباس.

إن من أعظم المؤشرات على وجود الزهد في القلب أو عدمه؛ حال الإنسان في التعامل مع **الطعام واللباس،** والشريعة لم تمنع الأكل واللباس، وإنما وضعتْ قواعدَ، وأَلْزَمَتْ بالاعتدال في استعمالهما، فالشريعة تجمع بين الدنيا والآخرة، وبين حق الله وحق النفس وحق الآخرين، وبين صلاح الظاهر وصلاح الباطن، والشريعة تُفَرِّقُ بين حاجةٍ وضرورة ومباح، وبين تَرَفٍ وفُضُولٍ وإسراف وتبذير وحرام.

وينبغي على الطالب السالك أن يتأدب بآداب اللباس والطعام التي تتناسب مع السعي إلى مقام الصدق والإحسان والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

---

(١) حديث حسن، أخرجه البخاري تعليقاً قبل حديث رقم ٥٤٤٦، وأخرجه أحمد رقم ٦٦٩٥ والنسائي في السنن الكبرى رقم ٢٣٤٠ والحاكم رقم ٧١٨٨ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، و (الإسراف): أن يَصْرِف المال فوق الحاجة، و (مخيلة): التكبر والافتخار على الآخرين.

(٢) وانظر مزيداً من التفصيل والآداب في كتاب: التزكية على منهاج النبوة، ج٤أ، معاذ حوى، وانظر: مبادئ الإسلام ص١٧٥ – ١٧٩، تحت عنوان: جملة خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام.

فالثياب هي من نعم الله على الإنسان، يجب أن يشكرها، وأن يستعملها في مراد الله، ولا يتجاوز أمر الله بتبذير أو إسراف أو تكبر واختيال، فقد امتن الله بها علينا، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾، ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، وقال ﷺ: « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مَخِيْلَةٍ »[1].

والإنسان يُسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، والإنفاق على الثياب جزء من هذا السؤال يوم القيامة، فإن كان اللباس حراماً استحق العقاب عليه، وإن كان حلالاً سئل عنه، وربما يكون قد توسع وأسرف، وربما يكون قد قَدَّمَ لباساً حسناً على صدقة واجبة.

وقد توسع الناس وكثير من المسلمين في اللباس وأسرفوا فيه كثيراً، وشَغَلَ قلوبهم، وأخذ من أوقاتهم كثيراً، وتفاخروا به، ونظروا إليه كثيراً، وبذلوا عليه كثيراً من أموالهم، وأهدروا أوقاتاً في أعمال لتدر عليهم دخلاً لأجل اللباس الزائد والمُتْرَف، لذلك آثر الصوفية أن يأخذوا من الثياب الحد الأدنى الذي يكفيهم لستر العورة والجسم، واتقاء البرد والحر، لئلا يشغلوا قلوبهم به، ولا يضيعوا أموالهم فيه، وقد استحسنوا ذلك واختاروه من غير تحريم لما يزيد على ذلك.

وقد حذر النبي ﷺ من مرافقة اللباس للتكبر، فقال ﷺ: « بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة، تعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة »[2].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: « **إِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ** وَزِيَّ أَهْلِ الشِّرْكِ، ولَبُوسَ الحرير »[3].

والنبي ﷺ رفض ثوباً مُزَيّناً شغَلَ فِكْرَه، كما روت عائشة رضي الله عنها « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلاَمٌ، فَقَالَ: شَغَلَتْنِي أَعْلاَمُ هَذِهِ»[4].

---

(1) حديث حسن، أخرجه البخاري تعليقاً قبل حديث رقم ٥٤٤٦، وأخرجه أحمد رقم ٦٦٩٥ والنسائي في السنن الكبرى رقم ٢٣٤٠ والحاكم رقم ٧١٨٨ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، و(الإسراف): أن يَصْرِف المال فوق الحاجة، و (مخيلة): التكبر والافتخار على الآخرين.

(2) أخرجه البخاري رقم ٥٤٥٢ ومسلم رقم ٢٠٨٨ نحوه، عن أبي هريرة ﷺ . و(الحلة): هي ثوب من قطعتين، (مرجل): أي ممشط، (الجُمّة): الشعر إذا كان كثيراً طويلاً يصل إلى الأذن، (يَتَجلْجَلُ): أَيْ يغوصُ وينْزلُ ويتقلب.

(3) وقد كتب بذلك عمر ﷺ لأحد قادة جيوشه، أخرجه مسلم رقم ٢٠٦٩.

(4) أخرجه البخاري رقم ٧١٩، ومسلم رقم ٥٥٦.

وقد حذر النبي ﷺ أن تصير الألبسة معبوداً ومقصوداً وهدفاً، فقال ﷺ : «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[1].

وحذر النبي ﷺ من الإكثار من الطعام، وذلك أن الطعام الزائد يُثقِل الجسم عن العبادة والخير، ويؤدي إلى الأمراض والعلل، والمريض لا يحسن القيام بالعبادة عملاً، ولا يجد رغبة نفسية لها بسبب آلامه وضعفه، بل يصير عالَةً على غيره.

لذلك أمرنا الله ﷻ ورسوله ﷺ بعدم الإسراف في الطعام والشراب، وأمرنا بالتقليل والاعتدال فيهما. قال ﷺ : « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »[2].

وكان من تربية الصوفية للسالكين أن لا يأكل الإنسان إلا بقدر اضطراره إلى الطعام والشراب، ليحفظ جسده من الهلاك والضعف والمرض، وليحفظ جسده قوياً بالقدر الذي يحتاجه للطاعة وأعمال الدنيا الواجبة عليه، فلا يقلل من الطعام إلى حد الضرر والمخمصة، ولا يزيد إلى قدر يؤذي جسده ويثقله ويتسبب في السمنة المذمومة[3].

ويحذر المسلم والسالك أن يدخل إلى بطنه طعاماً حراماً، قال ﷺ: « إن الله أبى أن يدخل الجنة لحماً نبت من سحت، فالنار أولى به »[4].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٢٧٣٠، عن أبي هريرة ﷺ، وقوله: (تعس): يدعو عليه بالتعاسة، لأنه يستحقها، وهي الشقاء والهلاك أو السقوط على الوجه، (عبد الدينار): كناية عن حرصه عليه وإذلال نفسه لأجله، فينشغل بطلبه كالعابد له، ولو حرمه الله، (القطيفة): ثوب يلبس فوق الملابس الداخلية، (الخميصة): كساء أسود مربع له خطوط.

(٢) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٨٠ عن مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ ﷺ، ونحوه أحمد ٤/ ١٣٢ وابن ماجه رقم ٣٣٤٩ وابن حبان رقم ٥٢٣٦، والنسائي في السنن الكبرى رقم ٦٧٦٨.

(٣) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: « إن بعدكم قوماً يَخُوْنون ولا يُؤتمنون ويَشهدون ولا يُستشهدون ويَنذِرون ولا يَفُونَ، ويظهر فيهم السمن » أخرجه البخاري رقم ٢٥٠٨، ونحوه مسلم رقم ٢٥٣٥. وقد ذم النبي ﷺ السمنة بقوله: «إنه لَيَأْتِي الرجلُ العظيم السَّمِينُ يوم القيامة لا يَزِنُ عند الله جَنَاحَ بَعوضة، اقرؤا: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾» أخرجه البخاري رقم ٤٤٥٢ ومسلم رقم ٢٧٨٥ عن أبي هريرة ﷺ .

(٤) حديث صحيح، أخرجه الحاكم رقم ٧١٦٢ عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ، وأخرج نحوه أحمد رقم ١٤٤٨١ عن جابر ﷺ، ونحوه الترمذي رقم ٦١٤ عن كعب بن عجرة ﷺ، وابن حبان رقم ١٧٢٣ عن جابر ورقم ٥٥٦٧ عن كعب.

المطلب السادس

الإصلاح السياسي

أولاً: عناية علمائنا ومربينا بهذا المجال:

من أعظم مجالات التربية أهمية وأثراً؛ الإصلاح السياسي، بإصلاح نظام الحكم، والقائمين عليه، والموظفين فيه، من الحاكم الأعلى إلى أدنى موظف[1].

والتربية والتزكية الربانية إذا تحققت في كل فرد، فتلقائياً تُفرز لنا حكاماً صالحين، يقيمون النظام الصالح الرباني في الأمة.

ومع ذلك فينبغي أن يُعتنى بالتربية على الأخلاق التي تختص بالحكام، والالتفات إلى الأحكام التي فرضها الشرع لإصلاح الحكم والحكام.

لقد اعتنى أئمة التربية بهذا الجانب، فألفوا كتباً للحكام تبين وظائفهم وأخلاقهم وآدابهم، والتي تضمن سلامة نظام الدولة، وصلاحَ المجتمع، وإصلاحَ أفراده، وحمايته من الفساد والاستغلال، فمن ذلك:

نصيحة الملوك: لعلي بن محمد الماوردي البصري، (ت٤٥٠هـ).

سير الملوك: للطوسي، الملقب بقوام الدين، نظام الملك (ت: ٤٨٥هـ) .

التبر المسبوك في نصيحة الملوك: لأبي حامد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ).

سراج الملوك: للطرطوشي المالكي (ت: ٥٢٠هـ).

تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام: لإبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، (ت: ٧٩٩هـ).

معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام: لعلي بن خليل الطرابلسي الحنفي (ت: ٨٤٤هـ).

---

(١) سبق أن ذكرنا في الوحدة الأولى بعض ما يتعلق بالحاكم وأهمية تزكيته، وبالدولة وواجب الاهتمام بالتزكية.

بدائع السلك في طبائع الملك: لمحمد بن علي الأصبحي الأندلسي، المشهور بابن الأزرق، (ت ٨٩٩ هـ).

ثانياً: الإصلاح السياسي مرتبط بإصلاح كل موظف في الدولة:

في الحديث عن هذا المجال أو هذا الجانب؛ لا يقتصر الكلام عن الملوك والرؤساء والحاكم الأعلى في الدولة، وإنما يمتد إلى جميع موظفي الدولة، أعلاهم وأدناهم، فللحكام أخلاق يجب أن تكون في نواب الحاكم، ونواب الشعب، وفي الوزراء، والمحافظين، والمستشارين، والقضاة، والمعلمين، وقادة العسكر، ورجال الأمن، وغيرهم.

والحكام هم أحوجُ الناس إلى التزكية والأخلاق الراقية وحسن المعاملة، لأن وظيفتهم عظيمة تتعلق بعموم الناس، وتتوقف عليها مصالح كثير من الخلق، ويتوقف عليها إقامة العدل، فما لم يقم الحاكم بحق وظيفته وأخلاقياتها؛ فإنه يكون ظالماً ومُفسداً ومُسيئاً إلى نفسه وإلى أُمَمٍ من الناس، وهو موعودٌ بعذاب شديد؛ إذْ ضيَّعَ حقَّ الله وحق الناس.

ثالثاً: الإفساد والإصلاح:

تحدث القرآن عن هذا الجانب بطرائق مختلفة، ومن ذلك حديثه عن الإفساد، وتحذيره منه، وحديثه عن الإصلاح وأمره به.

١. الإفساد:

قال سبحانه: ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِّ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالله تعالى خلق الأرض صالحة، فمن خرج عن طريق الله ومنهج العبودية له فإنه يكون مُفسِداً، ومن كان محسناً فإنه يحافظ على هذا الصلاح فيستحق الرحمة لأنه رحم الناس، ولا يكون مصلحاً إلا أن يكون ممن يخاف الله ويتوجه إليه.

وقد بين الله تعالى أخطر أركان الإفساد في قوله: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ** الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُّ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ، فهي:

١. استغلال المنصب في إرهاق العباد، فعبر عن ذلك بالسعي بولايته وحكمه للإفساد.

٢. إفساد الاقتصاد، وعبر عن ذلك بإهلاك الحرث.

٣. تخريب الأخلاق، وعبر عن ذلك بإهلاك النسل.

إن الحاكم الفاسد يُهلِك الشعب، ويُجَرِّئ على الفساد، ويسيء إلى سمعة الأمة، ويُهدرُ أموال الأمة، ويحرم الوطن من فرص استثمارية، فيَهجرُ الوطنَ أبناؤه، ليصيروا خادمين لغير أمتهم، ويَشغل الأمة بالشهوات عن الإنجاز والإنتاج والعمل الصالح.

فالخلل في تربية الحكام أشد خراباً من جيشِ عدو، وصلاح حكام الأمة هو أعظم جيش يحمي الأوطان والأمة والدين.

إن من أسوإ صور الفساد والإفساد، أن يأكل الحاكم مال الأمة، فيجعله لجيبه الخاص، ويستخدم أعوانه في ذلك، مستغلاً منصبه، يسرق الأمة فيرهق الملايين، ليضع في جيبه مليارات يموت ولا يحتاجها، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٨٨.

وقال ﷺ: «إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق، فلهم النارُ يوم القيامة»[١].

وقال ﷺ: «ما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أهدي لي، فَهَلّا جلسَ في بيت أبيه أو بيت أمه، فينظرَ يُهدى له أم لا»[٢].

لذلك كان لا بد من تربية الحكام والمسؤولين على الأمانة والنزاهة، قال ﷺ : «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[٣].

ولا بد من تربية أبنائنا على طلب الحلال والاقتصار عليه، والحذر من الكسب الحرام والمال السُّحْت، حتى إذا صار أحدُهم مسؤولاً فلا يكون مفسِداً، ولا سيما في زمان ينطبق عليه قول النبي ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبالي أحدهم ماله من حلال أم من حرام»[٤].

نربي كل مسلم أنه سيُسألُ ويحاسب عن المال: **من أين اكتسبته؟** وفيم أنفقته؟ ولِمَ لَمْ ينفقه فيما أوجب الله عليه؟

---

[١] أخرجه البخاري

[٢] أخرجه البخاري ومسلم.

[٣] أخرجه مسلم.

[٤] أخرجه البخاري

نربي كل مسلم على اجتناب الربا، والرشوة، وخدمة الظالمين، وأكل المال العام، وأكل مال اليتيم، وأكل الميراث، واجتناب التقصير في العمل الذي نأخذ مالاً مقابله، وأن ذلك سبب في الحرمان عند الله في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «مطعمه حرام، وملبسه حرام، **وغذي بالحرام فأنى يستجاب له؟**» رواه مسلم.

ثم إن إفساد الأخلاق بالرذائل، وإفساد التعليم؛ أخطر من ذلك، ﴿**وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**﴾، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهَّ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَّ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

٢. الإصلاح:

وتحدث القرآن عن هذا الجانب بحديثه عن المصلحين، وبيان صفاتهم، وأن الإسلام هو دين الصلاح والإصلاح، **مُصلِح لكل زمان ومكان**، دين الحق والعدل والخير، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ الأعراف: ١٧٠، فما لم يكن الحاكم على حسن علاقة بالله وقيام بفرائضه؛ لا يكون مصلحاً، بل يكون مفسداً ومُخرِّباً، وبوجود المصلحين يرحم الله البلاد ويحفظها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ هود: ١١٧.

وقد بين النبي ﷺ في حديث أهم أركان الإصلاح: العدل والرحمة والعفة، قال ﷺ: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان **مُقْسطٌ** متصدقٌ موفقٌ، ورجلٌ **رحيم** رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، **وعفيف** متعفّف ذو عيال»(١).

ولا بد من تعاون الحاكم والمحكوم على الإصلاح، فإذا كان ولي الأمر يطالب بالإصلاح، فواجبنا أن نضع أيدينا بيده، وأن **نقدم له برامج الإصلاح، فالحاكم شأنه أن يتحقق بقول الله تعالى: ﴿ إن أريد إلا الإصلاح** ما استطعت ﴾، والمحكوم مطالب بأن يكون عوناً: «الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

رابعاً: نموذج برنامج إصلاحي:

لا بد لكل من يعمل في إدارة الدولة وسياسة الشعوب من برنامج للإصلاح، يتضمن أهم ما تحتاجه الشعوب من مطالب مشروعة[1]، ويتضمن تحقيق أحكام الله ومراداته فيهم، ليكون خُطَّة يسير عليها الحكام، ويضعون من القوانين ما يَضْمَنُها ويحققُها، مقررين ما حكم الله به.

وهذا البرنامج إذا تم الالتزام به فهو أعظم وسيلة لتزكية الحاكم والمجتمع.

وهذه أهم الأمور التي ينبغي أن تكون ضمن البرنامج الإصلاحي[2]:

١. احترام القانون ثقافةً وتطبيقاً، من بعد ترسيخ قاعدة: أن الحكم لله.

٢. إصلاح القضاء وإقامة العدل، وإزالة القضاة المرتشين والمُحابِين.

---

(١) الشعوب **تريد تلبية حاجاتها المادية**، فتريد كفالة الضعفاء والمرضى والفقراء والصغار والنساء، وتريد معالجة البطالة، بتأمين العمل أو كفالة القاعدين عن العمل.

والشعوب **تريد أن تُعامَلَ بكرامة ومساواة ونظام وعدل**، فلا محسوبيات ولا واسطات تُقَدِّم من ليس بأهل على من هو أهل في الوظيفة، سواء الأهلية العلمية أو العملية، ولا يتقدم أحد في الدَّوْر على أحد سَبَقَه، ولا يُتْرَكُ المراجعون في المؤسسات والمستشفيات وغيرها ينتظرون واقفين، يتعبون ويتدافعون، بل تؤمن لهم كراسي يقعدون عليها، ويضاف لهم من الموظفين، بحيث تيسر أمورهم ولا ينتظرون كثيراً، وإن أمكن استخدام الأساليب المعاصرة المتطورة عبر الانترنت وغيره، لتيسير معاملاتهم؛ فلا نُحِيجُهم إلى ذلك الدَّوْر والانتظار والذهاب والمجيء، ولا نعقد المعاملات مما يمكن الاستغناء عنه ولا ضرورة إليه.

والشعوب **تريد حرية**، فيما لا اعتداء فيه على الآخرين، وفيما أعطاهم الله حرية فيه، من حرية الكلام والتعبير والتفكير والانتقال والعمل وغيرها، والحاكم يسعى لخدمة الشعب ومصالحه، لا يسعى ليكون الشعب للحاكم، كأنهم عبيد.

والشعوب **تريد محاربة الفساد** والإفساد، لا أن تكون الدولة هي التي تُفسِد أو تقنن الفساد أو تأخذ الرشوات.

والشعوب **تريد طمأنينة**، فلا يخاف المواطن من تهمة باطلة، ولا قيود ولا سجون ولا تعذيب بغير حق.

والشعوب **تريد صدقاً** معها وصراحة، فلا تريد كذباً إعلامياً ولا نفاقاً، ولا تزويراً في الشورى.

والشعوب **تريد وحدة** مع أبناء جنسها ودينها، فلا تقبل الفرقة والتفريق، ولا تقبل بحدود يرسمها أعداء الأمة، ولا تقبل بفرقة تمنع توزيع ثروات البلاد الإسلامية توزيع عادلاً على شعوب الأمة كلها، ولا تقبل الشعوب بفُرْقَةٍ تُميتُ إحساس الأخوة بين شعوب الأمة، فمن غير المقبول أن تصيب النكبةُ والكوارث والاعتداء والظلمُ بعضَ الأمة؛ ولا تتدخل الأمةُ لرفع الظلم وإغاثة المنكوبين.

والشعوب المسلمة آمنت بالله رباً وخالقاً وإلهاً حاكماً مطاعاً، **فتريد من حكامها أن تحكمها بحكم الله** وشرعه، لنكون في أَمْنٍ مع الله ورحمة منه في الدنيا والآخرة. انظر: التزكية على منهاج النبوة، التزكية الأخلاقية.

(٢) هذا البرنامج مستوحى من كتاب السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، صفحة ٢٥١ وما بعدها، باختصار شديد وتصرف.

٣. تعميم مشروع تزكية النفوس، ومعالجة فساد الأخلاق، ومنع أسباب التحلل والشهوة.

٤. تربية المسؤول أنه للشعب، وليس على الشعب، وأن تصرف الحاكم على رعيته منوط بالمصلحة، ومحاسبته على أساس ذلك.

٥. تشكيلُ الحاكمِ مؤسسةً للمظالم، وفتح الحاكم بابه للمظالم والشكاوى، ويخصص لذلك وقتاً.

٦. تقديم العلماء الربانيين الراسخين، لِيُعلِّموا الأمةَ ويُصلِحوا أخلاقها، ويراقبوا موافقة القوانين لأمر الله، وينصحوا الحاكم والمسؤولين.

٧. إصلاح التعليم المدرسي والجامعي، ليكون راقي المستوى، علماً ونفعاً، وإصلاح التعليم الشرعي، بحيث يكون على طريق أهل السنة في الاعتقاد والفقه والتربية، الطريق الذي كان معه عز الأمة ومجدها، ومحاربة أفكار الغُلاة والبُغاة.

٨. تقديم الكفاءات، حتى يتنافس الناس وترتقي أهليتهم.

٩. الشفافية في المشاريع الاقتصادية والموازنةِ العامة، وعرضها أمام الشعب، ومحاربة الرشوة والغش والتسيب والمحسوبيات، واستغلال ثرْوات البلاد، واستقرار القوانين في الجانب الاقتصادي وغيره.

١٠. ضمان الحريات، ضمن شرع الله، وجعل ذلك ثقافة مجتمع لا يعتدي عليها أحد في التطبيق، واحترام الإنسان، والمساواة في فرص العمل والطبابة والتعليم.

١١. استغلال طاقات الشباب، وحمايتهم من المخدرات واللهو والانحراف.

١٢. أن يكون خوف المسؤول من الله أعظم من خوفه من الأعداء والدول العظمى، وهَمُّهُ مصلحةُ شعبه وأمته وآخرته لا موقعُه ومنصبُه.

١٣. تنشيط رسالة المساجد، ليكون دورها عاماً وكبيراً في الإصلاح والتثقيف والتعليم والتربية.

١٤. إصلاح الإعلام، ليكون مشاركاً في الثقافة الإيمانية والتعليم النافع، خالياً من تشويه الحقائق والأخبار الكاذبة والإشاعات، طاهراً من الفساد والإفساد، رفيع الأداء بحيث يغني الشعب عن متابعة إعلام آخر.

ـ وحتى تتحقق هذه الإنجازات فلا بد من تربية الشعب والمسؤولين على أخلاقيات:

خامساً: أخلاقيات الحاكم والمسؤولين:

من **معالم التربية الكبرى**، ومن أهم الأمور والأخلاقيات والآداب التي يجب على الحاكم والمسؤول التحقق بها ومراعاتها:

١ . أن يكون **صادقاً**، فالحياة لا تسير مع الكذب والغش والتزوير، وأبشع الكذب وأخطره كذب الحكام، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم؛ شيخ زان، **وملك كذاب**، وعائل مستكبر »[1].

٢ . أن يكون **متواضعاً**، وذلك بأن يدرك **أنه خادم للناس يتولى رعاية مصالحهم**، وأن قوته من صلاح حالهم، فيتواضع لهم، ويَبذُلُ غاية جهده في تحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية، من تعليم وهداية، وطعام وشراب، ولباس ومسكن وطبابة، وأمن وكرامة، وغير ذلك.

ـ ولا يجوز للحاكم أن يتخذ من نفسه رمزاً وصنماً، ليمدحه الناس ويعظمونه، ويظن نفسه مالكاً للأرض والعباد، فيأكل الأموال، ويخص نفسه بالمزايا، ويهمل حاجات شعبه والنظر فيها، ويُهين الرعية، ويدوس كرامتهم، ويستبد وينفرد برأيه عن شعبه، ولا يقبل النصيحة، ويترك مشاورة العلماء والحكماء والمتخصِّصِين فيما يُصلح البلاد وأحوال أهلها.

والله تعالى أمر النبي ﷺ بالتواضع للمؤمنين: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ [الحجر: ٨٨]، وهذا أمر لكل حاكم أن يتواضع لرعيته المؤمنين.

٣. أن يكون **أميناً**، يتفقد حقوق الناس، ويشرف على إيصالها لأصحابها، يحمي الضعفاء من الأقوياء أن يتسلطوا عليهم أو يأكلوا حقوقهم، يحفظ السر ويكتمه، يَفِي بالعهد والوعد، ولا يخون، ولا يسمح لأحد أن يخون، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وأعظم أمانة هي الأمانة التي يحملها الحاكم.

والحاكم الذي لا يكون أميناً فيخون ويعتدي ويسرق الأمة ويضيع حقها؛ فلا عجب أن تَخُونَ بعضُ عُمّالِهِ وبعضُ شعبِه، ففساده يفتح باب الإفساد في الأمة كلّها.

ومن أعظم الأمانة حماية الأرواح، فلا يستهين بالقتل وإزهاق الأرواح.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ١٠٧ عن أبي هريرة ﷺ، والعائل: هو الفقير الذي له عيال وأهل وأولاد كثيرون.

ومن الأمانة التي يجب على الحاكم أن يحفظها: أن يعطي الرعايا المسالمين غير المسلمين حقوقهم التي أمر الله لهم بها، وأن يُؤَمِّن السفراء، ويحترم العهود والمواثيق والذمم مع سائر الأمم، فالإسلام قد منع ظلمَ الكافرِ والغَدْرَ به وخيانتَه وتهمته بما لم يفعل، كما منعه عن المسلم.

ولا يكون الحاكم أميناً إلا أن يكون أهلاً للحكم، فقد جاء إلى النبي ﷺ أعرابي يسأل: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَقَالَ ﷺ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[1].

٤ . أن يكون **عادلاً**، فيعطي كل ذي حق حقه، بحسب ما قضى الله من حقوق، ويجب أن يكون العدل شاملاً للجميع، فلا يُعطَى حقُّ إنسان لغيره، وعلى الحاكم أن يحمي جميع رعيته من الظلم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ **تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [النساء: ٥٨].

ولا يكفي من الحاكم أن يمتنع عن الظلم، بل إذا قصر في حق الأمة فإنه يكون ظالماً، لأن تقصيره يؤدي إلى تَضْييعِ حُقوقٍ، وتَفَلُّتِ أمورٍ، وفسادٍ كثير، لذلك نبه النبي ﷺ إلى ذلك فقال: « مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ؛ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ الْجَنَّةَ »[2]، وإذا كان هذا شأنَ الحاكم الْمُقَصِّرِ، فكيف حال الظالم الذي يتقصَّد الظلمَ في الآخرة.

ولا يتحقق العدل حتى يصير الحاكم كالمحكوم، والمسؤول كالرعية؛ فالعدل يقتضي مساواة مطلقة في تطبيق الأحكام الشرعية على الراعي والرعية، فلا يعفى شريف من عقاب، ولا يعفى الحاكم مما يُطالَب به المحكوم، فالحاكم كسائر الناس في الواجبات والحقوق، ليس له حق فوق حقوقهم، إلا ما أعطاه الله تعالى من حق الطاعة فيما أطاع الله تعالى، وتزداد واجباته بسبب وظيفته، فيكون له حقوق في مقابل ذلك؛ ترجع إلى مصالح شعبه.

ولا يتحقق العدل حتى يتجرد الحاكم عن أهوائه وشهواته ونزواته، ويكون وقافاً عند حدود الله وأمره ونهيه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٥٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم رقم ١٤٢، عن مَعْقِلِ بن يَسار ﷺ .

أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً، فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا[1]، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء: ١٣٥].

ومن الظلم أن يمنع الحاكم شعبه مما يقربهم إلى ربهم من علم وعبادة وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤].

وإذا أراد الحاكم أن يكون عادلاً فلا بد أن يكون متقبِّلاً للنصيحة والتنبيه، قال ﷺ : « إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: إنك ظالم؛ فقد تُوُدِّعَ منها »[2].

٥. أن يتعامل مع الأمة **بالرحمة واللين والرفق والشفقة والعفو والمودة والأُخُوَّة،** كما أمر الله: ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١].

وقد حذر النبي ﷺ الحكام من التشديدِ على الشعوب والمشقةِ عليهم بغير حق، فدعى على من يفعل ذلك، فقال ﷺ :

« اللهم مَن وَلِيَ مِن أمرِ أمَّتي شيئاً فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه، ومن ولي من أمر أمتى شيئاً فرَفَقَ بهم فارْفُقْ به »[3].

فواجب الحاكم أن لا يشق على رعيته في أمر لهم فيه سعة، ولا يشق عليهم بإلزامهم بأمر لا يقدرون عليه، أو توريطهم فيما لا طاقة لهم به.

ومن واجب الحاكم أن **لا يضيع حريات الناس أو يضيقها،** فالحرية التي أعطاها الله للناس ووسع فيها على عباده؛ ليس من حق الحاكم أن يضيقها عليهم، أو يمنعهم منها، إلا إذا كان في ذلك مصلحة لهم.

وعلى الحاكم أن يوازن بين الحريات العامة والخاصة، فلا تكون حقوق الفرد وحريته على حساب حقوق المجتمع وحرياته، ولا العكس.

---

(١) أي لا تتبعوا شهوات النفس وأهواءها التي تأمر بترك العدل.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٤/ ١٠٨، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٨٢٨ عن عائشة رضي الله عنها.

وعند التعارض تقدم المصلحة العامة على الخاصة، مع تعويض الخاصة قدر الإمكان.

ومن الحريات والحقوق التي يجب أن يُؤَمِّنُها الحاكم للناس؛ الحرية في التعبير عن اجتهاداتهم المختلفة، والحرية في التملك والتصرف في أموالهم، وفي العمل والكسب، والحرية في السفر والتنقل والإقامة، وفي التجمع والزيارات، وفي المراسلات والأسرار والمحادثات الخاصة، والحرية ـ بما لا يخالف شرعاً ـ في اللباس، والأكل، واستعمال لغة التخاطب بين أهلها، ويؤمن لهم الحق في أمن النفس، فيضمن حماية النفوس من التعذيب والسجن بغير حق، ويؤمن لهم الحق في المشاركة في الشأن العام.

ولا يجوز التعلل بالمصلحة لتقييد الناس بلا حق، كما لا يجوز أن تُقيَّد حريةُ أحدٍ بالتهمة، فالمتهم بريء حتى تثبت إدانته.

ولا يجوز لحاكم ولا لغيره أن يكون مصدر تخويف وإرعاب وترويع للناس، قال ﷺ: « لا يحق لمسلم أن يروِّع مسلماً، إن روعة المسلم ظلم عظيم »[1].

٦. أن **لا يستبد برأيه**، فمن حق الناس على الحاكم أن **يستشيرهم** ويسمع إليهم، ليشيروا عليه وينصحوه، قال تعالى: ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والتشاور وقبول آراء أهل النصح؛ يوسع الآفاق، ويُذَكِّر الحاكمَ بما غفل عنه، وهو سبيلٌ عظيم لتحقيق العدل والمودة بين الحاكم وشعبه، يحقق التناصر والاشتراك في تحمل المسؤولية.

وهذه الشورى لا تكون إلا فيما لا نص فيه من الشرع، فإذا قضى الله ورسوله ﷺ أمراً لم يكن لأحد رأي ولا شورى، ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، إنما تكون الشورى فيما وراء ذلك من السبل التي تحقق أوامر الله، وفيما ترك الشارع تنظيمه للناس بحسب ما يتوافق مع مصالحهم وأزمانهم وأحوالهم.

(١) الترغيب والترهيب، للمنذري، ونسبه إلى البزار والطبراني وأبي الشيخ.

لذلك لا بد أن يكون الحاكم عالماً بشرع الله، حتى لا يخالفه، فإن لم يكن عالماً فلا بد أن يرجع إلى العلماء.

٧. أن يكون **صابراً حليماً**، صابر على عُمّالِه وموظفيه، صابر على شعبه، يتحمل ويكظِم الغيظ، ولا يستفِزُّه أي شيء، يتأني ولا يتسرع، يتثبت ويتحقق ولا يأخذ بالظن، ولا يقبل النميمة، ولا يُسرع غضبُه، فيتورطُ ويُوَرِّطُ حكومته وشعبه فيما لا ينبغي، بل يبقى مُقيِّداً نفسَه بما شرع الله، ويَعقِلُ نفسَه بالعقل عن المهالك والهوى والعَجَلة.

ولا يستحق الإمامة إلا من كان من أهل الصبر، قال تعالى: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [السجدة: ٢٤].

والحاكم ينبغي أن يكون **متحققاً بجميع أخلاق الإسلام** على أرقى حال ومستوى.

٨. فلا بد أن يكون **عفيفاً**، لا يمد عينيه إلى ما عند الناس، ولا يسرق مال الأمة أو أحدِ من أفرادها، ولا ينشغل بالشهوات، ولا يرضى بالفساد والإفساد، ولا يسمح بهما.

٩. ولا بد أن يكون **شجاعاً**، لا يضعف عن اتخاذ القرار المناسب، ولا يخاف من تخويف العدو، ولا يجبن عند لقائهم.

١٠. ولا بد أن يكون **عَفُوّاً** إذا أُوذِي في نفسه أو اعْتُدِي على شخصه، فحاكم يسارع إلى العقوبة والانتقام لنفسه؛ لا يَصْلُح.

١١. سليم الصدر من الحقد، فحاكم حقود على شعبه؛ لا يَصْلُح.

١٢. سليم الصدر من الحسد، فحاكم لا يتمنى الخير لشعبه؛ لا يصلح.

١٣. ولا بد أن يكون الحاكم **كريماً سخياً جواداً**، يسعى لإكرام شعبه وراحتهم وتأمين حاجاتهم، فالبخيل يُضيِّق على الناس ويبخل عليهم بمالهم، ويُقَتِّر عليهم، كما يبخل على نفسه عند حاجاته.

١٤. ولا بد أن يكون **مقتصداً**، فلا يسرف في مال الأمة ولا يُبَذِّر، ولا ينفق فيما لا ينبغي، أو فيما غيرُه أولى منه بالإنفاق، كما لا يُضيِّع جهود موظفيه وطاقاتهم في شيء يمكن أن يكون غيرُه خيراً منه وأوجب.

١٥. ولا بد أن يكون **حازماً**، يتابع الأمور بنفسه، ويحسن إدارة البلاد وتدبير شؤونها، ويهتم بالمُهِمّات، ولا يهمل أمراً ذا بال، ولا يجعل اللِّيْن في غير موضعه، ولا يركن إلى عدوٍّ، ولا يتخذهم أولياء، ولا يجعلهم موضع ثقتِه ومشورتِه، وإذا احتاج إلى المُدَارَاةِ والتَّغافُل؛ تَغافَلَ بحِكْمَة.

١٦. ولا بد أن يكون **وَفِيّاً شكوراً**، يعرف أهل الخير والفضل ويشكرهم، ويُقَدِّر أهل القدر ويحترمهم، ويجزيهم على إحسانهم.

١٧. ولا بد أن يكون **ذا مروءة**، فلا يفعل ما يُخِلُّ بسمعته وهيبته، يحافظ على وقاره وأدب كلامه، ويحرص على جمال مظهره.

١٨. ولا بد أن يكون **حكيماً**، يضع الأمور في مواضعها، ويُوَلِّي الرجل المناسب في الموضع الذي يصلح له، ولا يُفسِد على الناس مَعايِشهم، ولا يُقَطِّع الأرحام، ولا يَستعدي العشائر والجماعات، ولا يصنع الخلاف والفُرقة والتمييز بين الشعب، ظاناً أنه يَسُود بذلك، ولا يُميِّزُ عشيرته وجماعته وأنصاره وأهل مذهبه عن غيرهم، ولا يُفَرِّق بين الناس بِلُغَة أو عِرْق أو لَوْن أو أَصْل أو بَلَد.

المبحث الثامن

المعينات والعوائق

من مجالات علم التربية والتزكية والتصوف: بيان البيئة المناسبة، وتهيئتها للسالك، لتكون الظرف الأنسب لتزكية النفس.

فتربية المسلم تحتاج إلى بيئة مناسبة مُساعِدةٍ **مُعِينَةٍ** على التحقق بتزكية نفسه وأعماله.

كما يحتاج إلى تجنب **العوائق** التي تعيق سيره وتفسد أعماله وقلبه.

وهذه المعينات هي من أوامر الشرع، وتلك العوائق هي مما نهى عنه الشرع، فمطلوب أن يلتزم المسلم بأحكامها لذاتها.

ولكنها أيضاً مهمة من جهة أخرى في طريق التزكية، من كونها تعين على إقامة العمل الصالح والتخلص من المعاصي، وتساعد في القرب من الله.

أولاً: إن الاختلاط بالبيئة الفاسدة يشغل قلب الإنسان ويفتنه عن الحق، ويفتح له باب التقليد فيما لا ينفعه في حياته، فلا بد لمن يريد إصلاح نفسه وتزكيتها؛ أن يبحث عن **البيئة السليمة الصالحة المعينة**:

١. فيرافق **الصالحين والعلماء** ويصحبهم في مجالس العلم والقرآن والذكر.

٢. ويتخذ منهم **شيخاً** مربياً مستقيماً.

٣. ويرتاد **المساجد** ويصلي فرائضه فيها، ويكثر من المكث فيها.

٤. **ويغتنم عمره ووقته** ولا يترك وقتاً بغير نفع وفائدة وتقرب إلى الله.

٥. **ويرتب أوقات نومه** حتى لا يفوِّت الأوقات المباركة، ويكون حريصاً على إقامة الطاعات فيها.

٦. **ويحافظ على أوراده** من الطاعات ويثبت عليها.

٧. يبحث عن **عمل مناسب وسكن مناسب** حتى لا يكون اختلاطه لأجل دنياه سبباً في انحراف قلبه وسلوكه ونقص إيمانه وعبادته، ولو أدّاه ذلك إلى تغيير عمله أو إلى هجرة بلده.

٨. **ويستعين بما يُذَكِّرُ قلبَه بالآخرة والحساب**: فيزور المقابر، ويزور المرضى والمستشفيات،

ويتذكر الملكين اللَّذَيْن يُحصِيان عليه، ويتخيل لو أنه مع النبي ﷺ كيف تكون تصرفاته ومعاملاته وعباداته.

ثانياً: وعلى المسلم أن يجتنب كل ما **يعيق تزكيته** وتقربه إلى الله.

١. **فيحذر من فتنة النساء، ويغض بصره**، ويحرص على العفة و**الزواج** المبكر إن كان مستطيعاً.

٢. ويترك **أصحاب السوء** ولا يخالطهم حتى لا يتأثر بهم، ويجتنب مجالس الباطل والفساد واللهو والكلام اللغو الفارغ الذي لا ينفع.

٣. **ويقلل من خلطته بعامة الناس** ما دام ذلك يؤثر على قلبه وإقامة عباداته.

٤. **ويحذر من تضييع أوقاته** بالتلفاز والصحف والانترنت والأفلام والمسلسلات والبرامج الملهية والزيارات غير الضرورية.

٥. **ويقلل من كلامه** ما لم يكن خيراً أو ذكراً حتى لا يشغله لسانه عن الطاعة والذكر.

٦. **ويحذر من أكل الحرام، ويقلل من طعامه** حتى لا يثقله جسده عن العبادة.

٧. **ويحذر من خواطره أن تكون من الشيطان**، فلا يستجيب لخاطر إلا إذا علمه موافقاً لأمر الله.

٨. ويأخذ حاجاته من دنياه **ويحذر من التعلق بالدنيا وشهواتها وأموالها وجاهها، ويحذر الغفلة بها** عن مقصد حياته وآخرته.

٩. **ولا يلتفت إلى الناقدين** والمعترضين ما دام يعلم أنه على الحق.

١٠. و**يحذر من الكسل والفتور** ويعالجه.

ـ إن واحدة من هذه العوائق قد تفسد سير الإنسان وتقطعه وتشغله وتردُّه إلى الوراء، وواحدة من تلك المعينات قد تنهض به وتكون سبباً في صلاح أمره وسرعة سيره، لذلك ينبغي أن يجعلها المسلم السائر في تزكية نفسه محلَّ اهتمامه، حتى لا تكون إقامته للطاعات وتركه للمعاصي عملاً شاقاً وقليل النتيجة.

ثالثاً: قد يحتاج السالك إلى علاجات خاصة[1]، لتكون له تربية ودواءً لخلل ولحالة خاصة عنده، وقد تكون بعضُ هذه العلاجاتِ المعينةِ على التربية حالةً طبيعية يعملها كل مسلم، وقد تكون حالاً خاصاً وحالة استثنائية فلا يُقتَدَى بها، وإنما يطلبها الشيخ من بعض الأفراد علاجاً لهم وإصلاحاً.

نجد أن النبي ﷺ يأتيه الرجل، فيقول له: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله، ويأتيه الآخر فيأمره بإطعام الطعام وإفشاء السلام، ويأتيه الآخر فيأمره بالصيام، ويأتيه آخر فيأمره بقيام الليل، ويأتيه آخر فينهاه عن الغضب، ويأتيه آخر فيأمره أن يوازن بين حق الله وحق الأهل وحق النفس، وآخر يأمره النبي ﷺ أن يقوم وينام ويصوم ويفطر، وهكذا فكل حالة تحتاج إلى علاج خاص، وإن كانت جميع هذه الأعمال يحتاجها كل إنسان، ويتقرب بها إلى الله كلُّ مسلم.

يأتي عمر بن الخطاب ﵁ فيَذكُر لِرسول الله ﷺ أن يحب نفسه أكثر منه، فيصارحه النبي ﷺ أن ذلك لا يصلح، فيقول له ﷺ: حتى أكون أحبَّ إليك مِن نفسك، فكان هذا التذكير من رسول الله ﷺ كافياً لعلاج خلل في الحب عند عمر ﵁.

وعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ: آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً[2]، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ؛ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ، فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، قَالَ سَلْمَانُ: قُمِ الآنَ، فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَ سَلْمَانُ»[3]، فههنا منع سلمانُ ﵁ من الصيام والقيام، وجعل ذلك علاجاً لأبي الدرداء ﵁، لينبهه إلى حالة التوازن وإلى حق الزوجة، وقد أقره النبي ﷺ على ذلك.

(١) انظر: تربيتنا الروحية، فصل في أدوية مناسبة لأوضاع معينة، سعيد حوى، بتصرف وزيادة.

(٢) متبذلة: أي غير معتنية بجمالها ولباسها.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٨٦٧.

وكان أبو ذر يرى أنه لا يجوز للمسلم أن يملك أكثر من ستين شاة، فإذا ملك أكثر منها وجب عليه أن يتصدق بها، وهذا أمر يعتبر في حقه وسيلة للتحقق بالزهد، ولا يقتدى به.

يأتي رجل يشكو إلى النبي ﷺ قسوة قلبه، فيعطيه النبي ﷺ علاجاً خاصاً، فقال: « امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين »[1].

وصار أبو هريرة ﷺ أميراً على المدينة وكان يُستخْلف عليها، فكان يأتي بحُزْمَة حَطَبٍ على ظهره، فيَشُقُّ السُّوق، ويقول: طَرِّقوا للأمير، حتى ينظر الناس إليه[2]، فكان يفعل ذلك من باب مداواة نفسه ومعالجتها، ومنعها من التكبر.

ويروى أن عمر ﷺ كان يتصرف التصرف فيعاتبه عليه ابنه، فيذكر له كيف أنه فعل ذلك علاجاً.

وقد قيل في الصحابي جُبير بن مطعم ﷺ أنه متكبر، فقال: يقولون فيّ التِّيه، أي العجب والاختيال والكِبْر، وقد ركبت الحمار، ولبست الشَّمْلة، وحلبت الشاة، وقد قال النبي ﷺ: من فعل هذا فليس فيه من الكبر شيء[3]، فبين أن من عمل هذه الأعمال فقد عالج الكبر ورؤية النفس، ومن هاهنا ترى أن بعض مشايخ التصوف يأمر التلميذ بلباس معين، أو يأمره بخدمة إخوانه، وقضاء حوائج الناس، أو يأمره بجلب الطعام أو طبخه، أو يأمره بالاشتغال بالاحتطاب، أو بسياسة الدواب وإطعامها وتنظيفها، أو بتنظيف متوضأ المسجد، تربية لنفسه وتطهيراً من كبريائها، فذلك أمر لا ينكر.

وقد يستعمل المربي مع الطالب السالك أساليب متعددة لتربيته، فقد يأمره بالسفر، وقد يمنعه من السفر، وقد يأمره بالعزلة، وقد يأمره بالكسب والعمل، وقد يوجهه إلى العمل العام، وقد يطالبه بترك وظيفته العامة، وقد يوجهه إلى الخدمة العسكرية، وقد يطالبه بأن يكون نائباً، وقد ينهاه عن ذلك.

---

(١) أخرج الإمام أحمد بسند صحيح، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ومالك. ومعنى طرقوا: أي أفسحوا الطريق.

(٣) أخرج الترمذي، وهو حديث حسن.

ومثل ذلك قد يأمر الشيخ المربي تلميذه السالك بترك التعليم والدعوة، وإن كان عالماً وخطيباً، معالجة لشيء في نفسه، ثم يأمره به في مرحلة أخرى.

وقد يأمر الشيخ تلميذه بطلب المال إذا احتاج، بينما يأمره بالتوكل والصبر والتعفف وعدم السؤال في مرحلة أعلى.

ونجد أن الله نهى الصحابة في أول سورة الأنفال عن أن يفكروا بالغنائم أو يطمعوا بها، وأخبرهم أنها لله وللرسول ﷺ، على الرغم من أنه يريد أن يعطيهم إياها، ثم شرعها لهم في منتصف السورة، ثم عاتب في آخر السورة مَن رَغِبَ في أَخْذِ الأسرى بَدَلَ قتلِهم طمعاً في المال {تريدون عرض الدنيا}.

بينما نجد أن الله تعالى شرع إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم، فكان يعطيهم عشرات الشياه والإبل، علاجاً لضعف نفوسهم، ثم إذا كمل الإيمان والزهد أمرهم أن يتعففوا عن ذلك، كما أمر حكيم بن حزام رضي الله عنه، وكما لم يعط الأنصار من غنائم حنين، فكان مربياً في الإعطاء، وكان مربياً في المنع، وكان مربياً في الأمر بالإعطاء، حيث علمنا أن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وكثيراً ما ينكر العامة وطلاب العلم على أهل التربية هذه الأمور، وقد يسخرون منهم، لجهلهم بأسرار التربية وأثر هذه الأمور في إصلاح النفس، فالشيخ الثقة المربِّي أدرى بهذه العلاجات ونفعها في مداواة القلب.

وقد يشتد الإنكار إذا كان العلاج خارجاً عن المألوف، كأن يأمر الشيخُ تلميذَه بسؤال المال والشِّحْدة، والأصل أن يربي التليمذ على العفة عن سؤال المال وطلبِه، لكن بعض المربين استعمل هذا الأمر لعلاج السائرين[1].

.

---

(١) انظر تفصيل ذلك: في المبحث الثامن من الفصل الثالث من منظومة المباحث الأصلية، من كتاب: التزكية تصوف أهل السنة.

المبحث التاسع

من ثمرات التربية

بعض ما يعطاه القلب السليم نتيجة اتصافه بالصفات السليمة

ـ إن القلب إذا طهر وصفا وزال عنه الران والقسوة والغفلة، فإنه يكون كمثل العين التي زالت غشاوتها، والأذن التي ذهب وقْرها، فيبدأ الإنسان يجد إحساسات القلب ويرى ثمرات صفائه وسلامته، وكأنما لم يكن له قلب وصار له قلب، ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾.

فيزداد شعور المسلم بقلبه وما فيه من خواطر وأحوال وتقلبات، ويصير التفاته إلى باطنه وإلى ما يصلحه كبيراً، كما هو ملتفت إلى صلاح ظاهره في أعماله وأقواله.

ومن الإحساسات التي تبدأ عند السالك نتيجة ذلك؛ إحساسه بالخوف من الله عند الذكر، وإحساسه بزيادة الإيمان والمعرفة كلما قرأ القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾، فالقلب يحس بالوجل والخوف عند ذكر الله تعالى.

وينتج عن ذلك أن الجسم والجلدَ قد يقشعر ويهتز من قوة الخوف والخشية من الله، قال الله سبحانه: ﴿ الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، **تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم**، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾، فجلد الإنسان يقشعر ويهتز من أثر خشية القلب، ثم يلين بعد تشبعه بالقرآن وأنواره فيرق القلب، ويلين للقرآن ومعانيه.

ـ ومن نتائج صلاح القلب أن تكثر الرؤى المنامية، وكلما ازداد المسلم صلاحاً يلاحظ أن رؤاه تزداد حسناً وجمالاً ونفعاً، على الغالب، وليس هذا أمراً مضطرداً، فلا يجوز أن نقول عمن لا يرى رؤى: إنه ليس بصالح، كما لا يشترط في وجود الرؤيا الصالحة كون الرائي صالحاً، فقد يرى الكافر رؤيا صالحة من الله. لكن لا شك أن هناك نوعَ ارتباط بين صلاح الإنسان وكثرة رؤاه، لقول النبي ﷺ : « وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً »[1].

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٢٦٣ وأحمد في المسند رقم ٧٦٣٠.

والرؤيا الصالحة من المؤمن لها شأنها، فهي من أجزاء النبوة كما أخبر النبي ﷺ، لذلك يستأنس بها المؤمن ويهتم بها، قال رسول الله ﷺ : « إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وما كان من النبوة فإنه لا يكذب »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ؛ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ »[2].

ـ ويمكن تقسيم **الرؤيا الصالحة إلى ثلاثة أنواع**: مبشرة ومنبهة ومشجعة.

قال رسول الله ﷺ: « أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تُرَى له »[3]. ولا يجوز للمسلم أن يَغترَّ بالمبشِّرات ويتكل عليها، بل يجب أن تزيده شكراً وإقبالاً، وإلا كانت استدراجاً ووبالاً على صاحبها.

والرؤى ليست من مصادر التشريع، فإذا جاء فيها ما يخالف الشرع والكتاب والسنة، فلا يجوز متابعة الرؤيا، ولا يؤخذ بظاهرها الذي يخالف الشريعة، وإنما يؤخذ بما جاء في الشرع وأحكامه، لأن الرؤى إنما هي أمثلةٌ تُفسَّر وتُؤوَّل، فلا يجوز اعتبارها على ظاهرها، لأن الله تعالى أخبرنا أن الرؤى لها تأويلات بقوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١]،

ـ من ثمرات تزكية القلب وصلاحه وطهارته أن يعلمه الله ويعطيه تفريقاً بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾، فيجعل الله في نفس التقي الصالح ما يقدر به على التفريق بين الحق والباطل، ويزيده علماً بما ينفعه في آخرته: ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين ﴾، وهذا العلم الذي وعد الله به كل محسن ليس هو خارجاً عن الكتاب والسنة، بل هو فهم فيهما، واستيعاب لهما، وانتباه لما كان غافلاً عنه من معانيهما وأحكامهما وعظاتهما. وقد

---

(١) رواه البخاري رقم ٦٦١٤ ومسلم رقم ٢٢٦٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري رقم ٦٩٨٣ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه ونحوه عند مسلم .

(٣) رواه مسلم ٤٧٩ ونحوه البخاري ٦٩٩٠ .

روى البخاري رقم ٢٨٨٢ عن أبي جحيفة ﷺ قال: قلت لعلي ﷺ : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله، قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه، **إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن**، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يُقتل مسلم بكافر.

ومن وصل إلى هذه الرتبة وأعطي الفهم والتفريق بين الحق والباطل فهو من الذين يتوجه إليهم حديث النبي ﷺ : « استفت قلبك ولو أفتاك الناس وأفتوك »، فهم الذين صار عندهم ميزان في قلوبهم سليم، ومع ذلك فلا بد أن يرجعوا إلى الشرع، ولا يخرجوا عنه، ولا يخالفوه لأجل ما يقع في قلوبهم.

ـ **بصر القلب**: ومن ثمرات تزكية القلب وصلاحه وطهارته أن يدخل **النور في قلب المؤمن**، مع ما يحمله هذا النور من هداية وعلم وتأييد من الله، بغض النظر عن رؤية الإنسان لهذا النور أو عدم رؤيته، وبغض النظر عما يكشف له هذا النور من أمور. قال الله تعالى: ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾، وقال: ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾، ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾، فالذي لم يهتد إلى نور الله هو الأعمى، وهو القاسي القلب، قال الله تعالى: ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو **على نور** من ربه ، فويل للقاسية قلوبُهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾.

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: « اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً »[1]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « **إن النور إذا دخل الصدر انفسح** »، فقيل يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف قال « نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله »[2].

---

(١) بنحو ذلك روى البخاري رقم ٥٩٥٧ ومسلم ٧٦٣ من حديث طويل.

(٢) رواه الحاكم ٧٨٦٣ .

وهذا النور الذي في القلب قد ينظر به المؤمن ويرى، فيكون صاحب **فِراسَة**[1] وإدراك لما لا يدركه غيره، قال ﷺ: « **اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، ثم قرأ:** ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] »[2]، وقد أخبرنا الله أن في وجوه الناس معالِمَ لما في قلوبهم فتتغير بتغير أحوالهم القلبية وأعمالهم الصالحة أو الفاسدة، قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ [محمد: ٣٠]، وقال ﷺ: « نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا؛ فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ »[3]، تدل هذه النصوص وغيرها على أن الإنسان إذا عمل خيراً أو شراً فإنه يظهر على سيماه ومحياه ومظهره ووجهه، فالمؤمن بما أعطي من نور يقرأ هذا الذي يظهر في وجوه الناس، وغيرُه ينظر ولا يقرأ ولا يفهم، كالطفل الذي ينظر إلى الحروف فيراها كما نراها، لكنه لا يستطيع قراءتها، وإن قرأها فلا يفهمها كما يفهمها الكبار المتعلمون.

وقد بين النبي ﷺ أن المؤمن قد يرى شيئاً من عوالم الغيب، فقد يرى الملائكة، فقال ﷺ: « لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم » رواه مسلم، وقد ثبت في عدد من الأحاديث الصحيحة أن الصحابة رضي الله عنهم رأوا جبريل متصوراً بصورة أحد الصحابة وهو دِحْية الكَلبي رضي الله عنه.

وقد روى البخاري رقم ٣٥٩٤ عن أنس رضي الله عنه ثم أن رجلين خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور بينهما، وروى البخاري رقم ٤٧٣٠ ومسلم رقم ٧٩٦ بنحوه عن أسيد بن حضير قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت، وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى

---

(١) الفراسة: وهي بصيرةٌ وعطاءٌ من الله يستشف به المؤمن أحوال الناس ويعرف عن دواخلهم، ويتوقع تصرفاتهم بناءً على ما يُطْلِعُه الله مِن أحوالهم.

(٢) حديث صحيح بطرقه، رواه الترمذي رقم ٣١٢٧ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح، أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد. عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه، وتتمة الحديث: « فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ ».

السماء، حتى ما يراها فلما أصبح حدث النبي ﷺ ، فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: وتدري ما ذاك، قال: لا، قال: تلك الملائكة، دنت لصوتك، **ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم** ». وفي قوله ﷺ : « اقرأ يا ابن حضير » دليل على أن من يكشف له عن شيء وهو في عبادته، فعليه أن لا ينشغل بما يرى، بل يبقى في عبادته وحضوره.

ـ **سمع القلب**: القلب المؤمن يهدى إلى الخير ويلهمُ به ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾، وقد بين النبي ﷺ أن كل إنسان يتلقى هداية من ملك من الملائكة، ويتلقى غواية من شيطان. روى مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة »، قالوا: وإياك يا رسول الله ؟ قال: « وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلمَ، فلا يأمرني إلا بخير »[1].

ويسمى هذا الخاطر الذي يُذَكِّرُ بالحق ويَقَعُ في نَفْسِ المؤمن إِلْهاماً، وقد أخبر النبي ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ كان مُلْهَماً مُحَدَّثاً، فقال: « إنه قد كان فيما مضى قبلكم مِن الأمم مُحَدَّثُون، وإنه إنْ كان في أمتي هذه مِنهم فإنه عمرُ بن الخطاب »[2]، ويؤكد عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما ذلك بقوله: « مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: إِنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا؛ إِلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ »[3].

وقد ثبت في أحاديث صحيحة أن أصحاب رسول الله ﷺ أو بعضهم كانوا يسمعون أشياء مما هي غيب عنا.

فقد روى البخاري عن ابن مسعود ﷺ قال: « ولقد كنا <u>نسمع تسبيح الطعام</u> وهو يؤكل ».

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨١٤، عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٣٢٨٢، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٣٦٥٣ .

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة فقال النبي ﷺ: تدرون ما هذا ؟ قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار، الآن حتى انتهى إلى قعرها، ورواه مسلم بلفظ آخر: قال: « هذا وقع في أسفلها، فسمعتم وجبتها ».

وهذا الأمر ليس خاصاً بأصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، بل قد يكثر في أزمان أخرى أكثر مما كان عندهم، وخاصة في آخر الزمان، فقد روى أحمد حديثاً صحيحاً، وبعضه رواه البخاري ومسلم؛ قال ﷺ: « **والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباعُ الإنسَ ويكلمُ الرجلَ عذبةُ سوطِهِ وشراكُ نعله، ويخبره فخذه بما حدث أهله بعده** ».

وقد أعطى الله نبيه ما هو أعظم من ذلك، فقد كان يرى الأنبياء ـ يقظة ـ رغم أنهم قد ماتوا، ولعلها رؤية روحانية تتمثل فيها الروح بصورة جسم صاحبها، كما تتمثل الملائكة بصورة الإنس، وقد يراهم يراهم في الحال الذي يكون معه غيره ولا يرونهم.

روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق فقال أي واد هذا فقالوا هذا وادي الأزرق قال كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية، ثم أتى على ثنية هرشي فقال: أيُّ ثنية هذه ؟ قالوا: ثنية هرشي، قال: كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراءَ جعدة، عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة [من ليف].

وقد روى مسلم عن النبي ﷺ أن رجلاً كان يمشي بفلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابة: اسْقِ حديقة فلان، فتوجه السحاب إلى أرض فأفرغ ماءه فيها، فذهب الرجل إلى تلك الأرض فوجد صاحبها، فسأله عن اسمه، فأخبره، وذكر الاسم الذي ذُكِرَ للسحابة، فسأله ماذا بينه وبين الله فأخبره أنه يتصدق بثلث الناتج من الأرض[1].

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن أباه قال له ليلة غزوة أُحُد: ما أُرَاني إلا مقتولاً في أول مَنْ يُقتَل من أصحاب النبي ﷺ، ثم كان ذلك فكان أول قتيل[2]، وهذاا المعنى الذي يلقى في قلب المؤمن فيأتي كما فهمَ يسمى عند أهل التصوف: **هاتفاً**.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٩٨٤ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٢٨٦.

ومما سيكرم الله به بعض عباده المؤمنين في آخر الزمان من السماع بالبصيرة، ما روي عن جابر بن عبد الله، وفيه: « فإذا هم بعيسى بن مريم عليه السلام، فتقام الصلاة، فيقال له: تقدم يا رُوح الله، فيقول: ليتقدم إمامُكم فليصل بكم، فإذا صلى صلاة الصبح خرجوا إليه، قال: فحين يراه الكذاب يَنْماث(١) كما ينماث الملح في الماء، فيمشي إليه فيقتله، حتى إن الشجر والحجر ينادي: يا روح الله هذا يهودي، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله »(٢).

وقد يختلط الإلهام بوسوسة النفس ووسوسة الشيطان.

وفي التمييز بينها قواعد وضوابط معلومة عند العلماء الربانيين والمربين.

وهو ليس مصدراً للتشريع، بل هو تذكير للإنسان بالحق، فعلى المُلْهَم أن يرده إلى شرع الله، وأن يحذر معه من دخول الشيطان والهوى عليه.

قال ابن البنا السرقسطي:

وَعَلِمُوا أَنَّ لَهُمْ تَمَكِيْنا ... يَرْقَى بِهِمْ مَرْقَى المُكاشَفِينا

والكَشْفُ من استعداد كل إنسان إذا انتفت الموانع، فمن كان مؤمناً ثم تجرد عن أهوائه واتبع سنة نبيه، وطهر قلبه وشفي من أمراض نفسه، وتخلص قلبه من خواطر السوء، وانشغل بالله قصداً ونية وقولاً وعملاً وظاهراً وباطناً؛ يُرجَى أن يُكْرِمَه الله بشيء من ذلك.

ـ **حلاوة الإيمان:** مما يكرم الله به قلب المؤمن الصادق الصالح أن يذيقه الله تعالى **طعم الإيمان وحلاوته،** قال النبي ﷺ : « **ذاق طعم الإيمان** من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً

---

(١) ينماث: أي يختفي ويتوارى كما يذوب الملح في الماء.

(٢) أخرجه أحمد في المسند: ج ٣، ص ٣٦٧ و٣٦٨، رقم ١٤٩٩٧، قال الهيثمي: رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ج ٧، ص ٣٤٤، وانظر: الأساس في السنة، قسم العقائد: ج ٢، ص ١٠٥٧، رقم ١٠٧٣، وذوبان الدجال كالملح في الماء مروي في صحيحي البخاري ومسلم.

»[1]، وقال ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد **حلاوة الإيمان:** أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »[2].

ومن أكرمه الله بحلاوة طاعة فلا يجوز أن يصير عبداً للحلاوة، بل عبوديته لله والتفاته إلى طاعة الله، بحيث لا يجعل من الحلاوة شاغلاً عن طاعته وحضوره، ولا سبباً في ترك الطاعة إذا فقد الحلاوة.

ويتحدث الصوفية عن **الأذواق والأحوال والمواجيد،** التي يشعر بها السالك ويحسُّ بها، وهي أمور لا يمكن أن يدركها الإنسان بمجرد الوصف العلمي، حتى يذوقها، كما أن لَذَّة الطعامِ وأَلَمَ الضَّربِ يتوقف على الحِسِّ، ولا يُعرَف بالعبارة وحدها، كذلك الأمور الروحانية لها ذوق وطعم وحلاوة، لا يعرفها إلا من أكرمه الله بها، ومن تلك الأذواق ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ ﴾ ﴿ تَخْشَعَ ﴾ ﴿ أَشَدُّ حُبًّا ﴾ ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[3]، وبعد الذوق تصير معرفة وعلماً ويُمكِن تَخَيُّلُها.

ـ **التوفيق إلى الطاعات والحفظ من الذنوب:** ومما يعطاه المؤمن نتيجة صلاح نفسه وتزكية قلبه: أن يصير قلبه صافياً أبيضَ منيراً، مميِّزاً بين الحق والخير، رافضاً للباطل، منكراً للفتن، قال ﷺ : « تُعرض الفتن [أي المعاصي والسوء والباطل والكفر] على القلوب عُوداً عُوداً كالحصير [أي كأعواد الحصير لا فراغ بينها أو عَوداً عوداً أي مرة بعد مرة]، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء [أي تقبَّلَها ولم ينكرها، فتدخل الظلمة في القلب بذلك قبل أن يفعل المعصية]، وأي قلب

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٦ ومسلم رقم ٤٣.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ [الأنفال: ٢]، فالقلب يحس بالوجل والخوف عند ذكر الله تعالى، وقال الله سبحانه: ﴿ الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ [الزمر: ٢٣]، فجلد الإنسان يقشعر ويهتز من أثر خشية القلب، ثم يلين بعد تشبعه بالقرآن وأنواره فيرق القلب ويلين للقرآن ومعانيه، وقال الله تعالى: ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ [النور: ٣٥]، فالذي لم يهتد إلى نور الله هو الأعمى وهو القاسي القلب.

أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين؛ **على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماواتُ والأرض**، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » أخرجه مسلم.

ـ **شعور القلب بالبسط والقبض**: ومما يعطاه قلب المؤمن الشعور بالقبض والبسط كعلامة على صدق إيمانه وسلامة أعماله وصحة سيره، ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح [شعوره بالانبساط، حلاوة معنوية] صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء [شعوره بالقبض]، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾.

ـ **الأذواق والكرامات**: وكثير مما ذكرناه يدخل في باب الكرامة، فالله تعالى يعطي عبده المؤمن خوارق للعادات، يزيده بها تثبيتاً وإيماناً ويقيناً، فكأنه يرى الله ويرى أفعاله وصفاته، حينما يشعر بقربه وإكرامه وعونه وخرق العادات له. وقد ذكر الله في القرآن بعض هذه الكرامات، لمريم عليها الصلاة والسلام، ولأهل الكهف، ولغيرهم. فالكرامات -والأذواق القلبية منها- ثابتة شرعاً، والعقل والعلم يقضي بجوازها وجواز حصولها، فالعقل لا ينفيها ولا يردها، ذلك أن إثبات الكرامات راجع إلى الإقرار بقدرة الله، وإثبات القدرة لله أمر معقول ثابت، والله تعالى قد شاء أن يكرم عباده ويؤيدهم بما هو خارج عن العادة، ثمرة إقبالهم عليه وكرماً منه، وتأييداً لدينه وانتصاراً لأهل الدين الحق، وتصديقاً لهم ولاعتقادهم، وقد ثبت ذلك بالشرع.

والكرامة حق، فهي ثابتة للأولياء والصالحين، ذكرها القرآن والسنة:

قال اللهَّ تعالى: ﴿ ألا إن أولياء اللهَّ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات اللهَّ؛ ذلك هو الفوز العظيم ﴾، وقال تعالى: ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي ﴾، وقال تعالى: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند اللهَّ؛ إن اللهَّ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾، وفي قصة أهل الكهف كرامة لهم، وقد وردت الأحاديث بذكر كثير من الكرامات، منها: حديث البخاري ومسلم في أبي بكر ﷺ حينما جاءه أضياف وبارك الله له في الطعام فأكلوا وزاد الطعام، وأطعم منه النبي ﷺ. وحديث البخاري

ومسلم أن عمر ﷺ مُحَدَّث، وحديث البخاري ومسلم في إجابة دعوة سعد بن أبي وقاص ﷺ على من كذب عليه، وروى البخاري أن أُسَيد بن حُضَير وعَبّاد بن بِشْر رضي الله عنهما خرجا مِنْ عِنْدِ النبي ﷺ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةَ ومَعهُمَا مِثْلُ المِصْبَاحَينِ بيْنَ أيديهما، فَلَمَّا افتَرَقَا؛ صارَ مَعَ كلِّ واحِدٍ مِنهما وَاحِدٌ حَتى أَتَى أَهْلَهُ، وروى البخاري أن قريشاً أسرت خُبَيْباً ﷺ ، وقد شهدت امرأة كرامته، فقالت: فواللهَّ لَقَدْ وَجدْتُهُ يوْماً يأَكُلُ قِطْفاً مِنْ عِنبٍ في يدِهِ، وإنَّهُ لُموثَقٌ بِالحديدِ، وَما بمَكَّةَ مِنْ ثمَرَةٍ، وَكَانَتْ تقُولُ: إنَّهُ لَرزقٌ رَزقَهُ اللهَّ خُبَيباً، وفي الحديث نفسه أن قريشاً أرسلت لتأخذ شيئاً من جثة عاصِم بن ثابتٍ بعدما قتل، فبعثَ اللهَّ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ [النحل]، فَحَمَتْهُ مِنْهم. ومن الكرامات: حديث الغُلام الذي كانَ يأتي الرَّاهِبَ والسَّاحِرَ، وحديثُ جُرَيجٍ الذي اتهم بالزنا فأنطق الله طفلاً رضيعاً بتبرئته، وحديثُ أصحَابِ الغار الذين أَطْبقَتْ علَيْهِمُ الصَّخْرةُ.

ـ وعطايا الله للمؤمن لا يحصرها ولا يحيط بها إلا معطيها سبحانه.

قال الإمام الحداد منبهاً إلى عدم الالتفات بالكرامات والمكاشفات وأن لا نجعلها هدفاً ومقصداً ولا نَغْتَرَّ بها:

«وَمِن أَضَرِّ شَيءٍ عَلى المُريدِ طَلبُهُ لِلمُكاشَفاتِ، وَاشتِياقُهُ إِلى الكَراماتِ، وخَوارِقِ العَاداتِ، وَهِيَ لاَ تَظهَرُ لَهُ مَا دَامَ مُشتهياً لِظُهُورِها؛ لأَنَّها لا تَظهَرُ إلاَّ عَلى يَدِ مَن يَكرَهُها وَلا يُريدُها غَالباً.

وَقَد تَقَعُ لِطَوائِفَ مِنَ المَغرورينَ ؛ اِستِدراجاً لَهُم، وَابتِلاءً لِضَعَفةِ المُؤمنينَ مِنهُم، وَهِيَ في حَقِّهم إِهاناتٌ وَليست كرَاماتٍ، إنَّما تَكونُ كرَاماتٍ إِذا ظَهرَت عَلى أَهلِ الاِستِقامَةِ، فإن أَكرَمَك الله – أَيُّها المُريدُ – بِشيءٍ مِنها فَاحمَدهُ سُبحانَه علَيه.

وَلا تَقِف مَعَ مَا ظَهرَ لَكَ وَلا تَسكُن إِليهِ، وَاكتُمْهُ وَلاَ تُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ، وَإِن لَم يَظهَر لَكَ مِنها شَيءٌ فَلا تَتَمَنَّاهُ وَلا تَأسَف عَلى فَقدِهِ.

وَاعلَم أَنَّ الكَرامةَ الجَامِعَةَ لِجَميعِ أَنواعِ الكَراماتِ الحَقيقيَّاتِ والصُّورِيَّاتِ هِي الإِستِقامَةُ المُعَبَّرُ عَنها بِامتِثالِ الأَوامِرِ، وَاجتِنابِ المَناهِي، ظاهِراً وَبَاطِناً، فَعَليكَ بِتَصحِيحِها وَإِحكَامِها؛ تَخدُمُكَ الأَكوانُ العُلوِيَّةُ وَالسُّفلِيَّةُ، خِدمَةً لا تَحجُبُكَ عَن رَبِّكَ، وَلاَ تَشغَلُكَ عَن مُرادِهِ مِنكَ»[1].

وقال: «وَأَكثَرُ الكرَاماتِ الوَاقِعَةِ مِنَ الأَولِيَاءِ وَقعَت بِدونَ اختِيَارِهِم، وَكانوا إِذا ظَهَرَ عَليهم شَيءٌ مِن ذَلِكَ يُوصونَ مَن ظَهرَ لَهُ أَن لا يُحَدِّثَ بِهِ حَتَّى يَخرُجُوا مِنَ الدُّنيا، وَرُبَّما أَظهَرُوا مِنها شَيئاً اختِيَاراً لِمَصْلحَةٍ تَزيدُ علَى مَصلَحةِ السِّترِ»[2].

(١) في آداب سلوك المريد، صفحة ٣٣.

(٢) في آداب سلوك المريد، صفحة ٣٦.

الوحدة الرابعة

طرق التربية الإسلامية

مراحلها ونشأتها وكتبها وشبهات حولها

تمهيد:

عبر التاريخ الإسلامي كانت مدراس التربية هي مدارس التصوف وطرقه.

ونقصد من ذلك ما كان منها مقبولاً عند علماء أهل السنة وأئمتهم، وما كان منضبطاً بعقيدة أهل السنة وفقهها.

والمراحل تنقسم إلى مراحل علمية ومراحلة عملية، ومنها ما هو متفق عليه، ومنها ما هو محل اجتهاد واختلاف، لا من حيث مشروعيته، وإنما من حيث هو طريقة أفضل للتربية.

ونشأة التصوف وطرق التصوف ليس استحداثاً ولا ابتداعاً في الدين، وإنما هو تطور طبيعي في ظهور العلوم والمتخصصين فيها، وهذه قضية لا بد من بيانها وتوضيحها.

وكتب التربية غالبها هي كتب التصوف، وكثير منها معتمد عند أهل السنة، وبعضها مردود، فيجب التفريق في ذلك.

وهذه المدارس الصوفية أُثِير حولها اتهامات وشبهات وتساؤلات، ولا سيما في العقود الأخيرة، فكان لا بد من بيان الحق والعدل والإنصاف فيها.

المبحث الأول

مراحل السلوك علمياً وعملياً

تمهيد:

من المعتاد في العلوم الشرعية كالعقيدة والفقه والأصول؛ أن تجد كتباً لمرحلة المبتدئين، وكتباً

لمرحلة المتوسطين، وكتباً لمرحلة المتحققين العالِمين المُتْقِنين في العلم، فتجد متناً مختصراً فيه أهم المسائل التي يحتاجها العامة وطلاب العلم المبتدئين، ثم تجد متناً أوسع، أو شرحاً للمتن المختصر، مع التوسع في الأدلة والمسائل، ثم تجد شروحاً وحواشي ومناقشات للخلاف، واستقصاءاً لكل مسائل العلم، في الكتب الموسعة.

وعلم التربية يحتاج إلى مثل ذلك التقسيم والتدريج في مراحل هذا التخصص وعلومه ومراحل العمل به والتطبيق له، وقد كَتَبَ بعضُ الأئمة كُتُباً تَصلُحُ للمبتدئين، ولكن غالب ذلك يختلط فيه الكلام عن المبتدئ مع الكلام عن المتوسط، وأحياناً المتحقق.

ومن الكتب التي تعتني بالمبتدئ:

بداية الهداية للغزالي.

حكم الرفاعي.

المقاصد النووية، للنووي.

تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس لابن عطاء الله السكندري.

آداب سلوك المريد، لعبد الله الحداد.

وفي غالب كتب التربية السلوكية والقلبية مشى علماء التربية والتزكية والتصوف أن يتكلموا عن موضوعات التزكية موضوعاً موضوعاً، بغض النظر عن كون الإنسان يحتاجها في بداية تزكيته أو توسطه أو نهايته.

وهذا أمر يحتاج إلى تطوير واهتمام، حتى يجاري الإبداع والنظام الذي جرى عليه علماء الفقه والعقائد والعلوم الشرعية الأخرى؛ في المرحلية والتَّدَرُّج في التعليم، ثم في التطبيق، فإنه أيضاً يحتاج إلى تدريج وتقسيم بحسب المراحل بين مبتدئ ومتوسط ومُتَقَدِّم.

ومعرفةُ المربي بهذه المراحل، يجعل التربية أنفع للطلاب وأيسر وأضبط وأرتب وأسرع وأضمن، ويحمي من الدخول في إشكالات الحديث عما لا يستطيع فهمه، وإشكالات محاولة

التطبيق لما لا يقدر عليه، وإشكالات التطلع إلى ما لا يدركه من أذواق أو ما لم يتحقق به من أحوال ومقامات.

ومعرفة السالك وطالب التربية بهذه المراحل، يعينه على عدم التجاوز إلى مرحلة قبل أوانها، وعدم الدخول فيما هو أعلى قبل التحقق بالأدنى، علماً وعملاً.

المطلب الأول

تقسيم التربية والسلوك إلى مراحل [1]

أولاً: نبه القرآن الكريم إلى هذه المرحلية التي يمر بها المسلم في إصلاحه وتَطْهِير نفسه وتَرَقِّيه، فقال سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا **ٱتَّقَوا۟** وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ **ٱتَّقَوا۟** ثُمَّ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ **ٱتَّقَوا۟** وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: **٩٣**].

فقد بينت الآية أن التقوى درجات، فقَرَنَها أوّلاً بالعمل الصالح وهو رُتبة الإسلام، وأشار باستعمال لفظ ﴿ **ثم** ﴾ إلى أنه يرتقي إلى درجة أخرى بعدها، وقرن التقوى في الدرجة الثانية بالإيمان، ثم قرنها في الدرجة الثالثة بالإحسان،

قال القرطبي في تفسير الآية: «فيه أربعة أقوال: **الأول**: أنه ليس في ذكر التقوى تكرار، والمعنى اتقَوْا شربها [شرب الخمر] وآمنوا بتحريمها، والمعنى الثاني: دام اتقاؤهم وإيمانهم، والثالث: على معنى الإحسان إلى الاتقاء، **والثاني**: اتقوا قبل التحريم في غيرها من المحرمات، ثم اتقوا بعد تحريمها شربها، ثم اتقوا فيما بقي من أعمالهم وأحسنوا العمل، **الثالث**: اتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله، والمعنى الثاني: ثم اتقوا الكبائر وازدادوا إيماناً، والمعنى الثالث: ثم اتقوا الصغائر وأحسنوا، أي تنفلوا، **وقال محمد بن جرير**: الاتقاء الأول: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث: الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل»[2].

---

(١) انظر كتاب: التزكية على منهاج النبوة، الجزء الأول: مقدمات، معاذ سعيد حوا.

(٢) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٦، ص٢٧٦، المسألة السابعة.

وقال ابن عاشور: «وأما جملة ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْ ﴾ فتفيد تأكيداً لفظياً لجملة ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَواْ ﴾، وتفيد الارتقاء في التقوى، بدلالة حرف (ثم) على التراخي الرُّتَبيّ»[1].

ثانياً: حاولت فيما يأتي أن أقدم تصوُّراً عن هذه المرحلية، من خلال معرفتي بكتب التزكية، ومن خلال ما استفدته من شيوخي في السير إلى الله.

وما أَذْكُرُه في كلِّ مرحلةٍ ليس من الأمور الحَدِّيَّة التي لا تَقْبَلُ الاختلافَ أو التَّنوع، فمن حيث الواقع والتطبيق قد توجد بعض الأعمال أو تظهر بعض الصفات والخصائص عند شخص ما في مرحلة غير المرحلة التي ذَكَرْتُ فيها تلك الأعمال أو الصفات، وقد يتحقق الطالب بمرحلة وبصفاتها وخصائصها لكن مع فوات صفة أو عمل أو نقصٍ ما عنده.

وكل مرحلة تبدأ بوضع معين ويجب أن تنتهي بوضع آخر فيه قَدْرٌ ما من التزكية، وحتى يتحقق الطالب بمرحلة ما؛ فلا بد أن يدرك علومها ويقوم بأعمالها القلبية والظاهرة، وبقدر فهمه وحضور معلوماته في ذهنه وبقدر اجتهاده في العمل؛ بقدر ما يكون سيره أسرع وأَثْبتَ إن شاء الله، وذلك يحتاج في العادة إلى مدة زمنية، لكنها لا تقاس بالأيام والأشهر والسنوات، وإنما تعرف من خلال الثبات على الأعمال، وتعرف بحصول الثمرات والنتائج، والتحققِ بالصفات والخصائص، وكل ذلك يرجع إلى الصدق مع الله وقوة الإقبال عليه.

وقد استعمل علماء التزكية تسميات كثيرة لهذه المراحل، ولكني اخترت منها تسمية توضح المعنى المطلوب، كما يأتي:

المرحلة الأولى: وهي **مرحلة المبتدئين** في طريق التزكية: **مرحلة الطالبين**، وسُمِّيَتْ بذلك لأن الإنسان لا يدخل في شيء ولا يسير فيه إلا بعد طلبه والرغبة فيه، والسائر في طريق التزكية في هذه المرحلة إنما يدخلها نتيجة الاقتناع بأهمية التزكية والتربية، وينشأ عن هذا الاقتناعِ الرغبةُ في التزكية، فيندفع في طلبها والتعرف على أوصافها وأعمالها وما يوجدها، ثم يطلب تلك الأوصاف والأعمال ويسعى إليها ويجتهد في التحقق بها، وتتميز هذه المرحلة بوجود اليقظة

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير من التفسير، ص١١٩٨.

والرغبة في الحق والخير عند صاحبها، مع اندفاعه نحو الاستقامة على أعمال الشريعة الظاهرة، ويمكن أن تسمى هذه المرحلة: بمرحلة **تزكية المسلم**، لأنها تتضمن الحد الأدنى مما ينبغي أن يكون عليه المسلم العادي.

المرحلة الثانية: وهي **مرحلة المتوسطين في** طريق التزكية: **مرحلة السالكين**، وسميت بذلك لأن ثبات السائر في طريق التزكية يجعله سالكاً في طريق يوصله إلى هدف ونتيجة وثمرة، وتتميز هذه المرحلة بالثبات على الأعمال الصالحة، والاهتمام بأعمال القلب وإصلاح أمراضه، ويمكن أن تسمى هذه المرحلة بمرحلة **تزكية المؤمن**، لأن السالك فيها يكون مدار سيره واهتمامه التحقق بما يقتضيه إيمانه من أمور قلبية وأعمال ظاهرة.

المرحلة الثالثة: وهي **مرحلة المتحققين في** طريق التزكية: **مرحلة الشيوخ**، وسميت بذلك لأن السالك يكون قد تحقق بأوصاف التزكية في الجملة، فطهرت نفسه وترقَّت، ولم نسمها مرحلة المنتهي لأن طالب التزكية لا يقف سيره عند حد، ولا ينتهي، بل سَيْرُ الترقي مفتوح ومستمر حتى يموت ويلقى الله، وعلى صاحب هذه المرحلة إذا تحقق بأوصاف التزكية أن يثبت عليها، ويكون مجرد الثبات عنده ازدياد وترق له، فلا يزال سائراً بهذا الاعتبار، ويكون له اجتهاد أكبرُ في النوافلِ ودقائقِ أعمالِ القلوب، وتتميز هذه المرحلة بثبات القلب على أوصاف السلامة والطهارة والصلاح، مع استقامة الظاهر على أحسن حال، ويمكن أن تسمى هذه المرحلة بمرحلة **تزكية المحسن**، لأن السالك فيها لا يكون مطلبه مجرد التزكية، بل مطلبه في كل شيء أن يكون فيه على أحسن حال.

وفيما يلي خلاصة عن هذه المراحل الثلاثة وأهم ما تتميز به من جهة **فكر** العقل **وحال** القلب **وعمل** الجسد.

ثالثاً: خلاصة في بيان الأعمال الرئيسية والخصائص الأساسية لكل مرحلة:

وهي ثلاثة أمور أساسية في كل مرحلة، يتعلق الأول منها: بالعقل ومعارفه، والثاني: بالقلب وأحواله، والثالث: بالجسم وأعماله وسلوكه.

المرحلة الأولى: تزكية الطالبين

الأمور الأساسية التي تقوم عليها هذه المرحلة وأهم الخصائص التي يتحقق بها:

١. **الاقتناع العقلي بالحقائق الكبرى** في الوجود، وهي حقيقة وجود الخالق، وأن له صفات عظيمةً، فلا يتصور أن يكون معه مثله يناقض مشيئته ويقابل قدرته، فهو الواحد، وله المشيئة الغالبة والقدرة التامة، ولا يتصور أن يكون محتاجاً لغيره، فهو قادر غني، ولا يتصور أن يكون جاهلاً بخلقه وملكه وفعله، فهو العليم الخبير، ولا يتصور أن يكون لأحد غيرِه تَصَرُّفٌ، فهو الرب الممد لخلقه بالقوة والرزق والهداية والعطاء والنفع.

وأن كلَّ ما سوى الخالقِ مخلوقٌ، وأنت أيها الإنسان مخلوق من مخلوقاته.

وأن الخالق هو المالك لما سواه، وأنه يستحق أن يَحْكُم في خلقه ويأمرهم بما يشاء، وأن يتصرف بمملوكاته ومخلوقاته كيفما شاء.

وأنه قد أرسل رسلاً ليبين لنا عن طريقهم ما هي أحكامه وأوامره لنا، وأيدهم بالمعجزات التي تدل على صدقهم وأنهم مرسلون من عند الله، حتى نطمئن إلى ما جاؤوا به.

وأنه لا بد من يوم يحاسب فيه كل إنسان عن أعماله وقيامه بأوامر الله أو مخالفته لها، وقد أخبرنا الأنبياء الصادقون عن هذا اليوم الآخر، وما يكون فيه من نعيم أو عذاب.

فهذه الأمور هي حقائق علمية موجودة وثابتة، من واجب كل إنسان أن يسعى لمعرفتها وأن يصل إلى الاقتناع بها، فإنه ما لم يسأل عنها، أو يتفكر حتى يصل إليها، أو يتعرف إليها من خلال الكتاب المنزل أو النبي المرسل؛ فلا يمكن أن تسير حياته على طريقة صحيحة، لأنه يخالف الحق، ويبني حياته وتوجهاته ورغباته على غير الحقائق الثابتة.

وليس من علم التزكية أن نتكلم عن هذه الأمور، وعن إثبات كونِها حقائقَ، وأنه يجب اعتقادها، وإنما هذا من علم العقائد، ولكن التزكية لا تقوم إلا على اعتقاد صحيح، ومن صفة المتزكي أنه يعلم هذه العقائد ويقتنع بها ويؤمن بها ويبني عليها، لذلك كان لا بد من التذكير بها،

لأنها أصلٌ لعلم التزكية، **والتذكير بها من التزكية**، ومن التزكيةتوجيهُ الإنسان إلى التسليم بها لأنها حق.

٢. **اعتراف القلب وإيمانه بالحقائق** الثابتة، وبناء الرغبات والإرادات القلبية عليها، ومعالجة الموانع القلبية، فمعرفة الحقائق لا يفيد إذا لم يقرَّ بها ويؤمنْ بها ويخضعْ لها، ولا يستفيد منها الإنسان إذا كان يستكبر عن قبول الحق، ولا يستفيد منها إذا كان يقرر بهواه ووهمِه أشياءَ يدَّعي أنها الحق، بدلاً من أن يرجع بعقله إلى الله وشرعه، كما لا يستفيد منها إذا كان ينشغل بشهواته وينسى هذه الحقائق، ومعالجة هذه الأمور التي تحول دون الاستفادة من الحقائق الثابتة؛ هي من علم التزكية، بل هي الأهم في علم التزكية.

والإيمان بالله وصفاته وبالرسول والقرآن والإيمان بالآخرة؛ يُوَلِّدُ في القلب حالات وصفاتٍ، كالإخلاص والتوكل والشكر والصبر والخوف والرجاء والرضا والحب، وإذا لم تنشأ تلك الصفات فيجب على الإنسان أن يتعلم العقائد التي ترسخها في القلب والنفس، ثم يحرص على تذكرها، ثم يرغب بها ويَسْتَحْلِيها، ثم يتكلف تلك الصفات في قلبه ويعمل بناءً عليها، ويستعين على ذلك بكثرة ذكر الله.

وفي هذه المرحلة يتحقق الطالب بالحد الأدنى من هذه الأحوال والمقامات، فتصير صفاتٍ في قلبه، كما يتعرف على أهم أمراض القلوب ويحاول معالجتها، وخاصة تلك الأمراض التي تحول دون الإيمان وقبول الحق، وهذا أساس السير لتحصيل القلب السليم.

٣. **اجتهادُ الجوارح في القيام بالأعمال الصالحة** وحمل النفس عليها، وتَكَلُّفُ **التَّخَلُّقِ** بالأخلاق الحسنة، فإذا صار القلب سليماً في توجهه ورغباته؛ فمن الطبيعي أن يكون هو السببَ في أن تنبعث وتندفع الجوارح والأعضاء من لسان وعين وسمع ويد ورجل وغيرها إلى أعمال صالحة ومعاملات سليمة وعلاقات مستقيمة.

وإذا وَجَدَ ضَعْفاً وتقصيراً بسبب ضَعْفِ الدوافع القلبية أو بسبب بقايا أمراضٍ ورغباتٍ قلبية منحرفة؛ حَمَلَ نفسَه على فعل الأعمال الصالحة وتركِ الأعمال الطالحة حَمْلاً، وجاهدها

وأجبرها وصبَّرها، حتى تكون الجوارح معينة للقلب على التوجه نحو الحق، وحتى تُساهِم وتُشارك الجوارح في علاج أمراض القلب، فتنعكس فوائد الأعمال على القلب وتزيده نوراً، وتُخرِج بقايا الظلمة منه.

ـ فإذا بذل الإنسان جهداً في التعرف على الحقائق الثابتة، ثم ألزم قلبه بها وأنشأ ميوله وعواطفه عليها، ثم بدأ يجاهد نفسه في التخلق بمقتضاها وفي إقامة العمل الصالح؛ فقد تحقق بخصائص مرحلة المبتدئ في التزكية، وقد أخذ من التزكية الحد الأدنى الذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم.

المرحلة الثانية: تزكية السالكين

الأمور الأساسية التي تقوم عليها هذه المرحلة وأهم الخصائص التي يتحقق بها:

١ . **رسوخ الحقائق الإيمانية** في النفس وحضورها في الذهن والنفس وعند الأعمال، فبعد أن عرف المبتدئ الحقائق التي يجب أن يعرفها، وجعلها المحرك الأساسي له في حياته، فإنه لا يكتفي أن يجعلها مجردَ اعتقاداتٍ مخزونةٍ في الذهن، بل يجعلها حاضرةً في ذهنه، من خلال نياته وخواطره وعباداته وأذكاره وآدابه ومعاملاته وعلاقاته، وسائر أعماله الظاهرة والباطنة، فتصير يقيناً، يحاول استحضاره في ذهنه وعند أعماله دائماً.

٢ . **التخلق بالصفات القلبية السليمة والأخلاق المحمودة** بحيث تكون حالاً له، يتحلى به غالباً، وقد يفقده أحياناً، فيبدأ التخلق بصفات القلب السليم الناشئة عن الإيمان بصفات الله، فيتقلب بين ظهورها عليه تارة، وبين تَكَلُّفِها تارة، وبين الغفلة عنها أحياناً، ويسعى في علاج أمراض قلبه، حتى يتطهر منها ويقل أثرها عليه، ويتكلف دفع خواطر السوء التي تهجم عليه أحياناً، وبذلك يكون قد دخل في مرحلة المتوسط.

فكان في مرحلة الابتداء يُخلِص، ويتكلف الإخلاص دائماً، ويجد مشقة في دفع الرياء، وصار في التوسط بين أحوال: فقد يُحِسُّ نفسَه مُخلِصاً مُتحققاً بصفة الإخلاص بلا مشقة في استحضاره ودفع مشوشاته من الرياء والعُجْب، وتارة يغفل عنه، وتارة يحتاج إلى شيء من

المجاهدة في استحضاره، ولا يكون متحققاً بمرحلة المتوسط ومنتهياً منها حتى يتحقق بصفة الإخلاص بلا مشقة ولا غفلة ولا حاجة إلى مجاهدة في استحضاره.

وكان في الابتداء يتوب عن بعض ذنوبه، ويغفل عن التوبة كثيراً، ولاسِيَّما عن ذنوبه الباطنة، فصار في التوسط كثير التوبة، يحاول التوبة من كل ذنب صغير أو كبير، ظاهر أو باطن، لكنه قد يغفل عن التوبة أحياناً.

وفي بداية المرحلة الثانية يزداد تحققاً بالتوكل، فيذكِّر نفسه بعدم قدرة الأسباب على التأثير، فينمو فهمُه وحالُه في التوكل، حتى يصير كثير الاعتماد على الله، متوكلاً عليه في أكثر أموره، في عباداته وأمورِ دنياه، وسائرِ الأسباب، لكنه قد يغفل عن التوكل أحياناً، فيغلب عليه الالتفات إلى الأسباب.

وفي بداية المرحلة المتوسطة يتعمق في فهم معنى الزهد، وما الواجب منه، وتزداد قدرته على التزهد ومدافعة الرغبات والشهوات الدنيوية، حتى يصير في نهاية المرحلة زاهداً إلى حد كبير، لا يكاد يميل إلى شيء من الدنيا وزينتها.

وهكذا في الصبر والخوف والرجاء والخشية والورع والرضا والطمأنينة والتواضع والحب وغيرها من أحوال القلب وصفاته وأعماله.

ـ وتزداد في هذه المرحلة مُلاحظةُ ما يَنْشأُ في قلبه من أمراض وأخلاق فاسدة، مع معرفته بوسائل علاجها، ومسارعته إلى التخلص منها والتحقق بما يقابلها من صفات سليمة، ويكون ذلك سهلاً عليه إلى حد كبير، كما أنه يلاحظ دقائق من أمراض القلب وعيوب النفس.

ـ وكان في مرحلة المبتدئ يتكلف العمل الصالح ويحمل نفسه عليه ويجاهد نفسه في فعله، ويكابِدُها في ترك المعصية ويجاهدها، فصار العمل الصالح مريحاً له مُزَيَّناً عنده مرغوباً فيه، لا يحتاج إلى تكلُّفِه ولا يتأخر عنه، وسَهُلَ عليه ترك المعصية فلم يعد يحتاج إلى مقاومةٍ نفسيَّةٍ في تركها، بل كَرِهَها ونَفَرَ منها.

٣. **استقامة الجوارح** غالباً على الأعمال الصالحة وترك المعاصي، وعدم التكلف في الأعمال

الناشئة عن الأخلاق الحسنة في التعاملات والعلاقات والسلوك؛ فلا يجد مقاومة نفسية عند إقباله على صلاته أو ذكره أو قيامه الليل أو صيامه أو صدقته أو جهاده أو دعوته، وهكذا في سائر الأعمال، لكنه قد يتكاسل عن قليل من النوافل.

وكان في الابتداء يحاول التخلق بكل خلق حسن، فصارت الأخلاق أكثر ثباتاً عنده، وقاربت أن تكون سَجِيَّة عنده لا كُلْفَة فيها، لكنه قليلاً ما تغلبه طبائعه وغرائزه وبيئته فترده إلى بعض أخلاقه المذمومة.

المرحلة الثالثة: تزكية المتحققين الشيوخ

الأمور الأساسية التي تقوم عليها هذه المرحلة وأهم الخصائص التي يتحقق بها:

١. **قوة الخبرة في الحقائق الإيمانية**، وعدم غيابها عن الذهن، فلم يعد يجد تكلفاً في استحضارها، فهي يقين مستقر عنده لا شك فيه، ولا تغيب عنه ولا تفارقه، يلازمها ويعيشها، ويعيش آثارها، فكأنه يرى الله في كل حين وعلى كل حال.

٢. **التحقق بصفات القلب السليم والأخلاق المحمودة واستقرارها** في النفس، وعدم وجود معارضة قلبية لها، واشتغال القلب بها، بحيث تصير مقاماتٍ له، لا تغيب عنه أبداً، فتصير سَجِيَّة له راسِخة في نفسِه، ويزول التَّكَلُّف لها، ويصير حضورها في القلب دائماً قوياً لا يحتاج إلى مجاهدة، وتنتفي عنده خواطر السوء، فلا يكاد يخطر في باله إلا الخير والحق، ولا يَعُود للشيطان عليه سُلطانٌ ولا وَسْواسٌ، في الجملة، وبذلك يكون قد دخل في مرحلة المتحقق.

فصار متحققاً بالإخلاص بلا مشقة في استحضاره، فلم يعد يحتاج إلى تكلُّف الإخلاص، ولا يأتيه خاطر الرياء والعُجْب والكِبْر.

ملازماً للتوبة لا تغيب عنه عند أي ذنب ظاهر أو باطن.

متحققاً بالتوكل، فلا يعمل عملاً ولا يتخذ سبباً إلا وهو منتبه أن الفاعل المؤثر فيه هو الله، فيعتمد على الله في جميع أعماله الدنيوية والعبادية.

متحققاً بالزهد، لا يجد كلفة في ذلك، فلا يجد ميلاً في قلبه لأي شهوةٍ وزِينةٍ مهما صَغُرَتْ،

ورَغْبَتُه كلُّها في رضوان ربه وفضِله وجنَّتِه.

متحققاً بالصبر والحلم، فكلما حضره موقف يتطلب الصبر والحلم ظهر صبره وحلمه.

وهكذا في جميع مقامات القلب السليم، كالشكر والخوف والرجاء و الخشية والورع والرضا والطمأنينة والتواضع والحب وغيرها.

وهكذا في جميع الأخلاق، كالصدق والعدل والأمانة والتواضع والحياء وغيرها.

٣. **استقامة الأعمال**، والتحقق في ذلك، فلا يتردد في خير ولا يتأخر عنه، ولا تعارضه فيه نفسه، لا في فريضة ولا نافلة، ولا يقع في معصية كبيرة ولا صغيرة إلا أن يشاء الله شيئاً، لكنه قد تصدر عنه هفوات قليلة نادراً.

تظهر آثار الأخلاق على جوارحه وفي أعماله ومعاملاته وعلاقاته وسلوكه، فلا يتردد في الصدق أو الكرم، ولا يجد كلفة في الحلم ورد دواعي الغضب، ولا تنازعه نفسه في الكِبْر بل تتواضع بلا مشقة، وهكذا في كل خلق يظهر أثره في المعاملات والعلاقات.

يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه، ويجتهد في نفع عباد الله وهدايتهم، بالقدر الذي يستطيع أن ينفع غيره به.

ـ ونتيجة هذه الأعمال والصفات التي تتحقق بها نفس الإنسان في كل مرحلة؛ تظهر ثمرات وأمور كالرؤى المنامية، والفهوم العلمية، والأذواق الإيمانية، وعلوِّ الهمة، والقدرة على إرشاد الآخرين، وغير ذلك.

المطلب الثاني

الطريق العملي لمراحل التربية

تكاد تتفق طرق الصوفية على منهج عملي في التربية والتزكية والسلوك إلى الله، فللسالك مراحل يمر بها من أول قَدَمٍ له عند الشيخ، إلى أن يصير شيخاً، والشيخ المربي يُرشِده في كل مرحلة ويُعطيه من الوصايا والنصائح والأوامر والأوراد ما يناسب حاله ومقامه[1].

أولاً: مرحلة الطالب:

إذ يأتي المسلم إلى المربي وهو بعيد عن الله، أو مقصر في أحكام الله، أو غارق في المعاصي والشهوات، أو غافل عن الآخرة، فيقبله الشيخ، ويوجهه إلى بعض الأعمال ليرى صدقه ورغبته واهتمامه، فيطالبه الشيخ بأمور أهمها:

١. أن يجتنب المعاصي والآثام، ويحذره منها ويبين له عاقبتها الوخيمة.

٢. أن يتعلم من علوم الدين والشريعة ما يلزمه، في العقيدة والفقه والتزكية.

٣. أن يلتزم بفرائض العين والكفاية، ويعمل بطاعة الله.

٤. أن يحافظ على الصلوات الفرائض والجماعة والسنن الرواتب.

٥. أن يتوب إلى الله توبة صادقة بشروطها.

٦. أن يلازم الشيخ المربي، ويحرص على مجالسه ودروسه.

ثانياً: مرحلة السالك:

فإذا استقام الطالب، وصار مُرِيداً لمزيد من الخير والتزكية، راغباً في مقام الإحسان، وشعر الشيخ أن نيته صادقة، ووجد فيه استعداداً لمزيد من العمل والإقبال، فيعطيه من الأعمال والأوراد والنصائح ما يزيده ويُفِيده ويرقيه.

فيأمره بالمداومة على أذكار الصباح والمساء، وأذكار المناسبات، والإكثار من الذكر والدوام

---

(١) وانظر تفصيل ذلك في شرح منظومة ابن البنا، في كتاب: التزكية تصوف أهل السنة، معاذ حوى.

عليه، ويأمره بالإكثار من الصيام، ويأمره بقيام الليل.

ويوجهه الشيخ المربي إلى بعض الأمور التي تساعده على التوبة والاستقامة والتدرب على المداومة على الذكر، ويذكره مرة بعد مرة بالإخلاص لله، ويوصيه بحسن الخلق، والتزام أحكام الله في المعاملات، ويحذره من الصحبة الفاسدة.

حتى يجد التلميذ بركة سيره والتزامه وإقباله، ومن ذلك يرى التوفيق في الحياة، والتثبيت على العمل الصالح، وحب الطاعة، والانشراح والطمأنينة.

وقد يكرمه الله بالرؤى الصالحة، والإلهام، والفراسة، والكشف، وغير ذلك.

أهم الأعمال والأوراد التي يطلبها الشيخ من السالك

البرنامج العملي اليومي لتزكية النفس

مستنبطاً من الكتاب والسنة

العـــمل	الوقت
المحافظة على الوضوء	دائماً
صلاة الفجر في جماعة مع الخشوع	بعد أذان الفجر
الجلوس في المسجد بعد صلاة الجماعة إلى ما بعد طلوع الشمس ثم صلاة ركعتين	بعد صلاة الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس بقليل
قراءة من القرآن مع التدبر	بعد صلاة الفجر إلى ما قبل طلوع الشمس بقليل
التسبيح: سبحان الله وبحمده مئة مرة	لمدة خمس دقائق قبل طلوع الشمس
أذكار الصباح المأثورة	لمدة خمس دقائق قبل طلوع الشمس
الاستغفار مئة، والصلاة على النبي ﷺ مئة، والتهليل مئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير	من طلوع الشمس إلى ثلث ساعة

صلاة الضحى	بعد منتصف الوقت بين الشروق والظهر، وعند بعض الفقهاء: بُعيد طلوع الشمس، إلى ما قبل الظهر بقليل
الإكثار من الذكر والمداومة عليه	خلال النهار والليل ما لم يكن مشغولاً
أداء الجمعة والصلوات المفروضة في أول وقتها جماعة في المسجد	المداومة على ذلك دائماً
الحرص على السنن الرواتب	قبل الفرائض وبعدها
التسبيحات ٣٣ والتحميدات ٣٣ والتكبيرات ٣٣ مع التهليل مرة	عقب الصلوات المفروضة
الحرص على أذكار وأدعية المناسبات	كل واحدة عند مناسبتها
الحرص على الأخلاق والاداب الطيبة والمعاملات الشرعية	دائماً
الصيام مع الاعتدال في الطعام	يوم الإثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر
الصدقة والأقربون المحتاجون أولى بها	لمحتاج فقير أو لدعوة إلى الله أو لتعليم الخير أو للجهاد في سبيل الله
طلب العلم الشرعي	حيثما تيسر له صحبة العلماء وملازمتهم
زيارة أخ في الله أو زيارة مريض	حيثما أمكن
التناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الحكمة	عند لزومه والقدرة عليه
أن يقوم بأعماله الدنيوية ليؤدي حق النفقة التي أوجب الله عليه لنفسه ولأهله مع الإتقان والمراقبة لله	بقدر حاجته وبما لا يضيع آخرته
حضور مجالس الصالحين في المواعظ والذكر	يوماً في الأسبوع على الأقل
ترك الشرك والسيئات والمعاصي وخاصة معاصي اللسان والمال والنظر	دائماً

الاستغفار	عند كل ذنب وبعده مباشرة
أداء الحج والعمرة والزكاة وصيام رمضان	الفريضة من ذلك مع الحرص على النافلة إن تيسرت
زيارة مقبرة	حيثما تيسر ولو مرة في الأسبوع في الليل أو النهار
زيارة مريض أو تفقد المرضى في المستشفى والاعتبار بأحوالهم وضعفهم	كلما مرض أخ لك وكنت مستطيعاً زيارته
تخصيص وقت للذكر مع الخلوة	نحو نصف ساعة في أي وقت، مع المداومة عليه يومياً، كأن يكون بعد صلاة العصر إلى المغرب أو في الليل
التسبيح بحمد الله مئة على الأقل.	قبل الغروب بعشر دقائق أو بنصف ساعة
أذكار المساء المأثورة	قبل أذان المغرب بعشر دقائق
قراءة نصف جزء من القرآن الكريم	بعد صلاة المغرب
الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، والتهليل، مئة مئة	إلى صلاة العشاء
ترك السهر والسمر إلا لضرورة وفي شيء نافع والبعد عن اللهو والبرامج الملهية والشهوانية	بعد العشاء
النوم مبكراً أو قيام الليل	بعد صلاة العشاء
تذكر الموت والدار الآخرة وحاسب نفسك ماذا أعددت للقاء الله	في أول النهار وقبل النوم ـ مثلاً.
قيام الليل بالصلاة والقرآن والتفكر والتسبيح والذكر والاستغفار، مع الخشوع والتدبر	حيثما تيسر من الليل
الدعاء لنفسك ولإخوانك وللمسلمين جميعاً	آخر الليل وفي السجود وبعد صلاة الفريضة وعند الحاجة والنوازل وبعد عصر الجمعة...
الاستغفار والتوبة مع التذلل والافتقار والندم	قبل أذان االفجر الثاني

ثالثاً: مرحلة السير القلبي:

فإذا قوي حال السالك، واجتهد في الطاعات، وثبت عليها، ودام على الذكر والأوراد، حتى ظهر عليه الإقبال والاستقامة وحسن الحال؛ عندئذ يعتني الشيخ بإصلاح قلبه وعلاج أمراض نفسه.

فيتكلم حول صفات النفس المذمومة والممدوحة، وحول أمراض النفوس، ويتكلم حول الخواطر والرغبات والإرادات والنيات، ويتكلم عن القلب وأعماله وصفاته وسلامته، فيفتح على التلميذ آفاقاً ومَعالِمٍ لم يكن يلتفت إليها ولا يدري بها.

وينبهه الشيخ إلى دقائق أعمال القلوب وألاعيب النفوس وحيل الشيطان، فيصير السالك يجاهد نفسه في إصلاح قلبه، فوق مجاهدة النفس في إصلاح ظاهره.

وأعمال القلب ترجع إلى خمسةَ عَشَرَ عملاً يتحقق بها السالك حتى تصير وصفاً عنده، ويتخلص مما يقابلها ويتطهر[1].

ويوصي الشيخ السالك في هذه المرحلة **بالاهتمام بالجانب القلبي** مع العبادات، فيعتني **بالتدبر** عند قراءة القرآن، **وبالحضور** عند الذكر، **بالخشوع** عند الصلاة.

ويوصيه **بتذكر الآخرة**، و**محاسبة النفس**، و**زيارة المقابر وأهلها** للاعتبار، **وعيادة المرضى**.

ويوصيه أن **يتذكر الملكين**، الرقيب والعتيد، ويتخيل كأن الشيخ معه فيتأدب مع الله كما يتأدب مع شيخه، أو يتخيل كأن النبي ﷺ معه، حتى يصل إلى درجة المراقبة، واستشعار معية الله ورقابته، فيتحقق بقول النبي ﷺ : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2]، ويتحقق بما ورد في هذه النصوص:

---

(١) وقد مرت معنا في الوحدة الثالثة في مجالات علم التربية، وهي: الإيمان، واليقظة والإنابة، والتوبة، والزهد، وحب الله ﷻ ورسوله ﷺ والمؤمنين، والخوف، والرجاء، والشكر، والصبر، والتسليم لله والرضا، والاستقامة، والتوكل، والإخلاص، والعبودية لله والذلة والافتقار والتواضع، والمراقبة.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨].

وقال رسول الله ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ »(١).

وقال ﷺ: « فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »(٢).

وقال ﷺ: « مَا قالَ عبدٌ: لا إِله إِلا الله، مُخلصاً مِن قلبه، إلا فُتِحَت له أبوابُ السماء، حتى تُفْضِيَ إِلى العرشِ، ما اجتنَبَ الكبائر »(٣).

رابعاً: مرحلة الخلوة:

وهي مرحلة قصيرة، لأيام قليلة نحو ثلاثة أيام، يبتعد عما يُشغِله، ويجتهد في طاعة الله وذكره، تحت إشراف الشيخ وتوجيهه.

حيث يكون السالك قد وصل إلى حالة طيبة، لكنه لم يستطع تجاوزها إلى أفضل وأعلى، بسبب مشاغل الدنيا وهمومها، فيحتاج إلى حالة نموذجية تساعد على صفاء القلب وانقطاعه إلى الله، وقوة الحضور معه، والوصول إلى الشعور القوي بأنس الله ومحبته، وتعظيمه وخشيته.

حتى يصل السالك إلى الاستسلام التام لأحكام الله، ويصير هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، ويتحقق بقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٣٤، عن عقبة بن عامر ﷺ.

(٢) جزء من حديث طويل، أخرجه مسلم رقم ٨٣٢ عن أَبي أُمَامَةَ عن عَمْرِو بْن عَبَسَةَ السُّلَمِيّ.

(٣) حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٥٩٠ والنسائي رقم ١٠٦٦٩، عن أبي هريرة ﷺ، وذكره بعض العلماء بلفظ: يفضي.

وهذه المرحلة على قصرها فلها أثر عظيم، ويختصر فيها السالك مسافة شاسعة في السير إلى الله، كما يعلم ذلك كل من جَرَّبَه.

وإذا لم يتمكن السالك من دخول خلوة؛ فقد يُعَوِّضُه بعض ثمراتها؛ كثرة الذكر والعبادة في كل يوم، فيغتنم كل ساعة من ليل أو نهار للعبادة والذكر، فلا يزال يترقى ويتنور حتى ينالَ ما يَنالُه أصحابُ الخلوة، ولو بعد حين.

خامساً: مرحلة الشيخ:

ثم يمر السالك بمقامات راقية وحالات سامية من العبودية لله، يرافقها عطايا من الله، وقد يرافقها إلهامات وكرامات، وهذه المقامات التي ينالها الصوفية الصادقون هي في الحقيقة ميراث من ميراث النبي ﷺ، فهناك ناس وَرِثُوا العلمَ، وهناك ناس ورثوا العمل، وهناك ناس ورثوا العلم والعمل والحال، وهم الذين يستحقون وصف العلماء، في قوله ﷺ : «والعلماء ورثة الأنبياء».

حتى إذا رأى الشيخ أن السالك قد مر بتلك المراحل والمقامات، وصار قادراً على التربية والإرشاد، وقادراً على التأثير والتغيير بإذن الله؛ أَذِنَه الشيخُ بالمشيخة والتسليك، فجعله شيخاً، وأمره بِتَقَبُّلِ التلاميذ والسالكين، والإشراف على المريدين، ليرشدهم، ويربيهم، ويصلحهم، ويقربهم إلى الله، بعد عَونِ الله وتأييده.

وبلوغ السالك إلى مرحلة المشيخة والتربية لا يعني أنه يتوقف عن السير والاجتهاد، فالمقامات والسير إلى الله لا ينتهي ولا يقف عند حد، حتى تلقى الله.

المطلب الثالث

تقييم حالة الإنسان

في أي مرحلة هو من التربية والسلوك؟

من الجدير بالمسلم أن يختبر الإنسان نفسه ليعرف كم هو تحصيله من التربية والتزكية.

لذلك اجتهدت في وضع جدول فيه بعض التفصيلات المتعلقة بكل مرحلة، يعين على معرفة المراحل وخصائصها وأعمالها، ويستطيع المسلم من خلاله أن يعرف إلى حد كبير كم هو حظه من التزكية وفي أي مرحلة هو، أو إلى أي مرحلة هو أقرب.

وإذا أراد أحدنا أن يعرف حاله ومستواه؛ فليضع إشارة (صح) في الجدول عند الصفة الموجودة فيه، ثم ينظر أي الجداول كانت إشارته فيه أكثر؛ فيكون أقرب إلى تلك المرحلة وصفاتها وخصائصها وأعمالها، والله أعلم.

الخصائص الظاهرة والباطنة والصفات والأعمال والأحوال	**(أ)** **مرحلة ما قبل التزكية** **أهل الكفر والعصيان والغفلة**	**(ب)** **خصائص المرحلة الأولى: مرحلة المبتدئ في التزكية [المريد]** **أهل الإسلام والأعمال**	**(ج)** **خصائص المرحلة الثانية: المتوسط [السالك]** **أهل الإيمان والقلوب**	**(د)** **خصائص المرحلة الثالثة: المتحقق [الشيخ]** **أهل الإحسان والقرب من الله**
(١) نظرته إلى التزكية	لا يهتم بتزكية نفسه ولا يبالي بها	وجدت لديه قناعة بأهمية التزكية، وشعر بضرورتها، ورغب في معرفة طريقها، وبدأ يجتهد في الاستقامة على أعمال الشريعة الظاهرة، وتطلع لأنْ يكون من الصالحين	ثبت في طريق التزكية، مع حضور هدفه ومقصده في ذهنه وقلبه	تحقق بأوصاف التزكية وحقق أهدافها في الجملة، وتطلع لأن يكون من الصديقين والمقربين

(٢) استعمال العقل	لا يستعمل عقله في معرفة ربه ولا فيما ينفعه في آخرته، لا يستعمله إلا لدنياه وشهواته	فكر بعقله وتوصل إلى القناعة العقلية بالحقائق الكبرى في الكون، كحقيقة وجود الله، وأنه الخالق المالك، وأن حق الحكم لله، وأن حكم الله قد وصلنا عن طريق الرسول، وأن الرسول صادق مؤيد بالمعجزات، وأننا محاسبون على أعمالنا في اليوم الآخر	يتوصل بفكره إلى حقائق أخرى، تترسخ في نفسه ويهتم بها: كحقيقة أن المشيئة والقدرة والتصرف لله في ملكه، وأن الحول والقوة والتأثير والعطاء والمنع والهداية والرزق والنفع والضر كلها بيد الله، وأن الله رحيم كريم تواب عفو، وأن الله قوي عزيز منتقم جبار، وتحقق من هوان الدنيا، وعظمة الآخرة، وهذه الحقائق يقين حاضرة في ذهنه، مؤثرة في سلوكه	قوة الخبرة في الحقائق الإيمانية، وعدم غيابها عن الذهن، بحيث لم يعد يجد تكلفاً في استحضارها، والعمل على أساسها، ويكون حاله كأنه يرى الله في كل حين وفي كل حاله
(٣) طلب العلم	لا يحرص على طلب العلم الشرعي النافع في الآخرة	يحرص على طلب العلم الشرعي وما ينفعه في آخرته، وخاصة في تعلم عقيدته وفقهه وتزكيته، ولو بشكل مختصر، ويهتم بمعرفة الفرائض ليعمل بها والمحرمات ليجتنبها	يحرص على كل علم يزيده قرباً إلى الله ومعرفة بالله، ويتعلم علم ما له علاقة بأحواله وقلبه وسيره إلى الله	يحرص على علم ما يزيده معرفة بالله، ويحرص على تعلم ما ينفع غيره من خلق الله
(٤) وجهة القلب	غافل، أو معرض عن الحق، مريد للشر، محب للشهوات	يرغب في الخير والحق والطاعة، ويريد وجه الله والنجاة في الآخرة، يكره السوء والباطل والمعصية، لكنه قد تكون له ميول توقعه في المعصية أحياناً	يتقي الله حق تقواه ويتحرى الحق في أدق تفصيلاته، ويتحرى الصدق مع الله في التقرب إليه، يتجرد عن كل شهواته	متحقق في إرادة وجه الله، لا يهوى إلا ما يريد الله
(٥) أحوال القلب	ليس في قلبه من معاني الإيمان وأحواله شيء، فلا إخلاص لله في قلبه، ولا حب ولا خوف ولا غير ذلك	تولد في عقله من خلال التفكير؛ الإيمان بالله ويتولد معه بعض الأحوال الإيمانية: كالخوف من الله والتوبة إليه، والرجاء له، ويبدأ يتكلف الالتفات إلى الإخلاص والحب لله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والمجاهدة لشهوات النفس ورغباتها	تَقَوَى هِمَّتُه وأحواله القلبية السليمة ،ويتخلق بها ويتكلفها أحياناً ويفقدها أحياناً قليلة، حتى يتحقق بالتوبة والإخلاص والتوكل والخوف والخشية والرجاء والصبر والشكر والزهد والورع والحب والمعرفة والطمأنينة، وقد تغلبه أحواله القلبية إذا لم يقيدها بالعلم والحكم الشرعي	تحقق بصفات القلب السليم، حتى لم يعد يجد معارضة قلبية لها ولا يحتاج إلى تكلفها، وتصير هذه الأحوال مقامات مستقرة عنده سجية راسخة في نفسه، مع قدرته على التحكم بها وإخفائها
(٦) الإخلاص	لا يهتم به	يحرص عليه ويتكلفه	يقدر على الإخلاص في	يلتفت إلى الإخلاص في

			وقد ينازعه الرياء والشرك الخفي أحياناً	طاعاته، لكنه قد يفوته الإخلاص في العادات	سائر أوقاته وأعماله، ولا مشقة عنده في استحضار النية وتحرير المقصد
الأعمال الجسدية من:	(٧) **المعاصي**	يقع في معاصي كالنظر المحرم وأكل المال الحرام والكلام الباطل وربما الخمر والزنا وغير ذلك	يحذر من المعصية ويقع فيها أحياناً، ويسارع إلى التوبة عند ذلك، ويلوم نفسه ويندم	تندر منه المعصية	لا يقع في معصية كبيرة ولا صغيرة إلا أن يشاء الله شيئاً، لكنه قد تصدر عنه هفوات قليلة نادراً، ويكون سريع الرجوع إلى الله
	(٨) **الطاعات**	لا يهتم بفعل الصالحات والطاعات	يحرص على الطاعات ويجتهد في إقامتها وخاصة الفرائض، ويحمل نفسه على فعل النوافل	مستقيم على أعمال الشريعة، يملؤ اوقاته بالطاعات والنوافل بعد الفرائض، ولا يجد مقاومة نفسية عند إقباله على صلاته وذكره وقيامه الليل وصيامه وصدقته وجهاده ودعوته، ولكنه قد يتكاسل عن قليل من النوافل	تحقق في الاستقامة فلا يتردد في خير ولا يتأخر عنه، ولا تعارضه فيه نفسه، لا في فريضة ولا نافلة، يحرص على متابعة النبي ﷺ في كل أمره في عقيدته وعبادته ومعاملته وأخلاقه ودعوته وجهاده وظاهره وباطنه
	(٩) **المباحات**	تشغله أعمال الدنيا	يأخذ من الدنيا حاجته وضرورته ولا ينشغل بها عن الله وطاعته، ويستعمل دنياه فيما يقربه عند ربه	كالسابق لكنه يزيد من إنفاق الدنيا في آخرته ودعوته	جعل كل دنياه لآخرته
(١٠) **الذكر والمراقبة**		لا يعرفهما	يكثر ذكر الله، ويحاول أن يكون دائم الذكر لله تعالى، في أوقات فراغه، على ضعف في حضوره ويراقب الله في أحكامه، فينتبه في كل وقت وظرف إلى حكم الله وأمره ومراده	دائم الذكر لله، قوي الحضور، ينتبه إلى أحكام الله وينتبه إلى أن الله يسمعه ويراه ويراقبه ويحصي عليه، فيتصرف متأدباً مع الله وجلاله	لا يكاد يغفل عن الله، مع أنس بالله وهيبة منه متمكن من المراقبة يخاف مقام ربه ويقدره قدره ما استطاع
(١١) **الأخلاق**		لا يحرص على الأخلاق إلا ما يحقق له مصالح دنيوية غالباً	يتكلف التأدب بالأخلاق الحسنة، كالصدق والكرم والحلم والتواضع والعدل والعفة وغيرها، يجاهد نفسه في التأدب بها، ويحرص على التعامل مع الآخرين على أساسها	تتوافق أخلاقه الظاهرة مع ما يبطن، وتصير الأخلاق أكثر ثباتاً عنده، وتكاد تكون سجية عنده لا كلفة فيها، لكنه قليلاً ما تغلبه طبائعه وغرائزه وبيئته فترده إلى بعض أخلاقه المذمومة	لم يعد يتكلف الأخلاق، فصارت سجية فيه، راسخة في نفسه، وتظهر آثارالأخلاق على جوارحه في عباداته وأقواله وأعماله ومعاملاته وعلاقاته
(١٢) **الأوراد**		ليس له أوراد يتقرب بها إلى	يقوم بأوراد يومية من الصلاة والقيام والقرآن	يحرص على أوراده ويتحرى الخشوع فيها والتدبر	يحرص على أوراده والعبودية فيها والحضور

	الله	والذكر والصيام والصدقة والتفكر وتذكر الآخرة، وغير ذلك، ويحرص عليها	واستحضار فيها معنى العبودية لله والذلة والانكسار والحب	مع الله فيها، ويصير سريع الحضور قوي التدبر عميق الفهم شديد الخشوع رقيق القلب قريب الدمعة
(١٣) المجاهدات	لا يهتم بها	يجاهد نفسه في ترك المعاصي وترك المال الحرام والكلام السيء والطعام الكثير والنوم في الأوقات المباركة	يخالف نفسه في شهواتها وأهوائها كلها، ويترك الشبهات، ويوافق حكم الله وإذنه في كل شيء، يزهد في الدنيا ويَعِفُّ عما ليس له، يجاهد نفسه ألا يفوته وقت إلا في نفع وطاعة وذكر	ساكن لا يغضب لنفسه ولا يتحرك بشهوتها، يجاهد نفسه في ترك الدعاوى والغرور، لا يفكر في مقامه وعمله، مستغرق في عبوديته، يجاهد خواطر نفسه، فلا يقبل إلا خاطر الخير والحق
(١٤) أمراض القلب	كثيرة عنده ولا يلتفت إلى إصلاحها	لا يخلو من أمراض القلوب، وليس عنده كثير انتباه إلى إصلاحها، وهو ضعيف القدرة على علاجها، مع رغبته في التخلص مما لا يرضي الله	مهتم بعلاج أمراض القلوب، يجاهدها ويتكلف علاجها حتى يتخلص منها، فيتخلص من الرياء والكبر والغرور والحسد والتعلق بالدنيا والغفلة واتباع الهوى والخواطر السيئة وغير ذلك	طاهر من أمراض القلوب في الجملة، فلا سبيل لها إلى قلبه
(١٥) الشيخ والعالم والصاحب	يصاحب أهل السوء والغفلة والدنيا، ولا يحرص على الصحبة الصالحة، ولا يحبهم	يحرص على الصحبة الصالحة ويحبهم في الله، ويحب قراءة قصصهم، ويترك أصحاب السوء، وقد يجالسهم أحياناً عن غفلة، يبحث عن شيخ صالح عالم مُرَبٍّ، ويلازم دروسه، ويطيع نصائحه، ويقتدي به	يحرص على صحبةِ مَنْ هُم مِثلُه في الحال، ويتجنب صحبة من دونه، وينزعج من مجالسة أهل السوء، يحرص على صحبة الشيخ الأرقى علماً وحالاً، ويراجع شيخه ويذاكره في أحواله ومناماته ومعيقات سيره	يبقى متواضعاً لشيوخه معترفاً بفضلهم عليه، يشاورهم في أموره، ويذاكرهم في مقاماته ومعارفه، ويتعاون مع أصحابه على الخير والبر والتقوى
(١٦) خواطر المَلَك والشيطان	لا يجد إلهامات من الملك، بل يوسوس إليه الشيطان بالشر والمعصية، فيتبعه ولا ينتبه إلى أن الشيطان عدوَّه هو الذي يوسوس إليه بذلك	تزداد خواطر الخير عنده، يحدث نفسه بالخير والطاعة، يحذر من خواطر الشر التي تأتي من نفسه ومن الشيطان، فلا ينساق وراء الخواطر حتى يتأكد من كونها خيراً وموافقة للشرع، لكنه قد تغلبه نفسه فتزين له المعصية فيقع فيها، وقد تثير عنده شبهات	تكثر إلهامات الخير عنده، ويستطيع التمييز بين خواطر الخير والشر، ويرد كل خاطر سوء وينكره في قلبه، ولا يتبع خطوات الشيطان، ويحذر من مداخل الشيطان وتلبيساته	تلازمه إلهامات الملك في كل أحواله، وتشكل سبباً مهماً في هدايته وحفظه على الحق، يحفظه الله من كيد الشيطان، ويذهب عنه وسوسته، وإذا وسوس له الشيطان زاده تبصرة وانتباهاً

(١٧) **من ثمرات عمله**	يجد الخذلان ومزيد الغواية ويُشغل بالدنيا والشهوات عن الله وطاعته	يجد توفيقاً إلى الخير، وراحة نفسية وتكثر رؤاه المنامية غالباً، وقد يبتليه الله بمن حوله فيذمونه، اختباراً لصدقه	يجد تيسيراً وتسهيلاً في أمور الدنيا، ورزقاً من حيث لا يحتسب، ويجد مزيداً من الهداية، وفهماً في دين الله، وتزداد إحساساته القلبية كالإلهام والفراسة والبصيرة وحلاوة الإيمان، وتظهر أحواله الإيمانية، ويرى رؤىً صالحة مبشرة ودالة على مزيد من الخير	يتحقق برتبة الولاية وكرامة أهلها، مستقيماً، متحققاً في مقامات التزكية، مع قدرته على الاستفادة من أحواله وإحساسات قلبه دون أن يُشعر من حوله بوجودها عنده، ويصير أهلاً للمشيخة والتربية والإرشاد والدعوة، يكرمه الله بالحكمة والحلم والرحمة
(١٨) **شأنه في الدعوة**	لا يهمه الإصلاح وقد يكون مريداً للإفساد	منشغل بنفسه عن دعوة غيره، لكنه إذا وجد مجالاً لنصيحة المسلمين أو لأمر بمعروف أو نهي عن منكر فَعَل	كالأول، لكنه يصير أكثر نصحاً وأمراً ونهياً، لما يؤيده الله به من الشجاعة والفهم والرغبة في الخير	يحرص على تعليم الخلق ودعوتهم وهدايتهم ونصحهم ونفعهم، بحسب أهليته في ذلك، ويصبر على ذلك، ويبذل جهده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه، حريص على المؤمنين، متحرق على الأمة وأحوالها، جريء في الحق مع الحكمة

المبحث الثاني

نشأة التصوف ونشأة الطرق الصوفية

باعتبارها طرق التربية الإسلامية

أولاً: التصوف هو الإحسان، وهو جانب من جوانب من الإسلام، إلا أنه ظهر باسم التصوف بعد حوالي قرنين، ليدل على جانب إصلاح النفس، وتصفية القلب، والاهتمام بالعبادة والذكر، والتحقق بالزهد، والتطلع إلى مقام الإحسان والصديقية، «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

والله أمرنا بالعدل والإحسان، فالعدل إعطاء كل ذي حقه، والإحسان زيادة فوق ذلك بما لا يعارض العدل، ولا يكون المسلم صوفياً إلا أن يكون متحققاً بالعدل حريصاً على الإحسان فوق ذلك، ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾.

قال **ابن خلدون**: «وهذا العلم ـ يعني التصوف ـ من العلوم الشرعية الحادثة[2] في الملَّة، **وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة** وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عامَّاً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية»[3].

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٠ ومسلم رقم ٩، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) بين الدكتور محمد الصادق عَرجُون أن تعبير ابن خلدون بأن التصوف حادث يتحدث به عن **التصوف النظري**، كعلم له نظرياته وكتبه واصطلاحاته، وأما نسبته التصوف إلى النبي ﷺ وأصحابه في نهاية الفقرة؛ فيتكلم فيه عن **التصوف العملي**، الذي هو السلوك الخلقي، والتطبيق الواقعي لروح الشريعة وآدابه ... انظر: التصوف في الإسلام، ص ٧-٨.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٢٩.

وقال الشيخ عبد القادر عيسى: « التصوف ليس أمراً مستحدثاً جديداً؛ ولكنه مأخوذ من سيرة الرسول ﷺ وحياة أصحابه الكرام، كما أنه ليس مستقى من أُصول لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما يزعم أعداء الإسلام من المستشرقين وتلامذتهم الذين ابتدعوا أسماءً مبتكرة، فأطلقوا اسم التصوف على الرهبنة البوذية، والكهانة النصرانية، والشعوذة الهندية فقالوا: هناك تصوف بوذي وهندي ونصراني وفارسي، يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه يرجع في نشأته إلى هذه الأصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة أخرى، ولكن الإنسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية، ولا يقع بأحابيلهم الماكرة، ويتبين الأمور، ويتثبت في البحث عن الحقيقة، فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للإسلام، وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب »[1].

وقال الدكتور محمد الصادق عرجون: « ويظهر أنه كان في طليعة من وَطَّدَ لهم قواعد التأليف المنظَّم الشامل في علوم الزهد والورع والإخلاص، وأقام لطريقتهم دعائمها، ووَطّأ لهم سبيله: الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد **المحاسبي**.

وفي كتابه **الرعاية** ما يشهد بذلك، فهو أول كتاب جامع لأبواب السلوك العملي، في أسلوب علمي، على نهج الزاهدين العُبّاد من أهل العلم بالله، وكان المحاسبي معاصراً للإمام أحمد بن حنبل، وكان عليماً بظاهر الشريعة وأصول الدين على قواعد المتكلمين، وخبيراً حاذقاً بعلوم المعاملات والدلالة على الله، وقد ردَّ على المبتدعة »[2].

ثانياً: كما ظهر علماء متخصصون في الفقه ومجتهدون، واعترف الناس بإمامتهم فيه، فكذلك ظهر أئمة صالحون مصلحون، اعترف الناس بقدرتهم على التربية، ونسبت إليهم طرق التربية الصوفية، فكان من أشهرهم: الرفاعي، والجيلاني، والبدوي، والدسوقي، والشاذلي، والنقشبندي، وغيرهم كثير.

---

(١) حقائق عن التصوف، ص ١٤.

(٢) التصوف في الإسلام، منابعه وأطواره، ص ٨٦.

وهذه الطُّرُق التربوية راجعةٌ إلى الكتاب والسنة في اجتهاداتها في التربيةِ وتزكيةِ النفوس، لكنها لا تخلو من اختلاف كاختلاف الفقهاء في اجتهاداتهم وأصولهم، وهي كما قال البوصيري: (وكُلُّهم مِن رسولِ الله مُلْتَمِس).

وكما أن المجتهد الفقيه يجتهد فيصيب وقد يخطئ؛ كذلك المجتهدون في التربية قد يقع منهم الخطأ في العلم أو الوسيلة أو العمل، لكنهم معذورون كالفقهاء، وقولُ الإمامِ المجتهدِ في أمر اجتهادي لا يعتبر قولاً ساقطاً، إنما يعتبر قولاً مرجوحاً في حق مجتهد آخر، أما العامة فليس لهم الحكم على إمام مجتهد، إنما لهم نقل كلام المجتهد مع الأدب.

ومدارس التربية المنسوبة إلى أئمة الصوفية مقبولةٌ في الأمة، ومعمولٌ بها، والناس سائرون عليها، وما تبعهم الناس والعلماء إلا لما عرفوا من صلاحهم وقدرتهم على الإصلاح والتهذيب والهداية والإرشاد والتربية.

وعامَّةُ ما ترى من انحراف عند الطرق الصوفية فهو من الأتباع لا من المشايخ الذين نُسِبت إليهم الطرق[1].

وقد يكون بعض المشايخ الذين انتسبوا إلى الطرق منحرفين، لكن ظنَّهم الناس على خير، وإنما يحكم الناس بحسب ظنهم، والحكم لله أولاً وآخراً، وواجبنا إذا وجدنا شيئاً فيه خَلَلٌ أن نَرُدَّ ذلك إلى الكتاب والسنة، بفهم أهل السنة، وما قرره علماؤهم، فما أجمع العلماء على رده رددناه.

وإنما كان لهذه الطرق شرفها وأهميتها لأن أصحابها اقتدَوا برسول الله ﷺ، فهو ﷺ المرجع الذي يتشرف بالانتساب إليه أصحابُ الطرق وغيرُهم.

وقد طرأ على كثير من الطرق بِدَعٌ وانحرافات ونقص وزيادات؛ فواجبنا أن نصلحها ونردها إلى صوابها.

---

(١) فأنت تجد ـ مثلاً ـ الإمام الرفاعي في كتابه: «البرهان المؤيد»، ينكر الشَّطحات والقولَ بالوحدة المطلقة إنكاراً شديداً، ويعتبرها ثلمة في الدين، وتجده ينكر البدع ويحذِّر منها، وينكر دعاوى الشيوخ وترفعهم على تلامذتهم، ويحث على التواضع والعبودية والاتباع والأخذ بالسنة، بينما تجد كثيراً من المنتسبين إلى طريقته قد وقعوا فيما أنكره وحذر منه.

ثالثاً: تعدد الطرق الصوفية المعتبرة لا يعني مخالفتها للإسلام، وإنما هي اختلاف في الوسائل والسُّبُل والطرائق في تربية النفوس، وخاصة في بداية السير إلى الله، وإلا فنتائج السير واحدة في الاستقامة وحُسنِ الأحوال.

فمِن أصحاب الطرق من يهتم ـ في بداية السير ـ بالمعارف والعقائد ويرسخها في النفوس لتنشِئَ سيراً صحيحاً ورغبة قلبية سليمة.

ومنهم من يهتم بالآداب الظاهرة والباطنة.

ومنهم من يهتم بمجاهدات النفس ومخالفة أهوائها.

ومنهم من يهتم بالذكر.

ومنهم من يهتم بترك المعاصي والتحذير منها.

ومنهم من يُذكِّر بالآخرة ويحبب الجنة ويخوف من النار.

ومنهم من يهتم بالعلم الشرعي بتعليم العقيدة والفقه في أول السير.

ومنهم من يعطي القلب اهتماماً.

ومنهم من يعطي الظاهر اهتماماً في البداية، وهكذا.

كما تختلف الطرق بحسب ترتيب الأوراد، فيما وراء الفرائض والرواتب، فما نَدب إليه الشرع الشريف من غير أن يربطه بوقت معين؛ فقد جعل بعضُ أصحابِ الطرق لتلاميذهم حَدّاً مُعَيَّناً، أو عدداً معيناً، يلازمونه ويتخذونه وِرْداً لا يتركونه، ليكون مع الفرائض والسنن الرواتب سبيلاً للتقرب إلى الله.

رابعاً: والتصوف ليس مختصاً بفئة من المسلمين، بل هو لكل المسلمين، ولذلك لا تكاد تجد عالماً إلا وهو سالك طريقاً من طرق الصوفية.

فالتصوف هو التزكية، وهو أحد جوانب الدين عند أهل السنة والجماعة، وطبيعي أن ينشأ هذا التخصص ويوجَد هذا العلم ويظهر من يعتني به.

قال الدكتور صلاح أبو الحاج وهو يعدد الجوانب التي اعتنى بها أهل السنة والجماعة، فذكر الفقه والعقيدة والسلوك، فقال: « والثاني: **الجانب السلوكي**: ويمثّله طُرُقٌ عديدةٌ **كالرِّفاعية والقادرية والنَّقْشَبَنْدِيَّة والشاذلِية والتِّيجانِيّة**، وكُلّها تسلك سُبُلاً تعين على تزكية النفس وتخليصها من رذائلها، وتعمق الأدب والإخلاص لله ﷻ، معتمدة في ذلك على الهدي القرآني والنبوي وما أُثِرَ عن الصحابة والتابعين وأئمة الدين في تطهير النفس وتَنْقِيَتها »[1].

وقال: « ومن الدّلائل الظّاهرة على أن التصوفَ يمثِّل الجانب السلوكي عند أهل السنة أنك تجد كبار الأئمة وعلماء الأمّة كانوا يأخذون به ويسيرون فيه، **كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والنوويّ والسُّبْكِيّ والغَزاليّ والسُّيوطي وابن حَجَر العَسقلاني وابن حَجَر الهيتمي والقاريّ والزبيديّ وابن عابدين واللكنويّ** وغيرهم »[2].

وإن أردت استيضاح ذلك فراجع كتب التراجم المفصّلة لأحوالهم، فإنك سترى عياناً اهتمامهم بالجانب السلوكي مع اهتمامهم بالجانب الفقهي والعقدي؛ لأن هذه مكونات الشخصية المتكاملة»[3].

خامساً: إن عدم وجود اسم التصوف في القرن الأول وأكثر القرن الثاني الهجري، لا يعني أن التصوف وطرق التربية لم تكن موجودة من حيث المضمون والمعنى، وإنما اشتهرت قبل اسم التصوف بأسماء أخرى فسمي أتباع النبي ﷺ : **الصحابة**، ثم سمي الجيل الذي بعده: **التابعين**، ثم من بعدهم: **أتباع التابعين**، ثم قيل لخواصِّ الناس مِمَّن لهم شدة عناية بأمر الدين: **الزّهاد والعُباد**، ثم ظهر اسم **الصوفية**، ليطلق على خواصِّ أهل السُّنة، وذلك قبل المائتين من الهجرة[4].

قال الدكتور صلاح أبو الحاج: « وسُمِّي العلم المختص بها [بالجانب التربوي] التصوّف، وقد ظهرت فيها طرق عديدة تستقي من مشكاة النُّبوة لتحقيق هذا المقصد، فالتَّصوف بذلك عبادة، ورسول الله ﷺ سيد العابدين.

---

(١) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ص ٦٥.

(٢) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، ص ٥٠.

(٣) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، د. صلاح أبو الحاج، صفحة ٤٩ وما بعدها.

(٤) انظر: الرسالة القشيرية، ص ٦.

وابتداء حقيقة التصوف والزّهد من بعثته ﷺ، وقد تبعه أصحابه من بعده، واختصّ منهم جماعةٌ سُمُّوا بأهل الصُّفة[1] بمزيد من الاهتمام والاعتناء بأمور المجاهدة النّفسية.

وخلفَ التابعون وتابعوهم الصحابةَ الكرام ﷺ، فأخذ بعضُهم عن بعض حتى برزَ جماعةٌ منهم: الجنيد البغدادي، وإبراهيم بن أدهم، والسري السقطي، وأبو يزيد البسطامي، والحَسَن البصري، وأمثالهم كثيرٌ ممَّن يرجع إليهم في شؤون التربية وتزكية النُّفوس.

ثم تبع هؤلاء أفاضل أجلّة ألَّفوا في التصوف، وقعَّدوا قواعده، منهم أبو بكر الكلاباذي في كتابه «التعرف بمذهب أهل التصوف»، وأبو طالب المكي في كتابه «قوت القلوب»، وحجة الإسلام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»، الذي كان اللبنة الكبرى في اعتماد مَن أتى بعده عليه حتى قالوا: «لولا الإحياء لَمَا كُنّا من الأحياء»، ثم توالت المؤلفات والمصنفات بعده حتى أصبحت عدداً لا يحصى[2]»[3].

(١) فعن أبي هريرة ﷺ، قال: دخلت مع رسول الله ﷺ فوجد لبناً في قدح، فقال: «أبا هر، الحق أهل الصفة فادعهم إلي» في صحيح البخاري٨: ٥٥.

(٢) ينظر: عوارف المعارف٥: ٥٥، والحكم العطائية شرح وتحليل١: ٧، وتأييد الحقيقة العلية ص١٥.

(٣) السياسة الراشدة في الدولة الماجدة، د. صلاح أبو الحاج، صفحة ٤٩ وما بعدها.

المبحث الثالث

كتب طرق التربية الصوفية

وأهم مؤلفات التصوف المعتمدة عند أهل السنة

أولاً: تعتبر كتب التصوف هي كتب التربية الإسلامية، فإن تخصص التربية قد اشتهر باسم التصوف في تاريخنا منذ القرن الثاني حتى يومنا هذا، وواجبنا أن نعلم ما هي كتب التصوف والتربية التي تُمَثِّلُ الإسلامَ الصافي، وتمثل التصوف العليم، وتدل على طرق التربية الإسلامية المستقيمة.

ثانياً: مئات الكتب في التصوف، معتمدة عند أهل السنة في مجملها، وإن كان لا يخلو كتاب من عبارات أو ملاحظات، فالعبرة بما قَبِلَه علماء الأمة من تلك الكتب، أما العبارات التي أنكر عليها العلماء فهي مما لا يجب أن يُتَّبَع، ولا أن يعتبر من منهج أهل السنة، ولو صدر عن شيخ معتبر، فالعبرة عندنا بالعلوم والمدارس التي استقر عليها أهل السنة، لا بالأشخاص وأقوالهم المفردة.

ولا يجوز أن يأتي بعض الناس إلى نحو عشرة كتب، منسوبة إلى التصوف، وفيها أمور مستنكرة جداً، فيتهم التصوف والصوفية وأهل السنة بالانحراف، ويجعل من هذه الكتب القليلة التي يُنكِر عليها أهلُ السنة وعلماءُ التصوف؛ يجعل منها حجة على التصوف كله.

وكما أن أكثر كتب الفقه عند المذاهب الأربعة وعند أهل السنة؛ ليست كتباً معتمدة في المذاهب، فلا يؤخذ الراجح منها، وقد تزيد هذه الكتب على تسعين بالمئة مما أُلِّفَ في الفقه، وبعض الكتب المعتمدة فيها أقوال قليلة غير معتمدة عند أهل العلم والتخصص؛ فكذلك في التصوف تجد ألوف الكتب عند أهل السنة، لكن المعتمد منها قليل، وبعض المعتمد منه لا يخلو من أقوال أخطأ فيها أصحابها، وهذا لا يوجب رفض هذا العلم وهذه الكتب، وإنما يقتضي

تنقيتها، والرجوع إلى العلماء المعتبرين الذين ورثوا التمييز بين الصحيح والباطل، والذين يميزون العبارات الموزونة من الشطحات، والذي يعرفون قيود العبارات، ومعاني الإشارات.

ثالثاً: يظن بعض الناس أن الكتاب لا يعتبر معتمداً في علم من العلوم حتى يكون معصوماً، وهذا تصور خاطئ، فلا يخلو كتاب بعد كتاب الله من إشكالات أو اجتهادات.

أ. فوجود بعض الاجتهادات التي يختلف فيها المربون؛ لا يجعل الكتاب غير معتمد في التربية والتزكية والتصوف.

ب. ووجود بعض الأحاديث الضعيفة لا يمنع قبول الكتاب، وأكثر العلماء يقبلون الحديث الضعيف في الفضائل، بل كثير من المجتهدين يقبل الضعيف في الفقه إذا لم يعارضه غيره، ويُقَدِّمُه على القياس.

والحديث الضعيف يُحتَمَل أن النبي ﷺ قاله، ويحتمل أنه لم يَقُلْه، ولم يثبت أحدهما، فلا ينبغي الجزم بإثباته، ولا ينبغي الجزم برده، لكن إن كان معناه ثابتاً في الشريعة وأصولها وأدلتها الأخرى، فيقال فيه: ضعيف الإسناد صحيح المعنى، تنبيهاً إلى عدم جواز رد معناه.

ومع ذلك فمن المطلوب تمييز هذه الأحاديث الضعيفة، وبيان ضعفها، حتى لا تُجعَلَ حجةً كاملة، ولا تقدم على ما يخالفها من القرآن والسنة الصحيحة والقواعد الثابتة المستنبطة من الشريعة.

ج. ووجود قليل من الأحاديث الموضوعة لا يمنع قبول الكتاب، فلا يكاد يخلو كتاب من أن يَذكر حديثاً ولم يتأكد من صحته، أو توهم المؤلف صحته أو حسنه، فإذا هو ضعيف، وكثير من الأحاديثِ الموضوعةِ معانيها صحيحةٌ، وهناك أدلة من القرآن أو السنة الصحيحة في معناها، فوجودها لا يؤثر على صحة العلم، لكن مع ذلك لا بد من بيان أنها لا تصح نسبتها إلى رسول الله ﷺ.

د. ووجود بعض القصص والكرامات الغريبة، لا يجعل الكتاب غير معتمد، ولا غير معتبر، إذِ اعتادَ العلماء أن القصة التي تحتمل الصواب، ولها وجه من العبرة؛ أن لا بأس بالاستشهاد بها، ويجب التنبه إلى عدم الاستشهاد بها في جانب خاطئ أو بالاحتمال المنكر.

ومما يكاد يجمع عليه المصنفون من أهل العلم أنه لا حاجة إلى طلب الإسناد في هذه الأمور، فهي ليست حجة بذاتها، ولو ثبتت، وإنما يكفي الرواية مع كونها من الممكنات، مع احتمال الصواب من وجه من الوجوه، ولو أن المصنفون والمؤلفون أرادوا إحصاء أسانيد ذلك لتضخمت الكتب كثيراً بلا فائدة ولا ثمرة.

رابعاً: إنما تكون **الكتب غير معتبرة وغير معتمدة** إذا وُجِدت فيها اتجاهات منحرفة، أو عبارات باطلة، لا تحتمل التأويل على وجه صحيح، أو دعوة إلى بدع اعتقادية أو عملية.

وهاهنا ننبه أن في بعض الكتب الصوفية عباراتٍ ظاهرُها مُشكِل ومُنكَر، وبعضُ العبارات ظاهرها كفرٌ، ونجد أن بعض مؤلفيها ممن كتب لهم القبول، ونُسبُوا إلى الولاية.

ككتاب: الفتوحات المكية، لابن عربي الحاتمي، وكتابه: فصوص الحكم.

وكتاب الإنسان الكامل للجيلي.

ورسائل ابن سبعين (ت ٦٦٩هـ).

وهذا الصنف من الكتب يختلف موقف علماء أهل السنة منها على مناهج:

١. فمنهم من يعتبر هذه العبارات كفراً حقيقياً، ويكفر صاحبها.

٢. ومنهم من يعتقد أن هذه العبارات مدسوسة من بعض النساخ الكفرة أو الحاقدين، وينزه مؤلفين عنها، مع نهي العامة ممن لا يميز الصواب من الخطأ والكفر من الإيمان عن قراءتها.

٣. ومنهم من يعدها من الكتب المردودة، وينهى عن قراءتها، مع اعتقاد ولاية أصحابها.

٤. ومنهم من ينهى العامة عن قراءتها، ويجيز للعلماء والأولياء قراءتها.

٥. ومنهم يرى أنها عبارات ظاهرها باطل، لكن سياقها ومقصدها صحيح، وأن الأولياء والشيوخ المربين يدركون مقاصدها الصحيحة المتوافقة مع عقيدة أهل السنة ومنهجهم، ولا يجيزون قراءتها للعامة ولا للسالكين، وإنما تقرأ بين يدي الشيخ المربي الفاهم لها فيشرحها على وفق عقائد أهل السنة، وعلى وجه مقبول نافع.

٦. ومع كون بعض هذه الكتب تحتوي إشكالات كثيرة، وعبارات باطلة، فلا تخلو من عبارات نافعة وصافية، فعلى سبيل المثال كتاب الفتوحات لابن عربي يحتوي أكثر من ثلاثة أرباعه على علم نافع ومعاني راقية توافق منهج أهل السنة، وقد كان من منهج بعض مشايخنا، أن يستفيد منها المربي دون أو يُرجِع إليها السالكين.

خامساً: في دراسة الفقه تجد لكل مذهب كتبه الخاصة به، فلا تدرس مذهب الشافعية من كتب الحنفية، ولا مذهب الحنابلة من كتب المالكية، ويختلف هذا الأمر في كتب التصوف، فجميع كتب التصوف المعتمدة مقبولة عند جميع الطرق، وكثيراً ما تجد شيخاً رفاعياً يدرس كتباً ألفها شيخ شاذلي، أو تجد شيخاً نقشبندياً يدرس كتاباً ألفه شيخ رفاعي، فرغم اختلاف الطرق لا تجد حداً فاصلاً في التأليف بينها، حيث إن المعاني المطروحة في كل كتاب من الكتب المعتمدة؛ هي ذات المعاني التي تتباها جميع الطرق، وتتكامل الكتب في تحقيق هدف واحد، وتدعو إلى أعمال ظاهرة وقلبية كلها من الشريعة المحمدية.

وهذا التكامل بين الكتب والتقبل لما عند الطريقة الأخريمن كتب؛ يدل على أن الاختلاف بين الطرق ليس في المضمون والأعمال والمقاصد، وإنما هو في ترتيب السلوك للمريد، ليس أكثر.

وعلى سبيل المثال تجد أن الإمام الشاذِلي رحمه الله (ت ٦٥٦هـ) لم يؤلف لنفسه كتباً يعتمدها في طريقته، بل كان يدرس كتباً لأئمة سبقوه، فقد ذكر الشيخ عبد الحليم محمود [1] أن أبا الحسن الشاذلي كان يدرس من الكتب الآتية:

---

(١) في مقدمته لتحقيق كتاب لطائف المنن، لابن عطاء الله السكندري، صفحة ١١ وما بعدها.

إحياء علوم الدين للغزالي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، والرسالة القشيرية، والشفاء للقاضي عياض، وغيرها.

سادساً: يمكن تقسيم أنواع كتب التصوف إلى عدة تقسيمات:

١. **فمنها** ما يعتبر مناسباً للمبتدئين، **ومنها** ما يناسب المتوسطين في السير إلى الله، **ومنها** ما يناسب المتقدمين والشيوخ والمتحققين.

٢. **ومنها** ما هو مختصر كالمتن، يركز على أهم المسائل، وكأنه قواعد ومبادئ، وهي على مستويات من حيث مناسبتها للمبتدئ أو المتوسط أو المتحقق، **ومنها** ما هو متوسط الحجم والتفصيل، **ومنها** ما هو مفصل ومستوعب لتفاصيل السير إلى الله بشكل كبير أو مستوعب، **ومنها** ما هو اختصار للمُطَوَّلات.

٣. **ومنها** ما هو ضمن كتب في تخصصات أخرى، ككتب **التفسير** وكتب **الحديث** وشروحه، فكثير منها اهتم بالتربية والتصوف، وإن لم تكن تلك الكتب متخصصة في ذلك، بل تشمل عقائد وأحكاماً ولغة وبلاغة وأدلة وأحاديث وغير ذلك.

٤. **ومنها** ما هو إعادة لصياغة ما سبق بحسب مذهب المؤلف أو قناعاته، **ومنها** ما هو **إبداع وتجديد**، من حيث الصياغة، أو من حيث التدليل، أو من حيث مناسبة زمن المؤلف، وغير ذلك.

٥. **ومنها** ما يمكن أن يقرأه المسلم العادي لوحده، **ومنها** ما لا يقرؤه إلا المتحققون والمتقدمون في السلوك، أو يُحتاج فيه إلى الشيخ المتبحر المتحقق ليشرحه.

٦. **ومنها** ما هو متخصص بجانب من جوانب النفس والتربية، **ومنها** ما يتحدث عن التصوف نظرياً وتحليلياً بعيداً عن السلوك، أو يتكلم عن تطور التصوف، **ومنها** ما هو متخصص بالمصطلحات الصوفية، **ومنها** متخصص بتخريج أحاديث كتب التزكية، **ومنها** متخصص بالحديث عن طبقات الصوفية ورجالهم وأهل التربية الأكابر وكراماتهم، **ومنها** متخصص بقواعد التصوف، **ومنها** ما يقدم التربية والتزكية من خلال أحاديث رسول الله ﷺ، أو من خلال سيرته،

ومنها يتحدث عن السلوك، **ومنها** يتحدث عن الوصول والثمرات والمعارف والكشوفات والفتوح.

٧. **ومنها** ما هو الموثوق **المعتمد** عند أهل السنة، **ومنها** ما هو مقبول، يستفاد منه، ويرد بعضه أو يُؤَوَّل، أو يحتاج إلى شيخ ليشرحه ويصرف معانيه إلى المعاني المقبولة، **ومنها** ما هو مردود، أو مردود ظاهره على الأقل.

سابعاً: من كتب التصوف المعتمدة في الجملة:

أ. ما يناسب المبتدئين في السلوك والتربية:

تربيتنا الروحية: سعيد حوى، وهو كتاب معاصر، لاقى القبول عند مشايخ التصوف، يبين للسالك المبتدئ أهم ما يعتني به في بدايات السلوك، حتى يكون انطلاقه صحيحاً، كما يحل كثيراً من الإشكالات حول التصوف، فيرد بعض الشبهات، ويناقش غلو بعض الصوفية، من خلال الأدلة والرد إلى منهج أهل السنة في الاعتقاد والفقه والسلوك، وننصح من يريد التعرف على التصوف ومن يريد الابتداء بالسلوك أن يبدأ بهذا الكتاب.

الدلالة النورانية: حسني الشريف.

حقائق عن التصوف: عبد القادر عيسى، وهو كتاب معاصر، فيه أهم معالم السلوك، وينتفع منه المبتدئ كثيراً، لكنه لا يقتصر على مستوى المبتدئ، بل فيه ما هو أعلى من ذلك.

بداية الهداية: للغزالي، وهو للمبتدئين، وفيه شيء يتعلق بالعقائد والفقه، وقد هذبه الدكتور صلاح أبو الحاج، فاختصر منه قليلاً، وحَوَّلَ مسائلَه الفقهية إلى مذهب الحنفية، وسماه: **دفع الغواية في تهذيب بداية الهداية**، ومن كتب الغزالي التي ينصح بها المبتدئ: **أيها الولد المحب**.

رسالة المسترشدين: للمحاسبي (ت ٢٤٣ هـ)، وهو يصلح للمبتدئ أن يتعرف على أهم أعمال التزكية القلبية والظاهرة، وهو كتاب غير كبير، وقد حققه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة،

فجمع في حواشيه فوائد كثيرة وعظيمة، وللمحاسبي كتاب: **الرعاية لحقوق الله**، وكتاب: **التوهم**، وكتب كثيرة أخرى في التزكية والتربية.

آداب سلوك المريد: لعبد الله الحداد (ت ١١٣٢ هـ)، وهو كتاب صغير يصلح للمبتدئين، ويعطي فكرة عن أهم معالم التزكية، التي يجب أن يعتني بها السالك، عبادة وخلقاً وحالاً.

شجرة المعارف والأحوال: للعز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ)، وهو كتاب يصلح للمبتدئين في التزكية، وفيه معاني أعلى من ذلك، وهو مجلد مليء بالنصوص والأحاديث الصحيحة، يستشهد بها لمعاني التزكية.

التزكية على منهاج النبوة، معاذ سعيد حوى.

ب. ومن الكتب المعتمدة المناسبة للمتوسط في السلوك:

المستخلص في تزكية الأنفس: وهو اختصار لكتاب إحياء علوم الدين، وفيه أهم فوائده، يناسب المتوسطين في السير إلى الله، اختصره: سعيد حوى.

تنبيه الغافلين: لأبي الليث السمرقندي[١] (ت ٣٧٥هـ)، وقد تكلم عن موضوعات كثيرة في التزكية وإصلاح القلب والسلوك، وهو كتاب مليء بالأحاديث، خرج أحاديثه بعضُهم فكان الضعيف ١٣ حديثاً والموضوع ١٠، وهو في المجمل نافع مفيد، يناسب أحوال المتوسطين في السلوك.

اللمع في التصوف: لأبي نصر الطوسي (ت ٣٧٨ هـ).

قوت القلوب: لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦ هـ)، وهو في مجلدين، وقد استفاد منه الغزالي كثيراً، كما استفاد من كتاب الرعاية للمحاسبي، وفيه أحاديث ضعيفة كثيرة، وأكثرها مقبول المعنى، لكنه كثير النفع، وهو صالح ليستفيد منه المتوسط من السائرين إلى الله.

---

(١) واسم الكتاب: تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، وهو لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، الفقيه الحنفي المشهور، وهو من تلاميذ الهِنْدُوانيّ.

الأمد الأقصى: لعبد الله بن عمر بن عيسى: أبي زيد الدبوسي[1] (ت ٤٣٠ هـ)، ويعد هذا الكتاب من كتب الأخلاق ونفي العلل القلبية والنفسية كالرياء والعجب.

الرسالة القشيرية: للقشيري (ت ٤٦٥ هـ)، وهو كتاب قيم يصلح للمتوسطين، قدم له بتراجم كبار أئمة السلوك والتصوف، **وقد شرحه**: الشيخ الإمام المحقق زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦ هـ)، وهذا الشرح قيم وعظيم، ومنضبط بالشريعة انضباطاً تاماً.

حِكَم الرفاعي، والبرهان المؤيد، وحالة أهل الحقيقة مع الله، للإمام أحمد الرفاعي (ت ٥٧٨ هـ)، وهذه الكتب الثلاثة تناسب المتوسطين في السير إلى الله، في الغالب، والحِكَم هي حوالي ٢٠٠ حكمة تعتبر كالقواعد في السير إلى الله، وتعتبر كالمتن في علم التزكية والتربية.

الفتح الرباني والفيض الرحماني، للإمام عبد القادر الجيلاني.

فَذْلَكَةُ الحقيقة: لبهاء الدين محمد مهدي الروّاس (ت ١٢٨٧ هـ)، وقد جعله مؤلفه على شكل مواد، كمواد القانون، وهو غير كبير، يعتبر متناً في التربية والتزكية، ويصلح للمتوسطين.

المباحِث الأصلية، لابن البنا السَّرَقُسْطِي، وهي منظومة من حوالي ٤٥٠ بيتاً، وهي منضبطة شرعاً ونافعة جداً، تلخص السلوك ومراحله وأهم معالمه، وتبين أدلة التصوف، وتنكر على انحرافات بعض الصوفية، وقد شرحها الشيخ أحمد زروق شرحاً نافعاً، سماه: **اللوائح الفاسية**، وشَرَحْتُها في كتاب: **التزكية تصوف أهل السنة**.

عُدَّة المريد الصادق: لأحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ)، وهو ينبه السالكين إلى انحراف السلوك والقلب والفهم في مسائل التصوف والتربية.

تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية، السيوطي.

مراحل السالكين الموصل لمعراج القلوب إلى حضرات الغيوب، محمد مهدي بهاء الدين بن علي الصيادي الحسيني، الرواس.

---

(١) وهو الأصولي الحنفي أول من صَنَّفَ في علم الخلاف، صاحب كتاب: الأسرار، وكتاب: تقويم الأدلة.

ج. ومن الكتب المعتمدة المناسبة للمتقدمين في السلوك:

الحكم العطائية، لابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩ هـ)، وهذه الحكم عظيمة المعاني، ترشد إلى أعظم المعالي، تصلح متناً في التربية في أعلى درجاتها، وقد شرحها عدد كبير من العلماء شروحاً معتمدة، منهم: **ابن عباد، والشرنوبي**، وغيرهم، وممن شرحه: **ابن عجيبة الحسني**، وشرحه عظيم ومفيد جداً، وخاصة للمتقدمين، لكن فيه عبارات مشكلة، وعبارات ظاهرها مردود، ومن تلك الشروح المناسبة لزماننا:

مذكرات في منازل الصديقين والربانيين: سعيد حوى، قدم فيه المؤلف بمقدمة تدل على التزام أئمة التصوف بالشريعة وعدم الخروج عنها، وبمقدمة ثانية فيها حوالي ٦٠٠ حديث، كلها في مضمونات علم التربية والتزكية والتصوف والأخلاق والقلوب.

التعرف لمذهب أهل التصوف: للكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ والمؤلف عالم في العقائد فقيه حنفي، حرر كثيراً من المسائل، وبين الخلل الذي دخل على الصوفية منذ القرون الأولى، تحدث في مسائل عميقة، وشرح مصطلحات التصوف التي ظهرت قبل زمانه.

إحياء علوم الدين: للغزالي (ت ٥٠٥ هـ)، وهو من أعظم ما كتب في علم التزكية، وحاول أن يستوعب موضوعاتها، وفيه ما يناسب المبتدئ والمتوسط والمتحقق، وقد أبدع فيه الغزالي في ترتيب موضوعات التزكية، وتحليل النفس البشرية، وأبدع في ضرب الأمثال لتوضيح حقائق السير إلى الله، ولا ينقص من قيمته وجود بعض الأحاديث الموضوعة والضعيفة وبعض القصص المنكرة، وقد **خرج أحاديثه** عدد من العلماء، منهم **الإمام العراقي**، وقد اختصر الكتاب عدد كبير من العلماء، وقد **شرحه الإمام الزبيدي**.

موعظة المؤمنين، القاسمي.

عوارف المعارف: للسهروردي (ت ٦٣٢ هـ).

قواعد التصوف، على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة: لأحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ)، وهو كتاب قَيِّم فَريد، بَيَّنَ القواعد التي يرجع إليها علم التصوف، مِن حيثُ حقائقُه ومعارفه، ومن حيث أدلته واستنباطه، ومن حيث حكمة المربي في مراحله، وغير ذلك، وقد تَضَمَّنَ جواباً على كثير من الإشكالات حول التصوف.

المكتوبات الربانية: لأحمد السرهندي (ت ١٠٣٤ هـ)، وقد تضمن رسائل تربوية، ومسائل عميقة، والمؤلف إمام مجدد في زمانه في القارة الهندية، جدد التصوف بعدما دخله كثير من الانحراف والوهم والبدع والخلل، كما بين الندوي في كتابه عن الإمام السرهندي.

د. ومن الكتب التي تخصصت في جانب من جوانب التربية والسلوك:

الزهد، الرِّقاق، البِرُّ والصلة: للإمام ابن المبارك (ت ١٨١هـ)، وهي ثلاثة كتب، كل منها متخصص في جانب من جوانب التربية، ويغلب على المؤلف، وهكذا عامة المتقدمين، أن يكون كلامهم قليلاً جداً، ويكتفون برواية الأحاديث في الموضوعات.

الزهد: للإمام أحمد (ت ٢٤١هـ)، وهو لا يقتصر على الزهد في الدنيا، بل يتناول كثيراً من جوانب التزكية، ويقتصر على رواية الأحاديث.

كتب ورسائل ابن أبي الدنيا، فقد ألف عدداً كبيراً من الكتب الصغيرة، كل منها متخصص في جانب من جوانب التربية والتزكية، جمع فيه جمعاً طيباً من السنة النبوية والأدلة فيها.

أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ).

رياض الصالحين: الإمام زكريا النووي، وقد تضمن أهم الأحاديث التي تتعلق بموضوعات التربية والتزكية، والقلوب والأحوال، والأعمال والمستحبات، والمواعظ والترغيب والترهيب، وترك المعاصي والمكروهات.

الأدب المفرد، للبخاري.

الآداب الشرعية والمنح المرعية: لمحمد بن مفلح الحنبلي (ت ٧٦٣ هـ).

الزواجر عن اقتراف الكبائر: لابن حجر المكي الهيتمي (ت ٩٧٤ هـ)، وهو متخصص في جانب المعاصي، والترهيب منها.

تذكرة الأولياء: فريد الدين العطار، وهو متخصص في الحديث عن رجالات التصوف وكراماتهم وبعض كلماتهم، وقد ألف كثير من العلماء في هذا الجانب، كالحريفيش في كتابه: **الروض الفائق في المواعظ والرقائق**، متضمناً كثيراً من أحوال الصالحين.

دستور الأخلاق في القرآن الكريم: لمحمد عبد اللهّ دراز، وهو كتاب معاصر يعتني بجانب الأخلاق.

خُلُق المسلم: لمحمد الغزالي المعاصر، ويلفت النظر إلى كثير من الأخلاق التي غابت عن المسلمين في هذا الزمان.

إتحاف الأحياء بما فات من تخريج أحاديث الإحياء، الإمام زين الدين **قاسِمُ بنُ قُطْلُوبُغا** الحنفي (٨٠٢ – ٨٧٩ هـ)، وهو عالم كبير بالفقه والأصول والحديث والعقائد والأدب والتصوف، وقد **خرَّج أحاديث الشِّفا** للقاضي عياض، **وخرَّج عوارف المعارف** للسهروردي، **وخرَّج** أربعة كتب أخرى للغزالي: **منهاج العابدين، والأربعين في أصول الدين، وجواهر القرآن، وبداية الهداية.**

معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ابن عجيبة الحسني، وهو في مصطلحات التصوف، بحسب مستوى السالك مبتدئاً أو متوسطاً أو متقدماً.

المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى، للغزالي، وهو متخصص في الأسماء الحسنى ومعارفها والتأدب معها والتخلق بمعانيها.

التصوف في الإسلام؛ منابعه وأطواره، محمد الصادق عرجون، وهو معاصر، ويبدو أن الكتاب لم يكتمل فقد ركز على القرون الأولى وكيف تطور التصوف، وأنه كان يسمى الزهد.

الموسوعة اليوسفية، يوسف المرعشلي، وهو معاصر، ويعتني بمناقشة المسائل الخلافية في زماننا حول التصوف.

هـ. كتب غير متخصصة بالتزكية والتصوف، لكنها تضمنت كثيراً من مسائل التزكية:

لطائف الإشارات، للقشيري، وهو تفسير تضمن التنبيه إلى مسائل التزكية والمعارف، نافع للشيوخ والمتحققين والعارفين جداً.

وقد اعتنى كثير من المفسرين بإظهار مسائل التزكية خلال تفاسيرهم، منهم ابن جزي في كتابه **التسهيل**، والألوسي في كتابه **روح المعاني**، ووالدي في تفسيره **الأساس في التفسير**، ولا يخلو تفسيرٌ من ذلك في الجملة.

شروح كتب السنة، مليئة بمعاني التربية والتزكية، ومنها **شرح البخاري** لابن حجر، **وشرح مسلم** للنووي، و**شروح رياض الصالحين**، ومنها: **الفوائد المترعة الحياض** في شرح كتاب الرياض، للفقيه الحنفي ابن كَمال باشا (ت ٩٤٠هـ)، ومنها: **دليل الفالحين** لطرق رياض الصالحين، محمد بن علّان الصِّدِّيقي الشافعي (ت ١٠٥٧هـ)، ومنها: شَرْحٌ لخمسة من علماء الشام المعاصرين، الخِن ورفقاؤه؛ **نزهة المتقين** شرح رياض الصالحين.

سيدنا محمد رسول الله ﷺ؛ شمائله الحميدة، خصاله المجيدة، عبد الله سراج، وهو كتاب سيرة، ويركز على معاني التزكية والأخلاق ومقامات القلوب من خلال السيرة النبوية.

المبحث الرابع

الإنكار على طرق التربية الصوفية

تمهيد:

هناك أمور ومسائل تثار حول طرق التربية الإسلامية، والتي عرفت عبر التاريخ بطرق التصوف، فتثار حول التصوف والصوفية شبهات واتهامات، وفي هذا المبحث نناقش بعض ذلك بشكل مجمل، وواجبنا أن نكون منصفين، وأن نرجع في تقييم ذلك إلى الكتاب والسنة، وإلى علماء أهل السنة المعتبرين في الاعتقاد والفقه والتصوف السني.

١. وهذه المسائل والاتهامات بعضها مُحِقٌّ.

٢. وبعضها فيه غُلُوٌّ من بعض الصوفية أو أدعيائهم، وبعضها فيه غلو ممن يخالفهم.

٣. وبعضها يحتمل الخلاف، ولا يجوز فيه الإنكار.

٤. وبعضها جهل يحتاج إلى إصلاح الثقافة الصوفية الشائعة في بيئة ما أو بلد ما في طريقة ما.

٥. وبعضها يرجع إنكاره إلى أسباب موضوعية علمية، وبعضها يرجع إلى الاحتياط وسد الذرائع.

٦. وبعضها ناشئ عن جهل عند بعض الصوفية، وبعضها ناشئ عن جهل من ينكر عليهم.

٧. وبعضها يُخشَى أن يكون من ناس يريدون تحريف التصوف إفساده.

٨. وبعضها يعترض عليه علمياً، وبعضها يعترض عليه عملياً وتطبيقياً.

٩. وبعضها مرفوض شرعاً، وبعضها يتوهم بعض الناس أنه غير شرعي.

وبعض تلك الشبهات قد بيناها خلال الكتاب، وبينا الموقف منها، أو الدليل عليها، أو على رَدِّها.

وهاهنا لا نستطيع الاستحصاء التام، فنورد بعض تلك الشبهات ونناقشها، بما يكفي لتتضح الصورة والحكم فيه.

أهم المسائل التي يُستنكَر فيها على طرق الصوفية

حاولت أن أُسَجِّلَ ما يقال حول التصوف وما ينتقد فيه، وأجمعَ المسائل التي يُعتَرَضُ فيها على الصوفية، من خلال بعض الكتب المنتشرة، ومن خلال سؤال شريحة من أهل العلم، وشريحة من الصوفية، وشريحة من مُخالفيهم، وشريحة من العامة، فمما اشتهر من تلك المسائل والشبهات في مجتمعاتنا وبلادنا هذه المسائل:

١. التصوف يؤدي إلى الشرك
٢. التصوف يؤدي إلى البدعة
٣. التصوف يبنى على الأحاديث الموضوعة والضعيفة
٤. الاجتماع على الذكر
٥. الذكر الجماعي
٦. ذكر الاسم المفرد، أو ذكر اسم من أسماء الله
٧. الذكر بأذكار ليست في الكتاب والسنة
٨. اختراع هيئات للذكر وكيفيات، كحركة الرأس من الكتف إلى القلب، ووضع اليد اليمنى والمسبحة جهة القلب، ومد الذكر طويلاً، أو تلحينه
٩. بيعة الشيخ الصوفي المربي، وأنها بيعة غير مشروعة، وتحريف لبيعة الخليفة، والإلزام بالتسليم المطلق للشيخ، والطاعة العمياء له
١٠. فتوى الشيخ الصوفي في كل شيء، وأخذ التلميذ بفتواته، ولو لم يكن عالماً
١١. الخِرْقَة، التي يُلْبِسُها الشيخُ للسالكِ
١٢. الحركات عند الذكر، كالهز والرقص والقفز والدوران
١٣. الإنشاد مع الذكر، ودق الدف، واستعمال الموسيقى والنّاي في مجلس الذكر
١٤. الدروشة في مجلس الذكر، وما فيها من بدع، ومنها الهمهمة والهوهوة والأحأحة، وتسميتها بالحضرة
١٥. العناية بذكر اسم الله: الحي أو اللطيف دون غيره من الأسماء، وذلك لم يأت في سُنَّة

١٦. الاستغاثة بالأموات، وطلب الشفاعة من الأولياء

١٧. زيارة القبور على نية قضاء الحاجات

١٨. التبرك بالقبور والشيوخ

١٩. التوسل بالصالحين والأولياء

٢٠. الاستمداد من غير الله من الأنبياء والملائكة والصالحين، بقولهم: مدد يا فلان

٢١. الغلو والمبالغة في مدح النبي ﷺ وفي مدح مشايخهم وأئمتهم

٢٢. رفع رتبة النبي ﷺ إلى الربوبية والألوهية، ووصفه بما ليس فيه حقيقة

٢٣. الغلو في الشيوخ؛ فيعتبرونهم مخصوصين، ويرفعون رتبتهم فوق رتبة النبوة، وقريباً من رتبة الألوهية، أو إعطائهم بعض صفات الربوبية والألوهية

٢٤. الدعاوى العريضة الكاذبة، بنسبة الرُّتَبِ العالية والأحوالِ الخاصة لأنفسهم أو مشايخهم

٢٥. التصوف لا أساس له في الدين والسَّلَف، لا اسماً ولا مضموناً

٢٦. مصطلحات الصوفية، ابتداعها، وفساد معانيها شرعاً، وادعاؤهم لها تأويلات بعيدة

٢٧. ادعاء وجود دولة للصالحين، يسمونها دولة أهل الله، أو دولة أهل الباطن، وادعاء وظائف ومراتب فيها، كالقطب والإمامين والأوتاد والأبدال والأنجاب والعُصُب والأفراد ورجال الغيب

٢٨. ادعاء التصريف في الكون لغير الله

٢٩. ادعاء وصول الشيخ والسالك إلى رتبة يسقط عنه فيها التكليف

٣٠. تقبيل أيدي مشايخهم وإخوانهم

٣١. القيام للشيخ المربي، ولإخوانهم في الطريق

٣٢. جعل شيوخهم فوق الشريعة، فيقدمون كلامهم على كلام علماء الشريعة من المتكلمين والفقهاء والأصوليين، ويخالفونهم، ويحاكمون العلوم بأقوال أئمتهم

٣٣. ادعاء الخطوة لمشايخهم، وأنها من الكرامات، وهي الانتقال من مكان إلى مكان بعيد بلحظة

٣٤. ضرب الشيش والسيف والدخول في النار وأكل الزجاج، وادعاء أنها كرامة وليست سِحْراً

٣٥. قولهم بالشطحات والخرافات والخزعبلات
٣٦. تفضيلهم العزلة على الخلطة، واعتمادهم للخلوة الدائمة، والعزلة التامة عن المجتمع
٣٧. اعتقادهم حضور النبي ﷺ في الحضرة أو في مجلس الذكر، ووقوفهم عند ذلك
٣٨. عدم إنكار منكرات الحكام وأصحاب السلطان، وعدم تغييرها، بحجة أنها قدر من الله
٣٩. القبورية، بعبادة القبور، والتبرك بها، والطواف حولها، وبناء المساجد فوق القبور، ودفن شيوخهم في المساجد
٤٠. الاجتماعات الضخمة الكبيرة عند الأضرحة، لا سيما في تاريخ وفاة الولي أو الصحابي
٤١. الاحتفال بالمناسبات، كالهجرة والإسراء ومولد النبي ﷺ، وتسميتها بالموالد، والغلو والنفاق في تلك المجالس
٤٢. كُتُبُ الموالِد، وما فيها من إشكاليات وخرافات وعقائد باطلة وشطحات وكلام فاسد، كمولد الحمصي نموذجاً
٤٣. ادعاء الوصول الى الله
٤٤. ابتداع طرق الصوفية، باختراع طرق للسلوك، والانتساب إليها وإلى رجالاتها، وترك الانتساب للإسلام
٤٥. عدم الاهتمام بطلب العلم، كعلم العقيدة والفقه، بل والتنفير من ذلك
٤٦. الزهد السلبي، بعدم الموازنة بين الدنيا والآخرة، وبالتقشف الشديد، وترك العمل، وعدم عمارة الأرض
٤٧. التوجه الشديد إلى العبادة والذكر على حساب واجبات العمل الدنيوي والاجتماعي والسياسي
٤٨. ادعاء علم الغيب، وأن النبي ﷺ يعلم الغيبَ كله، وأن شيوخهم يعلمون الغيب
٤٩. ادعاء إمكانية الكشف؛ السمعي والبصري والشَّمِّي
٥٠. انحرافات الصوفية في العقيدة، فهم فرقة ضالة، ويصل بعضهم إلى الكفر

٥١. أخذ الصوفية عقائدهم وأفكارهم وطقوسهم من النصرانية والبوذية والباطنية والشيعة، ومخالفتهم لعقائد أهل السنة من السلف والأشاعرة والماتريدية، وادعاء أن العارف له اعتقاد خاص

٥٢. التشدد الزائد في الدين، والمبالغة والتعصب من غير دليل مقنع، وجعل الورع واجباً

٥٣. تعذيب النفس، ويسمونها مجاهدة النفس.

٥٤. القول بالحلول والاتحاد، والوحدة المطلقة، وأن المخلوقات هي عَيْنُ الخالق

٥٥. الرابطة مع الشيخ، باستحضاره وتَذَكُّرِه دائماً

٥٦. إدخال العامة في دقائق التصوف قبل أن يتعلموا العقائد الضرورية والمتون الفقهية

٥٧. عدم مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومعرفتهم

٥٨. الغلو في المدائح والأشعار، ووجود التجاوزات والشطحات والعبارات الباطلة والموهِمَة

٥٩. المبالغة في العبادات، بالاستكثار منها، أكثر مما ورد عن النبي ﷺ والسلف

٦٠. اتخاذ ذرائع موصلة إلى الشرك بطرق ملتوية

٦١. إباحة اختلاط الرجال بالنساء، في مجالس الذكر وغيرها، ومصافحة النساء للشيخ، والخلوة به، بحجة مصلحة التربية وأنه طاهر القلب، وصلاة النساء بين الرجال في صلاة الجماعة

٦٢. تبرير الصوفية للعصاة والفاسقين، ودفاعهم عن الحكام الظالمين

٦٣. عدم التفريق بين التصوف السني والتصوف البدعي

٦٤. القول بالتفسير الإشاري والباطني، والأخذ به، وتقديمه على التفسير الظاهر

٦٥. يَدَّعون أنهم على طريق الإحسان؛ ثم لا يُرَوِّجُون لمنهجهم وفِكرِهم الذي يعتقدون صحته

٦٦. إيجاب الطاقية الخضراء، وألبسةً خاصةً بهم

٦٧. التحدث بالكرامات كثيراً، والتحدث عن دولة أهل الباطن كثيراً، ولم يَرَوْها

٦٨. خفاء العقائد التي يعتقدونها

٦٩. التُّقْية عند كثير من الصوفية، إذ يخفي عقيدته، ويتظاهر بغيرها

٧٠. سلوكيات منكرة لبعض شيوخهم، يبررونها ويدافعون عنها، فقد تظهر معصية أو كبيرة من الشيخ فيدافعون عنه ويبررون له، وقد تظهر عدم أهلية الشيخ للتربية فيَبْقون مُلازِمين له

٧١. الغلو في حب آل البيت

٧٢. عدم الاهتمام بأمر المسلمين وأحوالهم العامة

٧٣. الصوفية لا يهتمون بالدعوة والسياسة والحكم والحياة العملية

٧٤. الصوفية لا يهتمون بالجهاد، الغزالي نموذجاً في كتابه: إحياء علوم الدين

٧٥. الاهتمام بالسلوك وبصحبة الشيخ والإخوان على حساب أهلهم وواجباتهم

٧٦. تحريف معاني الشريعة، بفهم الآيات والأحاديث بطريقة غير صحيحة

٧٧. ادعاء رؤية النبي ﷺ والصالحين يقظة

٧٨. جعل رؤية النبي ﷺ في المنام تشريعاً، يجب اتباعه ولو خالف الشريعة

٧٩. القول بأن الإلهام يفيد تشريعاً وعلماً قطعياً لا ظنياً

٨٠. ادعاء أن الكرامة يمكن أن تقلب الأعيان، وأن بعض الكرامات يملكها الولي فتكون بيده وبقدرته، ولا يشترط أن تجري عليه بغير إرادته

٨١. تصريح التلاميذ لشيوخهم بالمعاصي، وكأن لدى الشيوخ صُكُوكَ غُفْران

٨٢. الإلزام بأوراد الشيوخ وأحزابهم، والالتزام بها أكثر من أوراد السنة

٨٣. يقول الصوفية: يغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، لأنهم صوفية

٨٤. يقول الصوفية: لو تركت وردك يصيبك البلاء

وغير ذلك.

وقد أنكر أئمة التصوف من ذلك ما كان منكراً، وحذروا منه، ولقد لخص الشيخ أحمد زروق **أسباب الإنكار على الصوفية** فقال:

« دواعي الإنكار على القوم خمسة:

أولها: النظر لكمال طريقهم، فإذا تعلقوا برخصة، أو أتوا بإساءة أدب، أو تساهلوا في أمر، أو بدر منهم نقص، أُسرع للإنكار عليهم، لأن النظيف يظهر فيه أقل عيب، ولا يخلو العبد من عيب، ما لم تكن له من الله عصمة أو حفظ.

الثاني: دِقَّة المُدْرك، ومنه وقع الطعن على علومهم في أحوالهم، إذ النفس مسرعة لإنكار ما لم يتقدم لها علمُه.

الثالث: كثرة المبطلين في الدعاوى، والطالبين للأغراض بالديانة، وذلك سبب إنكار حال من ظهر منهم بدعوى، وإن أقام عليها الدليل، لاشتباهه.

الرابع: خوف الضلال على العامة باتباع الباطن، دون اعتناء بظاهر الشريعة، كما اتفق لكثير من الجاهلين[1] .

الخامس: شحة النفوس بمراتبها، إذ ظهور الحقيقةِ مُبطِل حقيقةً، ومن ثم أولع الناس بالصوفية أكثر من غيرهم، وتسلط عليهم أصحاب المراتب أكثر من سواهم، وكل الوجوه المذكورة صاحبها مأجور[2] أو معذور، إلا الأخير، والله أعلم »[3].

وبعض الأمور التي **تُنْكَرُ على الصوفي؛ ترجع إلى عدم صدقه،** لا إلى انحراف في التصوف نفسه، وقد اعتنى أئمة الصوفية بتمييز **المريد الصادق والمريد الكاذب**، وممن ألف في ذلك وفصَّل:

---

(١) فيكون التحذير من التصوف هنا لا لانحرافه، وإنما من باب سد الذريعة، خشيةً من الجهلة وأصحاب النوايا السيئة.

(٢) أي له أجر عند الله، على الرغم من أنه أخطأ في إنكاره، لأنه مقصده صحيح.

(٣) قواعد التصوف: القاعدة رقم ٢٠٨، ص ١٨٩.

الإمام عبد الوهاب **الشعراني** في كتابه: الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق.

والإمام ابن **الجوزي** في كتابه: تلبيس إبليس.

والشيخ أحمد **زروق** في كتابه: عدة المريد الصادق.

وقد أفرد **ابن البنا السرقسطي** فصلاً[1] في منظومته المباحث الأصلية، في بيان مسائل منكرة عند بعض الصوفية مردها إلى تصرفات خاطئة عند السالكين، أو إلى اتباع الهوى، أو إلى استغلال التصوف استغلالاً سيئاً، ولا ترجع إلى خلل في التصوف منهجياً.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

(١) انظر منظومة المباحث الأصلية، الفصل الخامس: في فقراء العصر، ومتشبهة الوقت، وانظر شرحها في كتاب: التزكية تصوف أهل السنة، معاذ حوى.